بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم والحديث

دراسة فنية وموضوعية

إعداد

زياد محمد جميل بني عمر

إشراف

الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن

حقل التخصص – الدراسات الأدبية والنقدية

2010 م

قرار لجنة المناقشة

السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم والحديث

دراسة فنية وموضوعية

إعداد

زياد محمد جميل بني عمر

ماجستير في اللغة العربية وآدابها ، جامعة آل البيت 2006 م

قدمت هذه الدراسة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في الدراسات الأدبية والنقدية في جامعة العلوم الإسلامية العالمية ، عمان ، الأردن .

وافق عليها		التوقيع
عفيف عبد الرحمن	رئيسا	....
أستاذ الأدب العربي القديم في جامعة العلوم الإسلامية العالمية		
عبد الجليل عبد المهدي	عضوا	....
أستاذ الأدب العباسي في جامعة العلوم الإسلامية العالمية		
سمير قطامي	عضوا	....
أستاذ الأدب الحديث المشارك في جامعة العلوم الإسلامية العالمية		
عيسى العبادي	عضوا	....
أستاذ الأدب الحديث المشارك في جامعة العلوم الإسلامية العالمية		
إبراهيم السعافين	عضوا	....
أستاذ الأدب الحديث في الجامعة الأردنية		

تاريخ تقديم الأطروحة / /2010 م

الإهداء

إلى الذين ما زالت الكلمة تحمل عندهم همّا ومعنى

إلى الوالد العزيز

إلى كل الأهل والأحبة والأصدقاء الأوفياء

إلى الأخ والصديق خالد العبد الكريم ..

الذي بقي وفيا رغم بعد المكان

إلى ابنتي الصغرى جنى

التي كلما نظرت إليها زال التعب وتبددت الهموم

شكر وتقدير

إلى زوجتي الغالية

عرفانا بالمحبة والجميل

وإلى بناتي رياحين القلب

أميمة ولمى وإيمان ومي وشذى وجنى

وخالص المحبة لابنتي أميمة لطباعتها هذه الرسالة

فهرس المحتويات

الملخص باللغة العربية :

زياد محمد جميل بني عمر ، السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم والحديث دراسة فنية وموضوعية .

تسعى هذه الدراسة نحو دراسة فن السيرة الذاتية، وتتبع تطوره قديما وحديثا من خلال دراسة لهذا الفن في الأدب العربي القديم، وتتبع نشأته وبيان المساحة التي شغلها هذا الفن في الأدب العربي قديمه وحديثه, ثم دراسة بناءه الفني .

وقد فرضت طبيعة الظاهرة المدروسة والأسئلة التي ولدتها تقسيم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة .

أولا : المقدمة: وقد بين الباحث فيها مشكلة الدراسة،ومسوغاتها،والدراسات السابقة ومنهج البحث، وتقسيم الدراسة .

ثانيا : التمهيد : ويتناول التمهيد التعريف بالسيرة الذاتية ومفاهيمها عند النقاد الغربيين والعرب .

ثالثا : الباب الأول : وعنوانه " السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم" وجاء على شكل فصلين .

ويتناول الفصل الأول وعنوانه " تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم "، دراسة لفن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، وحاول كشف جذور هذا الفن وبذوره في أدبنا القديم وتراثنا، ووقف المحور الأول عند نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم عارضا ومناقشا لآراء أهم النقاد، ووقف المحور الثاني عند السير في العصور الإسلامية المتلاحقة مبينا أنواع السير وخصائصها، أما المحور الثالث فوقف عند السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم مصنفا لها، وعارضا لأهم نماذجها، ومبينا لأهم خصائصها وملامحها .

وقد خصص الفصل الثاني لدراسة السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم دراسة فنية وموضوعية ، وقد اختار مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري المسماة بكتاب (التبيان) أنموذجا، فعرض للدراسات السابقة في المحور الأول ، ثم قام بعرض وتحليل لهذه السيرة في المحور الثاني .

أما المحور الثالث فتناول فيه هذه المذكرات بالدراسة الفنية ، فوقف عند اللغة ، والسرد والحوار ، والفضاء المكاني والزماني .

وقد خصص الباب الثاني لدراسة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وقسم إلى ثلاثة فصول .

تناول الفصل الأول وعنوانه " النشأة والتطور " الظروف الحضارية التي أثرت على نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث وتطورها في المحور الأول، ووقف المحور الثاني عند مرجعيات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، فوقف عند المرجعية التراثية ، والمرجعية الغربية ، والمرجعية الإيديولوجية الفكرية .

أما المحور الثالث ، فوقف عند إرهاصات وبدايات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث متناولا بالدراسة " الساق على الساق " للشدياق ، و " الأيام " لطه حسين .

وقد خصص الفصل الثاني لدراسة السير الذاتية والأجناس الأدبية، وحاولت الدراسة،في هذا الفصل، تبيان الأشكال الأدبية القريبة من السيرة الذاتية، ومحاولة تمييز بعضها عن بعضها الأخر،فتناول المحور الأول السيرة الذاتية والتاريخ، وتناول المحور الثاني السيرة الذاتية والمذكرات، أما المحور الثالث فتناول السيرة الذاتية واليوميات، وجاء المحور الرابع ليتحدث عن السيرة الذاتية والسيرة الغيرية، وخصص المحور الرابع للحديث عن السيرة الذاتية والرواية .

أما الفصل الثالث وعنوانه " السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث دراسة فنية، فاختار السيرة الذاتية لفدوى طوقان " الرحلة الأصعب " ، والسيرة الذاتية لفتحي البس " انثيال الذاكرة هذا ما حصل" أنموذجا للدراسة ، فقام بعرضهما وتحليلهما، ثم وقف عند أهم سماتهما الموضوعية والفنية, أما الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وكل ما يطمح إليه هذا البحث أن يكون قد أجاب عن بعض الأسئلة وأن يفتح الباب أمام أسئلة أخرى كثيرة .

المقدمة :

تسعى هذه الدراسة نحو دراسة فن السيرة الذاتية ، وتتبع تطوره قديما وحديثا من خلال دراسة تأصيلية لهذا الفن في الأدب العربي القديم ، وتتبع نشأته وبيان المساحة التي شغلها هذا الفن في الأدب العربي قديمه وحديثه , ثم دراسة بناءه الفني .

ولهذا تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية :

أولا : ما الحيز الذي شغلته السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم وما هي مراحل نموها وتطورها ؟

ثانيا : ما مدى التطور والنمو والمراحل التي مر بها فن السيرة الذاتية في الأدب العربي في العصر الحديث ؟

ثالثا : ما الأشكال الفنية التي أخذها فن السيرة الذاتية في القديم والحديث ؟

رابعا : كيف تشكل البناء الفني لأشكال السيرة الذاتية قديما وحديثا ؟

ولهذا تفترض الدراسة وجود حيز مهم للسيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ونقده ، وتسعى هذه الدراسة نحو بيان هذا الحيز وإبراز أهميته .

وكذلك تعرض الدراسة أهمية السيرة الذاتية ونموها وتطورها وأخذها أشكالا فنية مختلفة، كما تحاول هذه الدراسة بيان مراحل تطور السيرة الذاتية ، ودراسة أشكالها الفنية المتعددة دراسة نقدية فنية .

وتهدف الدراسة إلى ما يأتي :

أولا : التعريف بفن السيرة الذاتية، ومناقشة تعريفات النقاد الغربيين والعرب .

ثانيا: دراسة فن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ونقده، وتتبع مراحل نموه وتطوره.

ثالثا: تتبع مراحل ونمو وتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي في العصر الحديث.

رابعا : دراسة الأشكال الأدبية والفنية التي أخذها فن السيرة الذاتية .

خامسا: دراسة نماذج من السيرة الذاتية ، قديمة وحديثة ، دراسة فنية و موضوعية ونقدها وتحليلها .

وأما مبررات ومسوغات هذه الدراسة ، فتكمن أولا في رغبتي في دراسة هذا الفن الأدبي ؛ لما يحتويه من قيم إنسانية وإبداعية .

وثانيا في خلو الدراسات السابقة من دراسة شمولية للموضوع، حيث أن تلك الدراسات – في جلها – تناولت قضايا جزئية ، ولم تظفر السيرة الذاتية في الأدب العربي بدراسة متكاملة ، تتعرض لظروف نشأتها، وطبيعتها ، وماهيتها، والعوامل المؤثرة فيها ، وتبين ملامح تطورها .

أما المسوغ الثالث فيكمن في محاولة الدراسة الكشف عن جماليات فن السيرة الذاتية وأشكاله .

الدراسات السابقة :

لم تحظ السيرة الذاتية في الأدب العربي بدراسة شاملة ومتكاملة تتناول بداياتها ونشأتها وطبيعتها وتبين ملامح تطورها، وما تشتمل عليه من عناصر ميزتها عن الفنون الأدبية الأخرى .

وقد تعرضت بعض الدراسات السابقة إلى شيء من هذه المواضيع ، فدراسة شوقي ضيف "الترجمة الشخصية"، ودراسة إحسان عباس" فن السيرة "، ودراسة محمد عبد الغني حسن " التراجم والسير "، ودراسة يحيى إبراهيم عبد الدايم " الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث " ، وهي أول دراسة أكاديمية حول السيرة الذاتية ، وقبلها دراسة عبد المحسن طه بدر " تطور الرواية العربية "، ودراسة ماهر حسن فهمي " السيرة تاريخ وفن " ، وهذه الدراسات لم تتعرض لأمور السيرة مجتمعة ، ولكن يسجل لها فضل السبق والريادة ، ولفت أنظار النقاد والدارسين إلى أهمية فن السيرة الذاتية ، وبعد هذه الدراسات توالت الدراسات حول السيرة الذاتية ، ولكنها تعد دراسات جزئية تناولت مراحل معينة ونماذج محددة .

ومن هذه الدراسات :

1. دراسة مصطفى نبيل ، سيرة ذاتية عربية من ابن سينا حتى علي باشا مبارك .
2. دراسة شكري المبخوت الموسومة بـــ " سيرة الغائب، سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين .
3. دراسة أنعام غانم عبد الله الموسومة بـــ " السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث " (رسالة ماجستير) .

4. دراسة ناجي حسن أبو شريحة الموسومة بـــ " السيرة الذاتية في بلاد الشام " (رسالة ماجستير).

5. دراسة عائشة الحكمي الموسومة بـــ " تعالق الرواية مع السيرة الذاتية: الإبداع السردي السعودي أنموذجا " .

6. دراسة تهاني شاكر الموسومة بـــ " السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا.

7. دراسة فايز عثامنه الموسومة بـــ"السيرة الذاتية في الأردن الذات والإطار الاجتماعي " .

8. دراسة عبد الفتاح أكفوح الموسومة بـــ"السيرة الذاتية الإسلامية"(رسالة دكتوراه) .

9. دراسة عبد الله توفيق الموسومة بـــ "السيرة الذاتية في النقد الأدبي الحديث، مقاربة في نقد النقد " (رسالة دكتوراه) .

10. دراسة فاطمة أحمد زياد محبك الموسومة بـــ" السيرة الذاتية عند الأدباء السوريين في القرن العشرين (رسالة ماجستير) .

ويلحظ من استعراض الدراسات السابقة المبرر والمسوغ لهذه الدراسة، حيث تسعى إلى الإحاطة والشمول بقضايا وموضوعات فن السيرة الذاتية؛ لتكون مرجعا وافيا للباحثين .

المنهج :

إن دراسة فن السيرة الذاتية دراسة شاملة تهدف إلى الإحاطة بجل القضايا التي تدور حول السيرة الذاتية من محاولة تتبع نشأتها وجذورها قديما وحديثا ، ومن دراسة البناء الفني لأشكالها المتعددة، ومن دراسة الآراء النقدية حول السيرة الذاتية قديما وحديثا.

ويتطلب ذلك منهجا يستطيع استيعاب القضايا المختلفة والمتعددة , ويحقق للباحث مرونة في التعامل مع هذه القضايا ، ولعل الباحث وجد ضالته في المنهج التكاملي الذي يفيد من مختلف مناهج البحث، فلعله يفيد من المنهج التاريخي عند تتبع السيرة الذاتية وتأصيلها، كما يفيد المنهج التكاملي من المنهج النفسي والاجتماعي عند تحليل النصوص ، ويفيد المنهج التكاملي من مناهج بحث أخرى وذلك حسب مقتضيات الدراسة والبحث .

وقد فرضت طبيعة الظاهرة المدروسة والأسئلة التي ولدتها تقسيم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة .

أولا المقدمة: وقد بين الباحث فيها مشكلة الدراسة، ومسوغاتها، والدراسات السابقة ومنهج البحث ، وتقسيم الدراسة .

ثانيا: التمهيد : ويتناول التمهيد التعريف بالسيرة الذاتية ومفاهيمها عند النقاد الغربيين والعرب .

ثالثا: الباب الأول : وعنوانه " السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم " وجاء على شكل تمهيد وفصلين .

الفصل الأول وعنوانه " تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم "، تناول دراسة تأصيلية لفن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، وحاول كشف جذور هذا الفن وبذوره في أدبنا القديم وتراثنا، ووقف المحور الأول عند نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم عارضا ومناقشا لآراء أهم النقاد ، ووقف المحور الثاني عند السير في العصور الإسلامية المتلاحقة مبينا أنواع السير وخصائصها، أما المحور الثالث فوقف عند السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم مصنفا لها، وعارضا لأهم نماذجها،ومبينا لأهم خصائصها وملامحها.

وقد خصص الفصل الثاني لدراسة السير الذاتية في الأدب العربي القديم دراسة فنية وموضوعية، وقد اختار مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري المسماة بكتاب(التبيان)أنموذجا، فعرض للدراسات السابقة في المحور الأول،ثم قام بعرض وتحليل لهذه السيرة في المحور الثاني .

أما المحور الثالث فتناول فيه هذه المذكرات بالدراسة الفنية، فوقف عند اللغة ، والسرد والحوار، والفضاء المكاني والزماني .

وقد خصص الباب الثاني لدراسة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وقسم إلى ثلاثة فصول .

تناول الفصل الأول وعنوانه " النشأة والتطور " الظروف الحضارية التي أثرت على نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث وتطورها في المحور الأول، ووقف المحور الثاني عند مرجعيات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، فوقف عند المرجعية التراثية، والمرجعية الغربية، والمرجعية الإيديولوجية الفكرية .

أما المحور الثالث، فوقف عند إرهاصات وبدايات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث متناولا بالدراسة " الساق على الساق " للشدياق، و " الأيام " لطه حسين .

وقد خصص الفصل الثاني لدراسة السير ذاتية والأجناس الأدبية، وحاولت الدراسة، في هذا الفصل ، تبيان الأشكال الأدبية القريبة من السيرة الذاتية، ومحاولة تمييزها عن بعض، فتناول المحور الأول السيرة الذاتية والتاريخ ، وتناول المحور الثاني السيرة الذاتية والمذكرات، أما المحور الثالث فتناول السيرة الذاتية واليوميات، وجاء المحور الرابع ليتحدث عن السيرة الذاتية والسيرة الغيرية ، وخصص المحور الرابع للحديث عن السيرة الذاتية والرواية .

أما الفصل الثالث وعنوانه " السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث دراسة فنية، فاختار السيرة الذاتية لفدوى طوقان " الرحلة الأصعب "، والسيرة الذاتية لفتحي البس " انثيال الذاكرة هذا ما حصل" أنموذجا للدراسة ، فقام بعرضهما وتحليلهما، ثم وقف عند أهم سماتهما الموضوعية والفنية, أما الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

ولا يفوتني هنا أن أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى شيخي وأستاذي الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن الذي لولا توجيهاته وإرشاداته الحثيثة والعميقة ما خرجت الدراسة بهذا الشكل،والشكر موصول إليه لأنه علمنا، قبل كل شيء،كيف يكون الأستاذ أبا وإنسانا، ففتح لنا قلبه وبيته ومكتبته .

والشكر والتقدير إلى الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين، والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، والدكتور سمير قطامي ، والدكتور عيسى العبادي الذين أثروا الدراسة بملاحظاتهم القيمة والعميقة ، كما أشكر كل من قدم لي يد العون والمساعدة ولم يبخل بالمشورة.

وكل ما يطمح إليه هذا البحث أن يكون قد أجاب عن بعض الأسئلة وأن يفتح الباب أمام أسئلة أخرى كثيرة .

تمهيد :

تعريف السيرة الذاتية :

ما زال فن السيرة فنا مستعصيا على التعريف، وكلما أقدم أحد النقاد والباحثين على تعريف السيرة الذاتية أتبع تعريفه بسيل من الاستثناءات والتوضيحات، ولم يستطع احدهم الوصول إلى حد جامع مانع، وظلت الإشكالية قائمة، ولا يمكن لنا أن نحمل وجود هذه الإشكالية على الجانب السلبي،بل نحملها على الجانب الايجابي، فاستعصاء السيرة الذاتية على التعريف قد يكون دليلا على عمق هذا الفن وشموليته وتعدد أشكاله وألوانه، ويرى كثير من النقاد أن سبب هذا الاختلاف عائد إلى كون هذا الفن حديث النشأة، ولم يتشكل له مذهب نقدي خاص "ولما كان تشكل مذهب نقدي خاص بالسيرة الذاتية لم يزل إلى أيامنا هذه في طور النشأة،فلا ينبغي أن يأخذنا العجب من عدم اتفاق النقاد والمنظرين بعد على تحديد مقبول للموضوع المدروس"(1).ولهذا نجد بعض النقاد يحجمون عن تعريف السيرة الذاتية كجورج ماي، فقد اكتفى في البداية بتعريف بسيط مطابق لتعريف جان ستار وبنسكي" السيرة الذاتية هي سيرة شخص يكتبها بنفسه " يقول ماي:" فحسبنا الآن أن نورد هذا التعريف البسيط السيرة الذاتية هي سيرة كتبها من كان موضوعا لها"(2).

وقد وعدنا جورج ماي بأن يصل إلى تعريف للسيرة الذاتية في النهاية إلا أن نهاية كتابه جاءت،ولم يستطع ماي أن يأتي بتعريف، بل جاء بمجموعة من الخصائص والمزايا والدوافع للسيرة الذاتية؛ولهذا لم يخرج عن تعريف من سبقوه،والذي أورده بشكله المبسط، السيرة الذاتية نوع خاص من السيرة، بل وصل فيه الأمر إلى القول:" فأيّ نفع يرجى من أن نضيف إلى تعريفاتهم تعريفا آخر قد يكون محل جدل؟ ولعل هذا التعريف يثير على الفور سخطا لدى قسم من القراء بقدر ما يثير من الرضا لدى قسم آخر منهم . هذا إن لم يكن السخط أغلب . أضف إلى ذلك أن هذا التعريف قد ينطوي على عيب آخر أشد خطرا يتمثل في أنه قد يلفت انتباه القراء خطأ إلى جانب إن نحن تدبرناه بدا لنا أنه ليس أهم جوانب السيرة الذاتية شأنا. والرأي عندنا أن المهم على وجه الخصوص وبالدرجة الأولى

---

1) ماي ،جورج،السيرة الذاتية ،ت محمد القاضي و عبد الله الصولة، تونس ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، ط1 ، 1992 م ،ص 14.
2) المرجع السابق ،ص 16 .

الأولى إنما هو أن نشرك القارئ في المتعة والفائدة اللتين وجدناهما في مطالعتنا السير الذاتية ، وأن نساعده إن أمكن على أن يتذوق مطالعته الخاصة تذوقا أفضل"(1). ويرى في النهاية خيبة الأمل في الحصول على تعريف صارم للسيرة الذاتية "بأن جنس السيرة الذاتية بصدد التكون أو أنه يوشك أن يتأسس، أدركنا أن الأوان لم يحن بعد لكي نعرفه على غرار الأجناس الأخرى" (2). واتخذ تعريف السيرة الذاتية في الغرب ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الأول عرف السيرة الذاتية تعريفا واسعا فضفاضا يتسم بالتعميم، ولم يعتمد من مقومات السيرة الذاتية سوى مقوم واحد وهو تطابق الكاتب والشخصية، وأبرز النقاد لهذا الاتجاه الألماني جورج ميتش والإنجليزي واين شوميكر"(3).

أما الاتجاه الثاني فقد أحجم عن التفريق حرصا منهم على الدقة ، فأعرضوا عن وضع الحدود،وأشهر هؤلاء النقاد جورج ماي الذي تحدثنا عنه قبل قليل، أما الاتجاه الثالث قد اجتهد أصحابه ما أمكن في وضع تعريف ومفهوم للسيرة الذاتية منطلقين . من أن السيرة الذاتية جنس قائم بذاته، وله كيانه الخاص. وأشهر أصحاب هذا الاتجاه هو فيليب لوجون .

أما فيلب لوجون فعرفها بقوله:" حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة " (4) .

ويعد تعريف الفرنسي فيليب لوجون للسيرة الذاتية الأكثر شهرة والأكثر دقة وتفصيلا ، وكذلك الأكثر قبولا عند النقاد، وفي الوقت نفسه الأكثر انتقادا ومناقشة .

بل إن لوجون نفسه انتقد تعريفه في دراسات لاحقة لدراسة الميثاق، ورغم الانتقادات الكثيرة إلا أن تعريف لوجون يبقى أكثر تعريفات السيرة الذاتية تماسكا .

وقد جاء هذا التعريف بواسطة سلسلات من التعارضات بين مختلف النصوص المقترحة للقراءة. وبهذا التعريف يكون لوجون قد تراجع عن تعريف سابق له ورد في كتابه

---

1) ماي ، جورج ،السيرة الذاتية ، ص 122 .

2) المرجع السابق ،ص 220.

3) الطريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، تونس ، مؤسسة عيدان للنشر ، ط1 ، ج1 ، 2004 م ، ص 115 – 116 .

4) لوجون ، فيليب ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ،ترجمة عمر حلي،بيروت،المركز الثقافي العربي،1994، ص 22.

" السيرة الذاتية في فرنسا " ويرى لوجون أن تعريفه الجديد يستند إلى عناصر تنتمي إلى أربعة أصناف مختلفة هي : (1)

1- شكل اللغة : أ- حكي. ب- نثري .

2- الموضوع المطروق : حياة فردية ، وتاريخ شخصية معينة.

3- وضعية المؤلف : تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية)

4- وضعية السارد : أ- تطابق السارد والشخصية الرئيسية .

ب- منظور استعادي للحكي .

وقد حاول فيليب لوجون في مؤلفه الأخير " أنا أيضا " أن ينتقد هذا التعريف الذي وضعه في الميثاق ، وقد لخص مترجم الكتاب عمر حلي هذه الانتقادات والملاحظات في مقدمته، ويختم هذه المقدمة بقوله :"هكذا يعيد هذا الباحث المنظّر النظر جذريا في " ميثاق السيرة الذاتية " الذي كان قد صاغه فيما سبق ، والذي غزا أغلب الدراسات التي اهتمت بهذا النوع من الكتابة الأدبية . والحق أن هذا النقد الذاتي الذي يقدمه لوجون يحفز على البحث أكثر مما يدعو إلى الركون إلى نتائج علمية قد تبدو مدهشة للوهلة الأولى ، لكن سرعان ما تزول عنها طليعيتها بمجرد ما يعاد فيها النظر انطلاقا من مساءلة أسسها ، وكذا مدى انسجامها مع واقع الظاهرة الأدبية "[(2)].

---

1) لوجون ، فيليب ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ، ص 22.
2) المرجع السابق ، مقدمة المترجم ، ص 19.

تعريف السيرة الذاتية عند النقاد العرب

لم يخرج النقاد العرب في تعريفاتهم عن الاتجاهات الثلاثة التي اتسمت بها تعريفات الغربيين ، فقد تأثر النقاد العرب بالنقد الغربي عند تناولهم لمفهوم السيرة الذاتية. وكثير ممن حاول تحديد مفهوم السيرة الذاتية بقي حذرا؛ خشية الوقوع في إشكالية التعريف، فإحسان عباس فضل التحدث عن دوافع السيرة الذاتية ومقوماتها الفنية، واكتفى بقوله : "وليست الترجمة الذاتية حديثا ساذجا عن النفس، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر، ومن ثم كنا نستسيغها ونجد فيها متعة عميقة "[1].

أما محمد عبد الغني حسن فتأثر بأبسط التعريفات الغربية فيقول: "الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره ، ويسرد أعماله وآثاره ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته" [2] .

ويأتي ماهر حسن فهمي لينهج نهج إحسان عباس، فتحدث عن بناء السيرة وفنيتها. إذن فالملاحظ على هذه الدراسات أنها تجاهلت وغضت الطرف عن قضية مفهوم السيرة الذاتية وحاولت الإشارة إلى ملامحها ومحاولة التفريق بين فن السيرة والسيرة الذاتية،ومما يحمد لها أنها مهدت الطريق للدخول في مرحلة الوعي بضرورة وضع مفهوم للسيرة الذاتية، وهو ما بدأه يحيى عبد الدايم في السبعينيات في أولى الدراسات العلمية والأكاديمية الجادة في رسالته للدكتوراه " الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث " فقد استوجبت الدراسة ضرورة إيجاد تعريف فني للسيرة الذاتية العربية، وقد نحا بمفهوم السيرة الذاتية ودراستها نقديا منحى جديدا أكثر علمية وأكثر دقة، وبدا أثره واضحا ولمدة طويلة على الدراسات التي تلت، ومع هذا كله, بقي تعريفه مطلقا يتسم بالتعميم وعدم التحديد؛ فهو يعرف السيرة الذاتية بقوله:" والترجمة الذاتية الفنية، هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح كما سلف وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا عن تاريخه الشخصي، على نحو

---

1) إحسان ، عباس ، فن السيرة ، عمان ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط6 ، 1992م ، ص 91 -92.

2) عبد الغني حسن ، محمد ، التراجم والسير ، القاهرة ، دار المعارف ، ط3 ، (د.ت) ، ص 23.

موجز، حافل بالتجارب والخبرات المتنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبي ، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من حواره مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله، حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة،على ألا يسترسل مع التخيل والتصور حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية "(1) .

والملاحظ على تعريف عبد الدايم أنه لم يستطع تحديد المفهوم ، وإنما وصف خصائص وسمات عامه، وقد " أسهب في وصف الأسلوب الأدبي أكثر من وصف البناء الفني للسيرة الذاتية ، مع أن الأسلوب الأدبي غير مقصور على السيرة الذاتية، بل تحتاجه جميع الفنون الأدبية "(2) .

ويبدو أن الذي أوقع عبد الدايم في هذا التعميم أن " وعي عبد الدايم بالقضية التعريفية، كان وعيا محدودا من حيث هشاشة المصادر المنهجية التي تبناها، كما أنه لم يولد في مستوى نتائجه العملية صيغة تعريفية محدودة واضحة المعالم متولدة عن استقراء طائفة من النصوص المتجانسة، ولذالك فقد اكتفى الباحث بالوقوف على عدد معلوم من السمات أو الخصائص الشكلية والمضمونية اعتبرها بمثابة سلم معياري يمكن الاحتكام إليه في التعرف على ما أسماه بـــ "الترجمات " الذاتية الفنية .

والناظر في السمات المنتقاة، لا يفوته أن يلاحظ أن الكثير منها مطابق لما اشترطه إحسان عباس وبسط القول فيه، أما بعضها الآخر فقد استفاد في استخراجه من الخطاب المؤطر للسيرة الذاتية " (3)، وقد حاول عبد العزيز شرف أن يبحث في ماهية السيرة الذاتية موظفا منهج التفسير الإعلامي للأدب ، وقد اختار أبسط التعريفات يقول: " فالسيرة الذاتية utobiography، هي" قدر من حياة إنسان فرد يكتب موضوعها بنفسه "وهي – كما جاء في الموسوعة الأمريكية – سيرة أدبية يسجلها بنفسه عن حياته " (4).

ومعظم الدراسات العربية الحديثة انطلقت في تعريفها من تعريف الناقد الفرنسي

1) عبد الدايم،يحيى، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، بيروت،دار النهضة العربية،(د.ت)،ص10

2) شاكر ،تهاني، السيرة الذاتية في الأدب العربي ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، 2002م ،ص 12.

3) الطريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،ص 310.

4) شرف ، عبد العزيز ، أدب السيرة الذاتية ، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر العربي ، مصر ، 1992، ص 29 .

فيليب لوجون، كشكري مبخوت في سيرة الغائب سيرة الأتي[1]. وكذلك تهاني شاكر التي اعترفت أنها لا تدعي المقدرة على صياغة حد للسيرة الذاتية، لأنه من أكثر الأجناس استعصاء على التعريف، لكنها اتخذت تعريف فيليب لوجون مع بعض التعديلات فقالت عن السيرة الذاتية إنها:" حكي استعادي نثري، يتسم بالتماسك، والتسلسل في سرد الأحداث يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة ، ويشترط فيه أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أن ما يكتبه هو سيرة ذاتية "[2] .

1) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، السيرة الذاتية لكتاب الأيام لطه حسين ، تونس ، المطابع الموحدة ، 1992م ، ص 10.

2) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 16.

الباب الأول

السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

الفصل الأول

تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

يسعى هذا الفصل نحو دراسة فن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، ومحاولا كشف جذور هذا الفن في أدبنا القديم وتراثنا،لاسيما وأن الكثير من النقاد والباحثين والدارسين يرون أن الأدب العربي خلو من هذا الفن، والردّ على مثل هذه الأقوال يجب أن يتصف بالعلمية والموضوعية التي هي أساس كل بحث علمي ناجح، أو يسعى نحو النجاح. فهل لفن السيرة – بشكل عام – والسيرة الذاتية– بشكل خاص– جذور في الأدب العربي القديم ؟ وإن وجدت – كما يرى بعضهم– فما هي أنوعها، وخصائصها، وموضوعاتها،ومراحل تطورها؟ أم أن الأدب العربي القديم– خلو من هذا الفن– كما يرى بعضهم ؟ ذلك ما سيبحثه هذا الفصل .

نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم:

شكل الحديث عن زمن نشأة السيرة الذاتية جدلا واختلافا، فبعض الباحثين يرى أنه من أقدم الفنون الأدبية، وبعضهم يرى أنه فن حديث، بل من أحدث الأجناس الأدبية والراجح أن هذا الخلاف هو الاختلاف حول مفهوم السيرة الذاتية،فالذين رأوا السيرة الذاتية فنا نثريا يتحدث فيه صاحبه عن ذاته ردوا جذوره إلى عهود سحيقة في القدم، والذين نظروا إليه على أنه فن مستحدث له بناء خاص،وأن ملامحه تشكلت وبدأت في الظهور مع نهاية القرن الثامن عشر،ولهذا نجدهم يغضون الطرف عن بدايات وإرهاصات وتاريخ هذا الفن " إنني لا أبتغي أن أخوض في تاريخ فن السيرة،فقد يفضي بنا هذا إلى مكان سحيق"[(1)] ومن الذين ردوا السيرة الذاتية إلى عصور قديمة"إدل ليون و ويل وايرل ديوارنت،فهو يرى أن هناك برديات من الأدب المصري القديم يرجع تاريخها إلى2000 ق.م يحتوي بعضها على قطع من السيرة الذاتية[(2)]. أما فيلب لوجون، فرغم اعترافه بأن السيرة الذاتية قديمة جدا في الحضارات الإنسانية إلا أنه يرفض هذا النمط من الدراسات "إن الأبحاث ذات النمط السلالي التي تعزل عنصرا ملائما في الوقت الراهن من أجل تتبع آثاره بالرجوع إلى التاريخ لها إذن طابع وهمي"[(3)].

أما شوقي ضيف فيرى أن" أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء

1) إدل ، ليون ، فن السيرة الأدبية ، ت ، صدقي خطاب ، دار العودة ، بيروت 1988 ،ص21.

2) ديورانت ، ويل وايرل ، قصة الحضارة ، ت زكي نجيب محمود ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1988 ،ج1 م1 ،ص111.

3) لوجون ، فيليب ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ ،ص 73.

على شواهد قبورهم، فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم. واشتهر المصريون في عصر الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم ومسلاتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم . وقد سجل يوليوس قيصر في كتابه "التعليقات " حروبه في الفال والحرب الأهلية بينه وبين بومبي، وعرض عرضا بارعا الدسائس والمؤامرات التي كان ينسج خيوطها من حوله الأصدقاء والأعداء على سواء. واثر عن ملوك الفرس وصايا لأبنائهم توضح سياستهم"(1).

ويرى إحسان عباس أن السيرة نشأت وترعرعت في أحضان التاريخ "وتأثرت بمفهومات الناس عنها على مر العصور وتشكلت بحسب تلك المفهومات، فكانت تسجيلا للأعمال ولأحداث والحروب المتصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والأشوريين "(2)

ويذهب ماهر حسن فهمي إلى ما ذهب إليه الآخرون من أن بذور السيرة الذاتية نمت في الحضارات القديمة " ومن أجل ذلك كانت جذوره الأولى متشعبة في الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والهلينية وغيرها، ولاشك أنها ليست سيرا ذاتية بمفهومها المعاصر، ولكنها ضروب من الإحساس بالذات والتعبير عنها فيما يشبه الاعترافات أو المذكرات أو الوصايا. وتاريخ الفراعنة يحوي الكثير من هذه الألوان التي تدخل في باب السيرة الذاتية ومحاولاتها الأولى ".(3)

ونلحظ من الاستعراض السابق ميل النقاد –رغم اعترافهم باحتمال وجود جذور قديمة للسيرة الذاتية– إلى اعتبار السيرة الذاتية فنا حديثا " ويمكننا أن نقول إن الاهتمام بالحياة الشخصية الخاصة، أو حياة الإنسان الباطنية، قد بدأ في الأدب الانجليزي في القرن الثامن عشر، ولا شك في أن هذا الاهتمام كان رسول الرومانسية (كذا)"(4).

بل يذهبون إلى أبعد من ذلك بربط السيرة الذاتية بنشأة الرواية " إن السيرة الحديثة جديدة جدّة الرواية الطويلة ، بل إنها تكاد تكون قد ولدت معها "(5) .

ويذهب جورج ماي إلى أبعد من كل هذا بتجاهل كل سير الأمم، وحصر فن السيرة الذاتية بالثقافة الغربية ، وإن وجد بعض الحالات الشاذة فما هي إلا وليدة عدوى ثقافة

1) ضيف ، شوقي ، الترجمة الشخصية ، القاهرة ، دار المعارف ، ط4 ، 1987، ص 7 .
2) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 10 –11 .
3) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، الكويت ، دار القلم ، ط2 ، 1983م ، ص225 .
4) إدل ، ليون ، فن السيرة الأدبية ، ص 22 .
5) المرجع السابق ، ص 23 .

الغرب." يتفق مؤرخو السيرة إجمالا على القول بإن موضوع دراستهم قد نشأ في أوروبا، وأنه ينتمي إلى الثقافة الغربية ، قال أحد النقاد الانجليز: " إذا ما غضضنا الطرف عن بعض الحالات الشاذة في هذا الصقع أو ذاك، قلنا إنّ السيرة الذاتية إنما ظهرت أساسا في أوروبا الغربية، وفي منطقة تأثيرها شأنها شأن مرض الزهري " ولذلك فإن صادف مثلا أن كتب بعض الشرقيين " كغاندي " قصص حياتهم، فما ذلك إلا لأن عدوى ثقافة الغرب قد سرت إليهم،أو لأنهم كما قال"جورج فوسدروف" قد (جعلوا أتباع عقلية غير عقليتهم)"[1]

ويعود جورج ماي ليؤكد ما قاله ويجزم بأن " السيرة الذاتية إنما هي شكل من أشكال التعبير تختص بها الثقافة الغربية ". ويميل إلى ربط نشأة السيرة الذاتية باعترافات روسو متجاهلا من يرى ربطها باعترافات القديس أوغسطين " إذا كان همنا أن نؤرخ لقيام سنة أدبية محض للسيرة الذاتية فليس ثمة شك في أن هذه السنة تعود إلى منتصف القرن الثامن عشر أو نهايته،وأن الباعث الأساسي على قيامها إنما هو ما نالته آثار"روسو" المنشورة بعد وفاته من شهرة ورواج " [2].

ويذهب أحد النقاد العرب إلى ما ذهب إليه جورج ماي من ربط نشأة السيرة الذاتية بروسو "وعلى هذا النحو يكون تاريخ السيرة مرتبطا بروسو، لأن اعترافاته كانت تمثل بداية الوعي بهذا الفن الإنساني، وكانت فاتحة قبول هذا الجنس الأدبي الوليد في معبد الأجناس الأدبية، على حد عبارة جورج ماي " [3].

ويلحظ مدى التجني بربط نشأة السيرة الذاتية بروسو، والتجني الأكبر بتجاهل السيرة الذاتية في الأدب العربي واعتبارها فنا خاصا بالغرب. وإذا كانت الموسوعة البريطانية تشير إلى أن السيرة الذاتية بدأ ظهورها في الغرب في عصر النهضة وتحديدا في القرن الخامس عشر [4] .

فالدراسات تشير إلى أن بذور السيرة الذاتية في الأدب العربي موجودة منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، فتكون السيرة الذاتية بدأت عند العرب قبل الغرب، وهذا ما توصل إليه بوزيه إذ يقول " ربما كان كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ في القرن السادس

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص 23 .
2) المرجع السابق ، ص 26 .
3) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص 10 .
4) انظر the new encyclopedia Britannica p 1010.

الهجري/الثاني عشر ميلادي وكتاب التعريف لابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي اقرب اثرين في القرون الوسطى إلى الفن المذكور بمعناه الاصطلاحي المحصور. ومن الجدير بالذكر أن هذا الفن لم ينتشر كثيرا في الأدب الغربي إلا مؤخرا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين " [1].

ويؤكد محمد عبد الغني حسن هذا الرأي مبينا أن فن السيرة بدأ في القرن الثاني الهجري ، واخذ يتطور وينتشر،بينما كان الغرب عقيما في هذا الفن،" وظلت أوروبا عقيما في كتابة التراجم منذ عصور الظلام التي خيمت عليها في القرون الوسطى . وعلى حين أخذ التاريخ الإسلامي يأخذ مكانه في الوجود، كما أخذ الإسلام – دين العرب وغير العرب – يظهر في كل الأرض التي استظلت بلواء الإسلام .

وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة، ثم أخذت على توالي العصور تكثر أنواعها ، ويتضخم عددها، حتى بلغت من الكثرة في التراث العربي حدا لم تبلغه في أي إرث لأمة أخرى معروفة التاريخ القديم والحديث " [2] .

وقد أخذت بهذا الرأي تهاني شاكر إلا أنها أشارت إلى أن تطور السيرة في العصر الحديث كان عند الغرب قبل العرب .[3]

وبعض النقاد تراجع عن رأيه ولو قليلا من حيث اعتبار فن السيرة الذاتية فنا غربيا خالصا ، وإنكار وجود أصول له في الأدب العربي ، فجورج ماي نجده في مقدمته للترجمة العربية لكتابه يشير لذلك ، فيقول :" ما أسعدني برؤية هذا الكتاب يصدر بالعربية بعد أن كنت كتبته ونشرته بالفرنسية. ولهذه السعادة التي التفتني أسباب رئيسية ثلاثة ، دونكم إياها. أولها أنني عمدت، منذ بداية هذا الكتاب،إلى ترديد فكرة شائعة مفادها أن السيرة الذاتية شكل أدبي تختص به الحضارة الغربية،فلا يسعني إذن إلا أن أغتبط بمبادرة مؤسسة بيت الحكمة بتونس إلى ترجمة هذه الدراسة ونشرها على الناس في البلاد الناطقة باللسان العربي،وهي دراسة جعلت في الأصل لجمهور القراء في الغرب. إن هذه المبادرة

بمثابة الحجة على بطلان هذه الفكرة المتوارثة. وكيف لا أغتبط بهذه المبادرة وهي على بساطتها دليل يعزز إيماننا بأن ما يجمع بين بني الإنسان أكثر مما يفرق بينهم ؟ " [1].

1) بوزيه ، لويس ، مظاهر السيرة الذاتية ، حولية الجامعة اليسوعية ، م1،بيروت،1918،ص25.
2) عبد الغني حسن ، محمد ، التراجم والسير ، ص 11.
3) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي ، ص 32.
4) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص 9 .

السير في العصور الإسلامية المتلاحقة :

يلاحظ من حديثنا السابق أن كثيرا من النقاد الغربيين يميلون إلى تجاهل وجود أصول لفن السيرة الذاتية– تحديدا– في الأدب العربي القديم عامة،ويشاركهم في الرأي بعض النقاد العرب، وتأسيسا على ذلك يفهم نفيهم وجود أي بذور لفن السيرة، والسيرة الذاتية في الأدب الجاهلي، فهم تجاهلوا ذلك في العصور الإسلامية المتلاحقة رغم وجود نصوص تثبت وجود هذا الفن ، فكيف بالعصر الجاهلي والذي لم تصلنا أية نصوص تدل على وجود هذا الفن ؟!

ونجد الباحثين العرب يميلون إلى التأريخ لفن السيرة والسيرة الذاتية مع القرن الأول الهجري،أو الثاني الهجري، وبعضهم يربطه بالعصر العباسي كشوقي ضيف،ويرى أنه فن مستحدث قلدوا فيه الأمم الأخرى،ويقول في مقدمة كتابه."حاولت في هذا الكتيب أن أعرض صور الترجمة الشخصية عند العرب في عصورهم المختلفة، من العصر العباسي إلى العصر الحديث، وهو فن مستحدث عندهم، قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي اطلعوا على آثارها ، وخاصة اليونان " [1] .

ولم ترد في كتابه إلا إشارتان إلى العصر الجاهلي، الأولى عند حديثه عن التراجم العلمية والأدبية يقول فيها:" ولعل أقدم حديث لأدباء العرب عن أنفسهم هو ما أثر عن شعراء العصر الجاهلي في فخرهم وحماستهم، وهو حديث شعراء لا يراد به إلا حكاية الواقع تماما، بل تدخله المبالغة والتهويل، وظل ذلك غالبا على الشعراء في العصور الإسلامية المختلفة " [2]. والثانية جاءت عند حديثه عن التراجم السياسية يقول فيها:" لعل أقدم صورة لهذه المذكرات السياسية والحربية ما كان يقصه أبطال العرب في الجاهلية والفتوح إلا سلامية عن مغامراتهم وما قاموا به من بطولة خلال المعارك والوقائع المختلفة "[3]، وفي غير هاتين الإشارتين العابرتين لا يأتي على ذكر العصر الجاهلي.

وإحسان عباس لم يتحدث عن السيرة في الأدب الجاهلي، وربط السيرة بالمسلمين،وأول محور في كتابه حمل عنوان" تاريخ السير عند المسلمين" ولم يشر إلى العصر الجاهلي إلا مرة واحدة حين قال: " إن المسلمين ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ ، وهي نظرة قائمة

1) ضيف ، شوقي ، الترجمة الشخصية ، ص5 .
2) المرجع السابق ص37 .
3) المرجع السابق ص58 .

على الأيام ، وطبيعة الحرب وشؤون القتال " [1] .

ومحمد عبد الغني حسن يؤكد ظهورها في القرن الثاني الهجري " وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة، ثم أخذت على توالي العصور تكثر أنواعها ويتضخم عددها "[2] .

وينهج فهمي نهج سابقيه من حيث ربط السيرة بالعصر الإسلامي وتحديدا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم [3]. ونجد عبد العزيز شرف يأخذ برأي عبد الغني حسن،ويؤكد ربطها بالقرن الثاني الهجري [4] .

وترى تهاني شاكر أن جذور السيرة تبدأ مع القرن الأول الهجري، وتؤكد أن هذه الجذور تمتد إلى العصر الجاهلي، وتستند في ذلك على قول بروكلمان:" كان عرب الجاهلية يفتخرون بذلك بمآثر أسلافهم وآبائهم، وأنسابهم، وكان سهرهم يجري على رواية أيامهم "[5]. وتعلل تهاني شاكر عدم وصول نصوص نثرية مكتوبة بقلة الكتابة وصعوبة حفظ النثر، " وإذا لم تصلنا نصوص نثرية مكتوبة سردها إنسان عاش في العصر الجاهلي نفسه ، فذلك لأن الكتابة كانت قليلة في ذلك العصر، والدليل على ذلك أن الشاعر الجاهلي أطنب في الحديث عن نفسه ووصف مشاعره، وصور أمجاده وأمجاد قبيلته.
ومن الطبيعي أن يصلنا الشعر ولا يصلنا النثر، لأن الشعر أسهل في الحفظ والتداول بين الرواة " [6].

ويرى الباحث أن فن السيرة لا وجود له في الأدب الجاهلي، هذا إذا ما غضّ الطرف عن علمهم بالأنساب وسمرهم بأيامه، وقلة الكتابة وصعوبة الحفظ – في العصر الجاهلي– تنسحب على مختلف الفنون النثرية، ومع ذلك وصلتنا نصوص تدل على وجود هذه الفنون النثرية رغم ما قيل حولها من أنها مختلقة أو موضوعة[7] أما السيرة الذاتية ، فلم يصلنا ما يومئ أو يوحي بوجودها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يستطيع الباحث

1) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 14 .
2) عبد الغني حسن ، محمد ،التراجم والسير ،ص11.
3) حسن فهمي ،ماهر ،السيرة تاريخ وفن ،ص5.
4) شرف ،عبد العزيز ، أدب السيرة الذاتية ،ص47.
5) بروكلمان ، كارل ، ما صنف العرب من أحوال أنفسهم ، ج1،ص3.
6) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي ،ص 38 .
7) مبارك ،زكي ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ،دار الجيل ، بيروت (د.ت) ص37–42.

أن يثبت ما ذهب إليه من خلال ما وصلنا من شعر، فالمتتبع للشعر الجاهلي يجد ضعف النزعة الذاتية، فمعلقة عمرو بن كلثوم – على سبيل المثال – مع أنها تعد من أعظم ما قالت العرب في الفخر إلا أننا نجد ضمير الأنا مختفيا تماما بينما يهيمن عليها ضمير الجمع،وهذه سمة عامة تنسحب على معظم الشعر الجاهلي باستثناء شعر الصعاليك؛لأنهم تحرروا من سطوة القبلية، فإذا الحال هكذا مع الشعر والذي تشكل النزعة الذاتية سمة أساسية من سماته، وضعفت هذه السمة بسبب فقدان الإحساس بالذات أو لتقل انصهرت مع الإحساس الجمعي، وتلاشت أمام سطوة القبلية، صحيح أن الإنسان الجاهلي كان يرى نفسه من خلال قبيلة، ولكن هذا نوع من التعويض عن النقص الذي كان يحسه ويعيشه، ولعل هذا يفسر اهتمام العرب بالأنساب والسمر بالأيام؛ لأن فيها تحقيقا للذات من خلال تمجيد القبيلة، ولهذا – أيضا– بزرت السيرة الشعبية التي حكت سيرة أبطال وأيام في الجاهلية ؛ لأن السيرة الشعبية ملك للجميع وتعبير عن ضمير للأمة ، ولا تعبر عن الفرد بقدر ما تعبر عن الجماعة، ولهذا فإن السيرة الشعبية ملك للجميع، ويحورون ويطورون فيها بما يتلاءم وحاجتهم عبر العصور .

وقد لوحظ في المحور السابق أن الباحثين والنقاد يجمعون أو يكادون على أن البذور الحقيقية للسيرة بدأت في العصر الإسلامي،ولتتبع تطور هذه السير،لابد من الحديث عن أنواعها وخصائصها، وهذا ما سنتناوله بالحديث في المحور القادم .

أنواع السير وخصائصها :

يميل الباحثون إلى تقسيم السير إلى سير عامة،ويقصد بها كتب التراجم والطبقات والأخبار، كطبقات ابن سعد والأغاني ومعجم ياقوت وابن خلكان، وسير خاصة وتقسم إلى قسمين: موضوعية(الغيرية) مثل سير الرسول صلى الله عليه وسلم، كسير ابن إسحاق وابن العديم والبديعي وابن هشام وعروة بن الزبير وغيرها الكثير، والخاصة(الذاتية) مثل

سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، وسيرة الأمير عبد الله بن بلقين، وسيرة الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال، وسيرة أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) وسيرة ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا). وسنتناول – في هذا الفصل – هذه السير بأنواعها المختلفة مفصلة.

السير العامة (كتب التراجم) :

السير العامة تتمثل في تراثنا القديم بكتب التراجم والأخبار والطبقات ومعاجم الرجال وهي أكثر أنواع السير في الأدب العربي القديم ذيوعا وشيوعا، وبلغت حدا يصعب حصرها معه، وتأثرت كتب التراجم بعلم الحديث والإسناد، "ويستطيع الباحث أن يشير إلى أن الاعتماد على الإسناد ظل بالغ الأثر في تلك الكتب التي ألفت عن الرجال وهي كتب الطبقات والتراجم التي يمكن أن تعد بحق أغزر نوع من المؤلفات عند المسلمين، وربما لم يتح لأمة أخرى أن تعنى بتأليف المعاجم عن الرجال كما عني المسلمون بها ، وتنوعت تلك الكتب وتعددت عل مدى العصور حتى أصبح حصرها عبئا معجزا "(1) .

وتنوعت كتب التراجم و المعاجم بتنوع ميول أصحابها المذهبية والعلمية ، فمنها ما يختص بأهل الأدب والنحاة والشعراء ، ومنها ما يختص بأهل الفقه وأهل الحديث والقراء والمتصوفة. ومنها ما اختص بالتاريخ والبلدان. وهناك " التراجم العامة الجامعة، والتراجم حسب العصور، أو حسب السنين، وهناك تراجم الصحابة ، أو طبقات الصحابة ، وطبقات الفقهاء وطبقات المفسرين والقراء ، وطبقات المحدثين والحفاظ وطبقات النحاة ، وطبقات الشعراء، وطبقات الصوفية وطبقات القضاة والأطباء، وطبقات الفلاسفة والحكماء، وهناك أيضا تراجم الرجال في كتب تواريخ المدن وتراجم النساء. وهناك الكتب التي تعنى بتاريخ الميلاد والوفاة والكتب التي تهتم بضبط الأعلام وتحقيق الأنساب"(2).

وجل هذه التراجم تقوم على تاريخ الحياة الموجز، وقد تطول ترجمة الأعلام وقد تقصر، ولكن السمة العامة أنها أخبار موجزة " وتتراوح الترجمات في الكتاب الواحد بين عرض مقتضب لا يتجاوز الصفحتين أو الثلاث، وبحث مسهب قد يملأ عشرات الصفحات "(3).

وتتميز هذه الكتب بقيمتها العالية التي يمكن أن يستفيد منها الباحثون، فالمعلومات التي وردت فيها متنوعة وغنية على الرغم مما اعتراها –في بعض الأحيان – من شوائب

1) عباس ،إحسان ،فن السيرة ،ص15.
2) حسن فهمي ،ماهر، السيرة تاريخ وفن ، ص12.
3) المقدسي،أنيس،الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار الكتاب العربي ،بيروت–1936م ، ص 548.

وعيوب ، ولعل أشهر هذه الكتب طبقات ابن سعد ، وأغاني أبي الفرج الأصفهاني، ويتيمة الدهر للثعالبي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ووفيات الأعيان لابن خلكان والدرر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي، والكواكب السائرة للغزي ، وغيرها الكثير.

وقد أصاب المقدسي حين رأى أن الكثير من كتب التراجم القديمة أفسدها الإغراق في البديع ، وتنميق الألفاظ وسجعها " فإذا هي أوصاف منمقة ، وعبارات مسجعة تشوه أو تحجب ما يتوخاه القارئ من الحقائق " [1] .

ومن الكتب التي شكلت ظاهرة في كتب ومعاجم السير كتب سير البلدان ونخص بالذكر هنا الكتب التي لم تعتن بالأمور الجغرافية للبلدان فقط، وإنما قامت بتأريخ بيوجغرافيا، وترجمت لأشهر من ولد في هذه البلدان، أو نشأ فيها، أو قدم عليها من الأدباء والعلماء والعظماء فشكلت هذه الكتب سجلا حافلا بسير وتراجم العظماء والمشاهير، ولعل أشهر هذه الكتب وأقدمها هو" تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي في القرن الخامس الهجري ، وهو كتاب ضخم وصف فيه الخطيب البغدادي بغداد مبينا ما كان فيها من تطور وعمران، ثم قام بالترجمة للمشاهير ممن تنشأ فيها أو رحل إليها من غير أهلها مبينا أخبارهم والأمور التي اشتهروا بها ومؤلفاتهم .

ونظرا لقيمة هذا الكتاب وشهرته تأثر به العلماء وحاولوا تتبع خطاه والنسج على منواله " فجاء " ابن عساكر " المؤرخ والمحدث المشهور وكتب كتابه الضخم " تاريخ دمشق " وجرى على طريقة الخطيب البغدادي في الاتساع والإفاضة والشمول لتراجم الرجال الذين ولدوا بدمشق أو نزلوا بها ، ولم يترك عالما أو راويا أو محدثا أو مفسرا أو مؤرخا أو سياسيا أو أديبا أو شاعرا أو صاحب قدر ألا وترجم له وذكر شيئا كثيرا من أخباره وآثاره وأقواله،وقد جرى فيه على طريقة الإسناد كما صنع الخطيب البغدادي، والمؤرخان متأثران هنا بطريقة أهل الحديث والحفاظ، فقد كان كل منهما حافظا من أكبر حفاظ

عصره وقد صنع علماء الأمصار الإسلامية غير العربية ما صنعه البغدادي،وابن العساكر في العاصمتين العربيتين الكبيرتين ، فألفوا في تواريخ أذربيجان وأصفهان وجرجان و بلخ وغيرها "(2).

1) المقدسي،أنيس،الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، ص548.
2) حسن فهمي ، ماهر ،السيرة تاريخ وفن ، ص100.

بقي أن نقول إن كتب التراجم والسير رغم إنها سير عامة إلا أنها احتوت على بعض القطع و الأخبار التي تعد سيرا ذاتية ، كالأخبار الواردة ــ مثلا ــ في كتاب الأغاني ، كما أنه أصبح فيها ما يشبه العرف أن يترجم المؤلف في ذيل كتابه لنفسه مما يعد بذورا للسيرة الذاتية ، وسيأتي الحديث عن هذا في المحور بعد القادم عندما نتحدث عن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم .

السيرة الخاصة :

أولا: الغيرية

تعد السيرة النبوية الشريفة البداية الحقيقية الأولى لفن السيرة عند العرب والمسلمين، وجاء الاهتمام بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم بتأثير من القرآن الكريم فالقرآن الكريم أوجب على المسلمين دراسة سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإتباع سيرتـــه بقوله تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا "[1] لذلك " فإن القرآن الكريم – وهو الذي عمق الإحساس التاريخي عند العرب حين قصّ عليهم قصص الأمم الخالية ، وحين وصلهم بالأمم وجعل تاريخ الخليقة مجالا لنظرهم وإن القرآن حين فعل ذلك كله ، كان يهدف إلى إثارة العبرة في نفوسهم "[2].

ويرى إحسان عباس أن سير الرسول صلى الله عليه وسلم كتبت تحت مؤثرات تتميز بعاملين كبيرين"**الأول** : أن سيرة الرسول جزء من السنة ، فهي والحديث مصدران هامان من مصادر التشريع، ومنهما تستفاد الأحكام، لذلك فلا بد من جلائها في دقة بالغة ، لكي تكون أعماله – إلى جانب أقواله– مشرعا واضحا لرجال الشريعة وأهل الإفتاء والقضاء . **والثاني** : أن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ ، وهي نظرة قائمة على الأيام " وطبيعة الحرب وشؤون القتال ، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول ، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار المسلمين في النهاية "[3].

ولا ننسى ـــ إضافة لما سبق ـــ أن الاهتمام بسير العظماء والأبطال، وكتابة سيرهم والتأليف عنهم، ومحاولة تخليدهم ، وإبقاء صورهم حية بشتى الطرق الفنية والأدبية أمر فطري عند جميع الأمم المتحضرة " ولم تكن – ولن تكون– هناك شخصية على وجه الأرض تركت أثرا عميقا وخيرا أبديا على صفحة التاريخ مثل ما ترك رسول الله صلى

الله عليه وسلم من أثر . ولم تكن – ولن تكون– هناك شخصية على وجه الأرض محببة إلى أتباعها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم " [4] .

1) الأحزاب ،21.
2) عباس إحسان ، فن السيرة ،ص13.
3) المرجع السابق ،ص14.
4) ابن الزبير، عروة ،مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، جمع وتحقيق ، محمد مصطفى الأعظمى ،ط1 ، منشورات مكتب الردايه العربي لدول الخليج ، الرياض ،1981م ،ص19.

وبلغ من اهتمام المسلمين بسير النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه أنهم كانوا يعلمونها كما يعلمون القرآن ، وروى الواقدي " عن عبد الله بن عمر بن علي ، عن أبيه سمعت عليا بن الحسين يقول:كنا نعلم مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم كما نعلم السورة من القرآن " [1].

وجاء اهتمام الصحابة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم مبكرا ، فقد دون عدد غير قليل من الأحاديث النبوية في حياته المتضمنة سيرته صلى الله عليه وسلم ، إلا أنها تبقى كتابات ضمنية لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعبد الله بن عباس– رضي الله عنهما (ت سنة 68هـ) كان له اهتمام بالسيرة النبوية، وكان يخصص جزءا من يومه لتدريس المغازي ، ويميل الأعظمي إلى أنه كان له كتاب في السيرة النبوية "وكتبه الكثيرة التي توصف بحمل بعير كانت عند مولاه كريب، والذي وضعها عند موسى بن عقبة صاحب المغازي الشهير، ولو أننا لا نستطيع أن نجزم – قبل البحث – هل كان ضمن كتبه كتاب في السيرة النبوية ؟ لكني أميل شخصيا إلى أنه قد كان "[2] .

وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (ت سنة 63هـ) له كتابات في السيرة النبوية ضمنها كتابه الذي سماه بالصحيفة الصادقة. والبراء بن الحارث – رضي الله عنه – (ت سنة 74هـ) أملى الكثير عن مغازي النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد قسم محمد عبد الغني حسن أصحاب سير النبي صلى الله عليه وسلم حسب المدن ، فذكر من أهل المدينة أبان بن عثمان (ت سنة105هـ) ، وعروة بن الزبير (ت سنة92هـ) وشرحبيل بن سعد (ت سنة123هـ) ، وعبد الله بن حزم (ت سنة135هـ) وعاصم بن قتادة (ت سنة120هـ) وموسى بن عقبة (ت سنة141هـ)، ومحمد بن إسحاق (ت سنة 152هـ) ، والواقدي (ت سنة 207 هـ) ، ذكر من أهل مكة ابن شهاب الزهري (ت سنة 124هـ) ، ومن أهل البصرة محمد بن راشد ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات ، وابن هشام صاحب كتاب

(السيرة النبوية) (ت سنة 218هـ) ، ومن الكوفيين زياد البكائي (توفي سنة 183هـ) ، ومن أهل اليمن وهب بن منبه (ت سنة 110هـ) .

ويلاحظ أن أكثر كتاب السيرة النبوية ومؤرخيها الأوائل كان أغلبهم من أهل المدينة،ويعلل محمد عبد الغني حسن ذلك فيقول: " وقد أتاح لهم قربهم من عاصمة الإسلام

1) ابن كثير ،إسماعيل ،البداية والنهاية ،ط5 ،دار المعرفة ،بيروت 1999م ،ص256-257.
2) ابن الزبير ،عروة ،مغازي رسول الله لعروة بن الزبير ،ص25.

– بعد مكة – أن يرووا الأحداث كما سمعوها من أقرب الناس إليها ، وأن تنقل عنهم الأخبار – عن طريق الإسناد كما في رواية الحديث – في الأمصار "[1].

وقد ربط الباحثون السيرة النبوية بسيرة ابن إسحاق وابن هشام وعدوها الأساس والبداية "وتستطيع أن تدرك قيمة ابن إسحاق في تاريخ السير عند المسلمين إذا نحن عرفنا أن ما كتب بعده لم يختلف كثيرا في جوهرة عما كتبه. وقد تعد سيرة ابن إسحاق ، والسيرة التي بني منها ابن سعد الجزأين الأولين من كتاب الطبقات ، ومغازي الواقدي ، والسيرة التي كتبها البلاذري في أول كتابه " أنساب الأشراف " أساسا للمعلومات المقررة المقبولة عن حياة الرسول وأعماله "[2] ؛ لأن ما كتب بعد ذلك إما أنه اعتمد على ما سبق أو شرحه ، ثم بعد ذلك دخلت السيرة بعض الأساطير التي نشأت في الأيام المتأخرة ، ولو رجعنا إلى المعاجم الأدبية لوجدنا تعريف السيرة النبوية: حياة الرسول مستقاة من الكتاب والسنة ومن أحاديث الصحابة والتابعين ، ومتضمنة جوانب من حداثته وفتوته ، وتلقيه الوحي ، وقيامه بنشر رسالته وحروبه ، وأقواله وأعماله وأخلاقه . وعمد إلى تدوينها محمد بن إسحاق المتوفي عام 769هـ في كتاب (المغازي والسير) وانتقى منها ابن هشام (ت سنة 834هـ) (سيرة ابن هشام) في الكتاب الذي صنعه ، من بعد ، واشتهر باسم (سيرة ابن هشام) [3].

وهنا لا بد من الوقوف عند كتاب يعيد النظر في حركة التأليف عند المسلمين فيما يخص السيرة النبوية، ألا وهو كتاب " مغازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعروة ابن الزبير برواية أبي الأسود عنه (النسخة المستخرجة)"،الذي جمعه وحققه الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الذي صدرت طبعته الأولى عام 1406هـ/1981م، عن مكتب التربية والتعليم العربي لدول الخليج في الرياض ، وهذا الكتاب القيم لم تشر إليه أي من

الدراسات السابقة – في حدود اطلاعي – وذلك أن كثيرا من الدراسات السابقة تمت قبل نشر هذا الكتاب ، أما الدراسات التي تمت بعد نشره فربما لم يطلع أصحابها عليه .

ومن الفوائد التي حققها الكتاب إضافة لما ذكر قبل قليل– ما ذكره محقق هذا الكتاب في مقدمته حيث يقـول : " إن هذا الكتاب – كتاب المغازي لعروة بن الزبير– لا يضيف شيئا جديـدا إلى علمنا عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه يزيدنا – حتما– في علمنا عن المؤلفات القديمة في السيرة النبوية العطرة ، ويكشف النقاب عن صلة مغازي موسى بن عقبة بهذا الكتاب . وكأنه نسخه من هذا الكتاب أو رواية أخرى عنه ، وبذلك يرد أدعاء وضع مواد مغازي موسى بن عقبة في العصر العباسي ، لأنه ربما ألف هذا الكتاب قبل مجيء العباسيين وبنصف قرن من الزمان "[1] .

وكتاب عروة هذا أول كتاب دون في السيرة النبوية ، وقد ظلت " كتب السيرة تحفل بنقول عنه منذ بدأ تدوين السيرة حتى اليوم ، دون أن يكون لدينا نص كامل أو متكامل لرواية عروة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم "[2] . وقد جاء الكتاب على شكل تقديم للأستاذ محمد أحمد رشيد ثم مقدمة للمحقق عن نشأة الكتابة في السيرة النبوية،فكتاب المغازي لعروة بن الزبير (23–24) برواية أبي الأسود ، وقد استخرجه المحقق من بطون الأسفار ، ثم أشتمل الكتاب على ثلاثة ملاحق الأول : واشتمل على كتابات عروة إلى عبد الملك والوليد وغيرها المتعلقة بالمغازي . والثاني : واشتمل على أسماء البدريين الذين لم يذكرهم عروة في مغازيه أو بالأحرى لم يذكرهم الهيثمي عنه في "مجمع الزوائد". أما الثالث : فعبارة عن صفحة مصورة من كتاب " سير أعلام النبلاء " ، وفيها ترجمة لأبي الأسود يتيم عروة . وجاء الكتاب في مائتين وأربع وستين صفحة من القطع المتوسط ، شغل متن كتاب عروة مائة وسبعا وثلاثين صفحة .

وتوالت الكتابات حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى تتابع العصور محاولا كل واحد منهم أن يضيء ويجلو جانبا معينا من جوانب السيرة ، ومن المؤرخين من خص السيرة النبوية بكتاب منفرد ، نذكر مثالا على ذلك القاضي عياض (ت سنة 544هـ) في كتابه (الشافي في تعريف حقوق المصطفى) ، وابن سيـد النـاس

---

1) عبد الغني حسن ،محمد ،التراجم والسير ،ص32.
2) عباس ، إحسان ، فن السيرة ،ص18.
3) عبد النور ،جبرائيل جبور،المعجم الأدبي ،ط1،دار العلم للملايين، بيروت 1979م ، ص 143.

اليعمري (ت سنة734هـ) في كتابه"عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير"، والمؤرخ شمس الدين بن الجزري(ت سنة 762هـ) في كتابه" الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم "،والمقريزي في كتابه "إمتاع الأسماع "،وشهاب الدين القسطلاني(ت سنة 923هـ) في كتابه " المواهب أللدنية في السيرة المحمدية "، ونور الدين الحلبي (ت سنة 1044هـ)

---

1) ابن الزبير ،عروة،مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ص9.
2) المرجع السابق ،ص 5 (تقديم محمد أحمد الرشيد لهذا الكتاب) .

في كتابه" إنسان العيون في سـيرة الأمين والمأمون " وهو المعروف بالسـيرة الحلبية ، ومن المؤرخين من جعل سيرة الرسـول جزءاً أو قسما من كتابه في التاريخ العـام مثـل الطبـري (ت سنة 310هـ) ، وابن الجـوزي (ت سنة 597هـ) ، وابن الأثيـر (ت سنة630هـ) في كتابه " الكامل " ، والذهبي (ت سنة 748هـ) في كتابه " تاريخ الإسلام "، وابن كثير (ت سنة 774هـ) في كتابه " البداية والنهاية "، والديار بكري (ت سنة 982هـ) في كتابه " الخميس في أحوال أنفس نفيس " .

لقد لاحظنا أن السيرة الغيرية ارتبطت بسير الرسول – صلى الله عليه وسلم– ، لكن هذا لم يمنع – فيما بعد – من كتابة سير الخلفاء والقادة والمشاهير ، بل وغير المشاهير" فبعد سيرة ابن إسحاق ، طغى سيل التأليف في هذه الناحية وكثرت السير كثرة واضحة "[1].

ففي أواخر القرن الثالث الهجري كتب أحمد بن يوسف الداية سيرة أحمد بن طولون " ولعل هذه أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة " السيرة "من سيرة النبي إلى سيرة غيره من الرجال" [2]، ثم كتبت "سيرة ابن طولون" مرة أخرى في أوائل القرن الرابع على يد عبد الله البلوي . وفي القرن الخامس الهجري كتب أبو النصر العتبي(ت سنة 427هـ) سيرة السلطان محمود الغزنوي في كتاب سماه " اليميني" وفي القرن السادس الهجري ظهر العديد من السير فكتب ابن الجوزي سيرة للخليفة عمر بن الخطاب ، وسيرة للخليفة عمر بن عبد العزيز، ثم سيرة للإمام أحمد بن حنبل ." ولقد اختفت في القرن السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأموات السالفين وحلت محلها سير الأحياء من

الملوك وأصحاب السلطان ومؤسسي الدولات كما ظهر بجانبها سير العلماء المعاصرين"[(3)]،

فكتب ابن شداد (ت سنة 632هـ) سيرة صلاح الدين الأيوبي"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " ، وكتب محمد بن أحمد النسوي (ت سنة 679هـ) سيرة السلطان جلال الدين، وكتب ابن عربشاه (ت سنة 845هـ) سيرة ملك التتار تيمور لنك، سماها "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، أما القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (ت سنة 692هـ) ، فكتب سيرة السلطان خليل بن قلاوون في كتاب سماه"الألطاف الخفية من السيرة الشريفة

1) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 33.
2) عبد الغني حسن ، محمد ، التراجم والسير ،ص28.
3) المرجع السابق ، ص30.

السلطانية الأشرفية "، وكتب قبلها سيرة الظاهر بيبرس التي كتبها أيضا ابن شداد ، وأهم ما يميز هذه السير" ذلك الأسلوب والمستوى البسيط ، وتلك الحيوية الجميلة التي تشيع في السرد والقصص ؛ نعم إن السيرة أصيبت بما أصاب الأدب عامة بعد القرن السادس من تكلف والتواء ، ولكن بعضا من السير التي كتبت بمصر سلمت من هذا الداء واحتفظت بأسلوب مقارب لا هو بالأسلوب المصنوع ولا هو بالركيك الضعيف"[(1)] .

1) عباس ،إحسان ،فن السيرة ،ص34 .

السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

اختلف الباحثون في كيفية تصنيف السيرة الذاتية وتبويبها في الأدب العربي القديم، فمنهم من صنفها حسب اتجاه أصحابها كما فعل شوقي ضيف فقسمها إلى سير صوفية، وسير علمية وأدبية وسير سياسية [1] .

ومنهم من صنفها حسب كيانها العام حسب دوافعها وكيانها،كإحسان عباس، فقسمها إلى صنف إخباري محض ومثل عليها بحكايات الجاحظ وأبي حيان والصفدي والصابئ والصولي وكتب الرحالة وسيرة ابن سينا وموفق البغدادي وعلي بن رضوان[2].

وصنف كتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير، ومثل على ذلك بسيرة المؤيد في الدين، وسيرة ابن خلدون، ومذكرات الأمير عبد الله أخر ملوك بني زيري بغرناطة وصنف يصور الصراع الروحي، ومثل عليه بسيرة ابن الهيثم، وسيرة الغزالي" المنقذ من الضلال "، وصنف يقص قصة المغامرات في الحياة، وما يلاقيه المرء من تجارب،وذكر إحسان عباس انه لا يوجد نموذج لهذا الصنف بالمعنى الدقيق ولكن أقرب نماذج السيرة الذاتية إليه هو كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وقد سار ماهر حسن فهمي على نهج إحسان عباس، وكذلك فعل يحيى عبد الدايم .أما عبد العزيز شرف فسار على نهج شوقي ضيف .

وسينهج الباحث في هذه الدراسة نهجاً مغايراً لنهج من سبقه عند تتبعه لتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، وهذا النهج يقوم على تتبع السيرة حسب الشكل

والصورة التي وصلت إلينا به، فهناك سيرة ذاتية وردت على شكل قطع متناثرة في كتب التراجم والسير العامة، وبعضها جاء على شكل رسائل وبعضها جاء على شكل كتب، ويغلب على ظن الباحث أن هذا النهج أسهل في العرض وأدق في التقسيم، ويبعدنا عن تلك التقسيمات الصارمة للسيرة الذاتية التي كثيراً ما تتداخل بعضها مع بعضها الآخر .

1) ضيف ، شوقي ، الترجمة الذاتية ، ص 12 – 104 .
2) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 104– 130 .

ما ورد من سير ذاتية على شكل قطع متناثرة في كتب التراجم والتاريخ:

السيرة الواردة في كتاب تاريخ بغداد / (علي الخطيب البغدادي – ت سنة 463هـ)

ورد في هذا الكتاب قطعة من السيرة الذاتية تعد أقدم ما وصل إلينا من السيرة الذاتية في العصر الإسلامي وهي ما رواه سلمان الفارسي (ت36هـ) عن نفسه[1] ، وقد بين سلمان الفارسي في هذه القصة نسبه وعلاقته بوالده ، ثم عن أسباب تركه للدين المجوسي وتحوله إلى النصرانية ثم تخبر عن تبشير الأسقف النصراني له عن قرب ظهور نبي جديد ويخبره عن صفات هذا النبي الذي يجدها في محمد صلى الله عليه وسلم ويستمر سلمان الفارسي في وصف رحلة المعاناة والمشاق التي واجهته حتى استطاع في النهاية الوصول إلى نهايته .

1) البغدادي ، تاريخ بغداد ،بيروت،دار الكتب العلمية ج1 ، ص 177.

ما ورد في كتاب الأغاني

ذكر نصيب وأخباره:

عد بعض النقاد أخبار الشاعر نصيب التي ذكرها الأصفهاني في كتابه الأغاني سيرة ذاتية لأن بعضها روي عنه،ويرى الباحث أنّ في هذا بعض الغلو؛ لأن كتب التراجم روت لنا كثيرا من الأخبار على لسان أصحابها، ولكنّ نقل بعض الأخبار لا يسوغ لنا عدها من السيرة الذاتية، ولو أخذنا بهذا المقياس لعددنا كثيرا من الأخبار التي رويت على لسان صاحبها من السيرة الذاتية . وربما الذي يسوغ لبعضهم عد أخبار الشاعر نصيب من السيرة الذاتية أنها عكست نشأته وتدرجت بها حتى بلغ ما بلغ خلال تلك المعاناة والصعوبات التي واجهته حتى استطاع أن يصل إلى مرتبة عالية في الشعر وهذه الشاعرية التي قربته من الأمراء والخلفاء واستطاعت أنّ تعطيه هو وعائلته الحرية والعيش الكريم . ومن اللافت للنظر في تتبع أخبار الشاعر نصيب في كتاب الأغاني يلمح مركب النقص الذي بقي يعاني منه نصيب طوال حياته وهو الإحساس بعقدة الأصل واللون،ولو اعتبرنا أن نصيبا قد تغلب على هذه العقد ونسيها أو تناساها، فإن خصومه من الشعراء كانوا يجبرونه على تذكرها دائما، لأنها نقطة الضعف التي كانوا يهاجمونه من خلالها،بل إن كثيرا ممن أرادوا مدحه كانوا يقولون له "أنت أشعر أهل جلدتك". ولا يخفى على القارئ ما توحي به هذه العبارة من ذم وتحقير .

وقد استطاع نصيب أن يرسم لنا مسيرته الشعرية خطوة بخطوة " قلت الشعر وأنا شاب فأعجبني قولي فجعلت آتي مشيخة من بني بكر بن عبد مناه وهم موالي نصيب ومشيخته من خزاعة، فأنشدهم القصيدة من شعري ثم أنتسبها إلى بعض شعرائهم الماضين، فيقولون أحسن والله هكذا يكون الكلام، وهكذا يكون الشعر، فلما سمعت ذلك منهم علمت أني محسن، فأزمعوا، وأزمعت الخروج إلى عبد العزيز بن مروان وهو يومئذ على مصر، فقلت لأختي أمامه وكانت عاقلة جلدة أي أخية إني قلت شعرا وأنا أريد عبد العزيز بن مروان وأرجو أن يعتقك الله به، وأمك ومن كان مرقوقا من أهل قرابتي"[1]. ويسير الشاعر نصيب بعد ذلك في رحلته الشعرية رغم الصعاب التي واجهته إلا أنه استطاع في النهاية الوصول إلى ما أراد وتحقيق ما كان يتمنى .

1) الأصفهاني، أبو فرج، كتاب الأغاني، دار صعب بيروت ،ج 5– 6 ،ص3

إبراهيم الموصلي (188هـ) :

من السيرة الذاتية التي وردت في الأغاني سيرة المغنى إبراهيم الموصلي التي " ترى "هيلاري كليباترك" أنها تقترب كثيرا من فن السيرة الذاتية "[1].

وجاءت سيرة إبراهيم الموصلي على شكل أخبار وقطع من السيرة الذاتية المتناثرة وغير المترابطة إلا أنها في مجموعها عكست لنا نفسية إبراهيم الموصلي وقلقه[2]. وبينت لنا معاناته في عالم الغناء والموسيقا والصعاب التي واجهها حتى وصل إلى القمة ، وسيرة الموصلي زاخرة بالأحاديث الطريفة والممتعة والغريبة التي كانت تحدث له في مجالس الخلفاء والوزراء ، فمرة تجزل له الأعطيات وأخرى بجلد ويسجن ويهان " كان المهدي لا يشرب فأرادني على ملازمته وترك الشرب فأبيت عليه وكنت أغيب عنه الأيام فإذا جئته جئته منتشيا فغاظه ذلك مني فضربني وحبسني فحذقت القراءة والكتابة في الحبس" [3] .

ولعل أخطر ما في سيرة إبراهيم الموصلي أنها صورت بعض مجالس الخلفاء مجالس لهو ومعاقرة للخمر ، وهذا يخالف ما عرفناه عن بعضهم من زهد وتقوى وسيرة حافلة بالجهاد مما جعلنا نضع إشارات استفهام على كثير مما ورد في سيرة الموصلي أو لعل على كتاب الأغاني بجملته.

وقد أوردت سيرة الموصلي كثيرا من الأخبار عكست قدرته على صياغة الحوار وقدرته على تصوير نسبه الموصلي " قال الرشيد لي يوما : يا إبراهيم إني قد جعلت الرجال وأنا مقتصر عليك من المغنين ، فلا تشتغل غدا ولا تشرب نبيذا وكن بحضرتي في وقت العشاء الآخرة ، فقلت السمع والطاعة لأمير المؤمنين ، فقال وحق أبي لئن تأخرت أو اعتللت بشيء لأضربن عنقك أفهمت ، فقلت نعم فجاءني احد من أخواني ألا احتجبت عنى ولا قرأت رقعة لأحد حتى صليت المغرب ركبت قاصدا إليه ، فلما قربت من فناء داره ومررت بفناء قصره وإذا بزنبيل كبير مستوثق منه بحبال وأربع عرا أدم وقد دلى من القصر وجارية قائمة تنتظر إنسانا وعد ليجلس فيه "[4] .

---

1) شاكر، تهاني، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،ص0 4.
2) المرجع السابق ،ص0 4.
3) الأصفهاني، أبو فرج، كتاب الأغاني، ج 5-6 ،ص4-5.
4) المصدر السابق، 41-42.

إسحاق الموصلي :

من السير الذاتية التي ذكرها الأغاني سيرة إسحاق الموصلي وهي إلى حد كبير شبيهة بسيرة والده " وقدم إسحاق في سيرته رواية الأحداث والأزمان والمواقف التي تركت أثرها في نفسه فقط، وأسدل الستار على غيرها من الأحداث"[1].

ورغم أن المشهور عن إسحاق الغناء إلا أن له مكانه في العلم والأدب والرواية والشعر " وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه " [2].

والغريب أنه رغم هذه الشهرة في الغناء إلا أنه كان يكرهه ويكره أن يسمى به، يقول:" لو دوت أن أقرب كلما أراد مزيد مني أن أغني وكلما قال قائل إسحاق الموصلي المغنى عشر مقارع لا أطيق أكثر من ذلك وأعطني من الغناء ما لا يناسبني من يذكرني إليه " [3].

ويبدو أنه كان ورعا متفقها عالما بالحديث صادقا أمينا ولعل هذا ما يجعل المأمون يقول:" لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بمحضرتي فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاء "[4].

ومن القطع الجميلة التي وردت في سيرة إسحاق الموصلي وعكست بعض تفاصيل حياته، وصورت صراعا نفسيا خالجه نتيجة أزمة عاشها ولا تخلو هذه القطعة من الأسلوب القصصي والحوار وقد جاءت هذه القطعة في سياق حديثه عن البرامكة وفضلهم عليه " اسمع مني شيئا أخبرك به مما فعلوه ليس هو بكبير في صنائعهم عندي ولا عند أبي قبلي فإن وجدت في عذرا وغلا فلم كنت في ابتداء عمري نازلا مع أبي في داره، وكان لا يزال يجري بين غلماني وغلمانه وجواري وجواريه كما يجري فيشكونهم إليه، فأتبين غجر تنكر في وجهه فاستأجرت دارا في قربه فانتقلت إليها أنا وغلماني وجواري وكانت دارا واسعة فلم أرض ما معي من الآلة لها ولا لمن يدخل إلي من أخواني أن يروا مثله عندي ففكرت في ذلك وكيف أصنع وزاد فكري حتى خطر بقلبي قبح الأحدوثة

---

1) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية فير الأدب العربي الحديث ،ص42.
2) الأصفهاني أبو الفرج ، الأغاني ،ج 7،ص52.
3) المصدر السابق، ص 52.
4) المصدر السابق ،ص52.

بالنزول مثلي في دار بأجرة ، وأني لا امن في وقت أن يستأذن علي وعندي من احتشامه ولا يعلم حالي، فقال صاحب دارك أو يوجه في وقت، فيطلب عندي من احتشمه فضاق بذلك صمته ضيقا شديدا حتى تجاوز الحد فأمرت غلامي بأن يسرج لي حمار كان عندي لأمضى إلى الصحراء أتفرج فيها مما دخل على قلبي، فأسرجه وركبت برداء ونعل، فأفضى بي المسير وأنا مفركلا أميز الطريق التي أسلك فيها حتى هجم بي على باب يحيى بن خالد،فتواثب غلمانه إلي وقالوا أين هذا الطريق،فقلت إلى الوزير فدخلوا فاستأذنوا إلي، وخرج الحاجب فأمرني، وبقيت خجلا قد وقعت في أمرين فاضحين إن دخلت إليه برداء ونعل واعلنته أني قصده بتلك الحالة كان سوء أدب، إن قلت له كنت مجتازا ولم أقصدك وجعلتك طريقا،كان قبيحا ثم عزمت فدخلت فلما رآني تبسم،وقال:ما هذا الزي يا أبا محمد احتسبناك بالبر والقصد والتفقد، ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا فقلت: لا والله يا سيدي ولكني أصدقك قال: هات، فأخبرته القصة من أولها إلى آخرها فقال: هذا حق مستو أفهذا شغل قلبك،قلت: أي والله وزاد، فقال: لا تشغل قلبك بهذا يا غلام ردوا حماره، وهاتوا له خلعة فجاءوني بخلعه تامة من ثيابه،فلبستها ودعا بالطعام فأكلت، ووضع النبيذ، شربت وشرب، فغنيته ودعا في وسط ذلك بدواة ورقعة، وكتب أربع رقاع ظننت بعضها توقيعا إلي

بجائزة، فإذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع إليه الرقاع، وسارَّه بشيء فزاد طمعي في الجائزة، ومضى الرجل وجلسنا نشرب وأنا أنتظر شيئا فلا أراه إلى العتمة، ثم اتكأ يحيى فنام فقمت وأنا منكسر خائب فخرجت،وقدم لي حماري فلما تجاوزت الدار قال لي غلامي : إلى أين تمضي، قلت: إلى البيت قال: قد والله قد بيعت دارك، واشهد على صاحبها، وابتيع الدرب كله، ووزن ثمنه والمشتري جالس على بابك ينتظرك ليعرفك،وأظنه اشترى ذلك للسلطان لأني رأيت الأمر في استعجاله واستحثاثه أمرا سلطانيا، فوقعت من ذلك فيما لم يكن في حسابي، وجئت وأنا لا أدري ما أعمل، فنزلت على باب داري وإذا أنا بالوكيل الذي سارَّه يحيى قد قام إلي فقال لي: أدخل أيدك الله دارك حتى أدخل إلى مخاطبتك في أمر احتاج إليك فيه، فطابت نفسي بذلك، ودخلت ودخل إلي فأقرأني توقيع يحيى يطلق لأبي محمد اسحق مائة ألف درهم يبتاع بها داره وجميع ما يجاورها ويلاصقها، والتوقيع الثاني إلى ابنة الفضل قد أمرت لأبي اسحق مائة ألف درهم يبتاع بها داره ، فأطلق إليه مثلها لينفقها على أصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهي، والتوقيع الثالث إلى جعفر قد أمرت لأبي محمد اسحق بمائة ألف درهم يبتاع له بها منزلا يسكنه وأمر له أخوك بدفع مئة ألف ينفقها على بنائها وترميمها على ما يريد ، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يبتاع بها فرشاً لمنزله، والتوقيع الرابع إلى محمد قد أمرت لأبي محمد اسحق أنا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقة ينفقها عليه وفرش يبتذله ، فمر له أنت بمائة ألف درهم يصرفها في سائر نفقته "[1].

وفي سيرة إسحاق الموصلي كثير من الأحداث والحوارات التي تظهر تمكنه من الغناء وتفوقه على أقرانه ، وتحتوي كذلك على كثير من المحاورات التي تظهر براعته في الحديث وجراءته في مجالس الخلفاء.

1) الأصفهاني أبو الفرج ، الأغاني ،ج 7، ص71-72.

ما ورد من سير ذاتية في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

سيرة ابن سينا (ت سنة 428هـ)

من السير الذاتية التي أوردها ابن أبي أصيبعة سيرة ابن سينا وهو " أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ، وهو وإن كان أشهر من أن يذكر ، وفضائله من أن تسطر"[1] . ويعد ابن سينا من كبار العباقرة والفلاسفة الحكماء ، الذين قدموا للبشرية خدمات كبرى في مجال الفلسفة والطب ، والحكمة ، والموسيقى [2] ، و " الشيخ الرئيس ابن سينا شغل الأوساط العلمية ، والفلسفية والطبية والأدبية ، على مر العصور بإنتاجه الضخم الذي شمل كافة الموضوعات العلمية ومما يثير الإعجاب بعبقريته الفذة شروحا ته المفصلة الدقيقة ، لما أتى به الحكماء اليونان والعرب ، والفرس ، والهنود "[3].

وما يهمنا هنا سيرته الذاتية التي أوردها ابن أبي أصيبعة ، التي نقلها عنه تلميذه أبو عبيد الجوجزاني ، وما أورده ابن أبي أصيبعة بطبقاته من سيرة ابن سينا على لسان تلميذه الجوجزاني يقسم إلى قسمين: قسم يعد من السيرة الذاتية ، وقسم من السيرة الغيرية، فالجزء الذي نقله تلميذه الجوجزاني على لسان ابن سينا يعد سيرة ذاتية ولذلك فإننا نقتصر على ما قد ذكره هو عن نفسه، نقله عنه أبو عبيد الجوجزاني، قال : " قال الشيخ الرئيس:

إن أبي كان رجلا من أهل بلخ ...ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضا صعبا وعدت إلى جرجان ، فاتصل أبو عبيد الجوجزاني بي . وأنشأت في حالي قصيدة منها بيت قائل :

لما عظمت فليس مصر واسعي   لما علا تمني عدت المشتري

قال أبو عبيد الجوجزاني صاحب الشيخ الرئيس ، فهذا ما حكا لي الشيخ من لفظه "[4] .

إذن فسيرة ابن سينا الذاتية في طبقات الأطباء لا تتجاوز الأربع صفحات، وهو ما يهمنا ، أما ما تبقى من السيرة فلم يقله ابن سينا عن نفسه، وإنما رواه تلميذه الجوجزاني من مشاهدته خلال مرافقته له، وقد كان الجوجزاني صريحا في ذلك، فعندما أنهى ما رواه عن ابن سينا مما قاله بلسانه قال:" ومن هاهنا شاهدت أنا من أحواله، وكان بجرجان رجل

---

1) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة بيروت ، ط3، بيروت 1981م،ج3 ص3 .

2) غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفيه ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت 1979م،ص5.

3) المرجع السابق ،ص5-6.

4) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص 3-7.

يقال له أبو محمد الشيرازي يحب هذه العلوم، وقد اشترى للشيخ دارا في جواره وأنزله بها، وأنا اختلف إليه في كل يوم أقرأ المجسطي وأستملي المنطق ... والله ولي الذين آمنوا وهو حسبنا ونعم الوكيل" [1].

وبعد أن بين ابن سينا نسبه فإنه يحرص على إبراز نشأته العلمية التي بدأت بسنين مبكرة مما ينم عن عبقرية فذة "وأحضرت معلم الأدب، وأكملت العشر من العمر،وقد أتيت على القرآن وعلى الكثير من الأدب، حتى كان ..من الجب .. وأنا في هذا الوقت من ابن ست عشرة سنة" [2].

وبعد ذلك يواصل ابن سينا سرد سيرته العلمية المتميزة وكيف حصل مختلف العلوم بزمن قصير،وتشتمل هذه السيرة شطرا من حياته منذ عني به والده حتى بلغ الثالثة والثلاثين من عمره ، وبعد ذلك يتولىّ الإخبار عنه تلميذه الجوجزاني .

وهنا لابد من إبراز فقرة أثارت استغراب بعض الباحثين وهي: "وكلما كنت أتحير في مسئلة (كذا) أولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المنغلق وتيسر المتعسر .

وكنت أرجع بالليل إلى داري واضع السراج بين يدي ، واشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف ،عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي ، ثم أرجع إلى قراءة" [3].

قد استغرب بعض الباحثين اعتراف ابن سينا باتباع طريقتين متناقضتين في سبيل تحصيل المعرفة وإحكامها وتحمل مشاق القراءة والسهر . الطريقة الأولى هي الصلاة والابتهال إلى الله حتى يفتح عليه . والطريقة الثانية شرب قدح من الشراب .

ولكن هذا الأمر لا يستغرب من ابن سينا فقد اشتهر بإغراقه باللذات [4]. وهذه الفقرة تعكس جرأة في اعترافات ابن سينا . يقول تلميذه الجوجزاني :"وكان الشيخ قوي القوى كلها، وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية أقوى وأغلب ،وكان كثيرا ما يشتغل به فأثر مزاجه : وكان الشيخ يعتمد على قوة مزاجه "[5].

1) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،ص7-15.
2) المصدر السابق،ص3-4.
3) المصدر السابق ،ص5.
4) ضيف ، شوقي ، الترجمة الذاتية ،ص 28 .
5) المرجع السابق ،ص12.

وتعد سيرة ابن سينا من الصنف الإخباري المحض، فهمه أن يعرف الناس "أين نشأ وكيف تعلم، وكيف كانت قابليته للعلم، ومن شيوخه، وما هي الكتب التي ألفها، والبلاد التي زارها" [1].

وما دمنا في سياق الحديث عن السيرة الذاتية لابن سينا فلا مندوحة من الحديث عن رسالته "حي بن يقظان "، التي يرى فيها بعض النقاد سيرة رمزية لابن سينا، كما هي أيضا لابن طفيل والسهرودي، وهي ليست سيرة ذاتية بالمعنى الحقيقي؛ لأنها لا تصور إلا جانبا عقليا أو روحيا [2] .

والواضح أن ابن سينا حاول من خلال "حي بن يقظان" أن يعرض أفكاره الفلسفية والعقلانية رامزا إلى العقل الفعال والنفس الإنسانية "ومن الواضح أن القصص الرمزية، والحكايات المبطنة بالإشارات الخفية، التي لا يفهمها إلا من كان على درجة عقلانية رفيعة، تهدف إلى نشر أفكار عرفانية تتفاعل وتتكوم في مخيلة الكاتب لتجسيد أراء ربما يخاف على إطلاقها صريحة لما يحيط به من عوامل سياسية أو دينية. ورسالة حي بن يقظان التي كتبها ابن سينا وشحنها بالرموز والإشارات يقصد من خلفها إلى معالجة بعض

الأفكار العقلانية والنفسية التي تتكوكب في أعماقه التواقة إلى المعرفة الحقيقية الفاعلة في الوجود والموجودات" (3).

1) عباس ،إحسان ، فن السيرة ،ص115.
2) فهمي ،ماهر حسن ، التراجم والسير ، ص235.
3) غالب ،مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية ، ص 78.

سيرة ابن رضوان (ت سنة 454هـ)

أورد ابن أصيبعة سيرة ابن رضوان بقوله: "إنه لما كان ينبغي لكل إنسان أن يلتحق أليق الصنائع به وأوفقها له،وكانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة طاعة لله عز وجل، وكانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أن صناعة الطب، وكان العيش عندي في الفضيلة ألذ من كل عيش، أخذت في تعلم صناعة الطب وأنا ابن خمس عشرة سنة، والأجود أن أقتص إليك أمري كله: ولدت بأرض مصر في عرض ثلاثين درجة، وطول خمس وخمسين درجة، والطالع بزيج يحيى بن أبي منصور الحم، لو أعاشره الجدي. كح، مواضع الكواكب الشمس ... فلما بلغت سنه السادسة أسلمت نفسي في التعليم ، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت على المدينة العظمى وأجهدت نفسي بالتعليم . ولما أقمت أربع عشرة سنه أخذت في تعليم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه ، فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ومرة بالتعليم، ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى أن أتممت الثانية والثلاثين، فإني اشتهرت فيها بالطب وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل كان يفضل عني

إلى وقتي هذا، وهو أخر السنة التاسعة والخمسين، وكسبت مما فضل عن نفقتي أملاكا في هذه المدينة إن كتب الله عليها السلامة وبلغني سن الشيخوخة كفاني في النفقة عليها"[1].

وواضح مما أوردناه أن ابن رضوان كان يرى في مهنة الطبيب مهنة شرعية وفيها طاعة لله، ويتضح من سيرته مراحل تعلمه التي بدأت مبكرا منذ بلغ السادسة ويعرض الصعاب التي واجهته في العلم حتى سن الثالثة والثلاثين، حتى هذا السن ذاعت سيرته واتسع رزقه، ويوضح ابن رضوان أن سيرته جاءت على شكل مذكرات كتبها خلال ما يقرب الثلاثين عاما كان يغير فيها كل سنة حتى ثبتت على الشكل الذي وصلتنا به. وواضح كذلك اعتقاده بالتنجيم " وكانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أن صناعة الطب".

واهتم ابن رضوان في سيرته بتبيان طريقة تعلمه الطب، وكذلك اهتم بذكر عاداته وصفاته وأخلاقه الحميدة "ولعل من الغريب أن هذه السيرة المعتدلة تخالف كل المخالفة ما عرف عنه من تشنيعه على سابقيه ومعاصريه،أمثال حنين بن إسحاق. ومحمد بن زكريا الرازي

1) ابن ،أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ،ج3 ، ص 164- 165.

من السابقين وابن بلقان البغدادي من المعاصرين ، ولكن لعل هذا الخلق الجامح في تأليفه لم يكن خلقه في سلوكه وحياته بين الناس" [1].

وبالمجمل فإن سيرة ابن رضوان لا تخرج عن الصنف الإخباري المحض .

1) ضيف ،شوقي ، الترجمة الشخصية ،ص 31- 32.

عبد اللطيف البغدادي (557هـ - 629هـ)

قال عنه ابن أبي أصيبعة " هو الشيخ الإمام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد ويعرف بابن اللباد، موصلي الأصل بغدادي المولد. كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل، مليح العبارة كثير التصنيف. وكان متميزا بالنحو واللغة العربية، عارفا بعلم الكلام والطب. وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها. وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه" (1).

وسيرة البغدادي لا تختلف عن باقي السير التي أوردها ابن أصيبعة ، فهو يذكر سيرته العلمية والكتب التي تعلمها وشيوخه إلا أنه يسهب القول في رحلته والشيوخ الذين لقيهم .

ولعل من أهم ما ورد في سيرة البغدادي – والذي يعد وثيقة تعتمد في البحث العلمي والدراسات العليا – ما قاله حول أسلوب التعلم والأدب مع المعلم ، وسنورد لك ما قاله – رغم طوله لما فيه من فائدة – يقول البغدادي : "وينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة

أذا أويت إلى منامك ، وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها ، وما اكتسبت من سيئة ، فتستغفر الله منها ، وتقلع عنها. وترتب نفسك مما تعمله من الحسنات ، وتسأل الله الإعانة على ذلك. وقال : أوصيتك أن لا تأخذ العلوم من الكتب ، وأن وثقت من نفسك قوة الفهم. وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ، ولو كان الأستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه . وعليك بتعظيمه وتوجيبه وأن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل ، وإلا فبلسانك وثنائك .

وإذا قرأت كتابا ، فاحرص كل الحرص على أن تستظهره ، وتملك معناه ، وتوهم أن الكتاب قد عدم وأنك مستغن عنه ، لا تحزن لفقده. وإذا كنت مكبا على دراسة كتاب وتفهمه ، فإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة ، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله ، فإذا قضيت منه وطرك، فانتقل على علم آخر ، ولا تظن أنك إذا حصلت علما فقد اكتفيت، بل تحتاج إلى مراعاته لينمو لا ينقص، ومراعاته تكون بالذاكرة والتفكر واشتغال المبتدئ بالتلفظ والتعلم ، ومباحثة الأقران. واشتغـال العـالم بالتعليم والتصنيف

1) ضيف ،شوقي ، الترجمة الشخصية ، ص 330.

وإذا تصديت لتعليم لغة أخرى أذا علمها أو جهل بعضها قال: وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلع على السير وتجارب الأمم، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية، وعاصرهم وعاشرهم، وعرف خيرهم وشرهم. قال: وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول، فاقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ،وتتبع أفعاله وأحواله ، واقتف آثاره وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك، ...استكثر منة حفظ الأشعار الأمثالية، والنوادر الحكمية والمعاني المستغربة" [1] .

أن ما أورده البغدادي في الفقرة السابقة يدل على علم واسع وأدب جم اكتسبه الرجل في رحلته العلمية الطويلة. وتتناثر المواعظ والحكم العديدة في سيرة البغدادي ، والتي يضيق المجال عن ذكرها، وبالرجوع إليها فائدة عظيمة .

1) ضيف ،شوقي ، الترجمة الشخصية ، ص 342-345.

ما ورد في " معجم الأدباء" لياقوت الحموي:

علي بن البيهقي (499 هـ - 565هـ)

هذه السيرة لعلي بن البيهقي وقد حفظها لنا معجم الأدباء لياقوت الحموي ، وقد ضمن البيهقي ترجمته الذاتية في كتابه مشارب التجارب وهو مفقود " قال هو في كتاب مشارب التجارب : أنا أبو الحسن علي بن الإمام أبي القاسم زيد بن الحاكم الإمام أمبرك ، محمد بن الحاكم أبي علي الحسين بن أبي سليمان الإمام فندق بن الإمام أيوب بن الحسن ابن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله عن عمر بن الحسين بن عثمان بن أيوب ابن خزيمة بن عمرو بن خزيمة بن ثابت ابن صاحب رسول الله عليه وسلم ابن الفاكه بن ثعلبة بن ساعده بن عامر بن عثمان بن عامر بن خطمة بن جثم بن مالك بن الأرس. ورفع نسبه إلى أدم، وذلك يسر كما ذكرناه في عدة من قطع في كتابه" [1].

وبعد هذا يذكر علي بن زيد مولده في سفيان سنة 499ه في هضبة السّابزوار من ناحية بيهق، وتتبع بعد ذلك مراحله في التعليم وشيوخه ورحلاته في العلم، ثم يأتي بذكر مصنفاته ولا يحدثنا البيهقي شيئا عن حياته الخاصة وأحواله النفسية إلا في إشارة سريعة

حين قال" واشتغلت بمرو بتزوج صدني عن التحصيل صدا، وعدت إلى نيسابور ثم عدت إلى مسقط الرأس وزيارة الوالدة ببيهق، وصرت مشدودا بوثاق الأهل والأولاد سنين ، وفوض إلي قضاء بيهق في مجاري الأولى سنة ست وعشرين وثمانمئة ، فبخلت بزماني وعمري على إنفاقه في مثل هذه الأمور التي قصارها ما قال شريح القاضي " أصبحت ونصف الناس علي غضبان " ، فضقت ذرعا ولم أجد بدا من الانتقال حتى يتقلص عني ظل ذلك الأمر"(2).

ففي القصة السابقة تحدث عن زيارته لوالدته وعدم رضاه عن الزواج لأنه شغله عن التحصيل بل صده صدا ، ثم يعكس بعضا من القلق النفسي إضافة لتوليه عمله في القضاء فلم يرقه ذلك .

---

1)الحموي، ياقوت، معجم الأدباء ،طبعة الأخيرة ، دار إحياء التراث العربي، لبنان بيروت، وزارة المعارف العمومية، مجلد7 ، ج13،ص219.
2)المصدر السابق ، ص22- 223 .

ما ورد ذيلا على كتب التراجم والطبقات للكاتب نفسه:

ترجمة :محمد عبد الرحمن السخاوي (831 هـ - 902هـ)

من الذين ترجموا لأنفسهم – في سياق من ترجموا لهم في كتبهم التي ألفوها في التاريخ والتراجم – السخاوي ، فقد ترجم لنفسه في كتابه " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" ، ولم يجعل ترجمته في خاتمة كتابه كما فعل الكثير ، وإنما جعله ضمن الترتيب الذي وصفه لكتابه ، فقد جاء في بداية الجزء الثامن من كتابه ضمن من اسمه أحمد . يبدأ ترجمة لنفسه بقوله " محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد الملقب شمس الدين أبو الخبر وأبو عبد الله بن الزين أو جلال أبي الفضل وأبي محمد السخاوي الأصل قاهري الشافعي المصنف الماضي أبوه وجده ويعرف بالسخاوي ، وربما يقال له ابن البارد شهرة لجده بين أناس مخصوصين ، ولذا لم يشتهر بها أبوه بين الجمهور ولا هو بل ، يكرهها كابن علبية وابن الملقن في الكراهة ، ولا بذكره بها الأمن يحتقره . ولد في ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة بحارة بهاء الدين علو الدرب

المجاور لمدرسة شيخ الإسلام البلقيني محل أبيه وجده ، ثم تحول منه حين دخل في الرابعة مع أبويه لملك اشتراه أبوه مجاور لسكن شيخه ابن حجر" [1] .

وقد ذكر السخاوي في ترجمته نشأته سريعا ، ثم أسهب في وصف رحلته العلمية وشيوخه الذين درس عليهم ، ثم جاء على ذكر مصنفاته ، ثم أسهب في وصف ما قاله عنه أعلام أهل عصره من مدح وثناء متتبعا المنثور منه والمنظوم .

ومن الملاحظ على سيرة السخاوي أنه لم يروها بضمير المتكلم، وإنما رواها بضمير الغائب وكأنه يتحدث عن غيره ، ويلاحظ أيضا أنه أسهب في ترجمته قياسا لمن ترجم له في كتابه. فبلغت ترجمته حوالي ست وعشرين صفحة بينما لم تتجاوز تراجم غيره – في أحسن الأحوال – صفحة أو صفحتين ، وقد تصل إلى بضعة أسطر .

1)السخاوي،محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع في القرن التاسع ،منشورات دار الحياة بيروت،م4، ج8، ص2.

" الإحاطة في أخبار غرناطة "   لسان الدين بن الخطيب (776هـ)

جاءت هذه السيرة ذيلا على كتابه " الإحاطة في أخبار غرناطة "، فقد ترجم لنفسه في الجزء الأخير من كتابه ، وبين أن الغاية من هذه الترجمة هي رغبته في تخليد ذكره ، وأن يقرن سيرته مع سيرة من ترجم لهم في هذا الكتاب " فإني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضل النشاط ، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية ، والتفت إليه، فراقني منه صيوان دررّ،ومطلع غرر،قد تخلدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم، بعد انطواء زمانهم، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعت باجتماع الشمل بهم، ولو في الكتاب، وحرصت على أن أنال منهم قربى، وأخذت من أعقابهم أدبا وحبا وكما قال، ساقي القوم، أخرهم شربا، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف وحذوت بها حذوهم، في باب النسب والتصريف،بقصد التشريف"[1].

وقد تحدث لسان الدين بن الخطيب في ترجمته عن أوليته ومراحل حياته الأولى، ثم ذكر بعض ما صدر له من التشريفات الملوكية، وبعد ذلك جاء على ذكر مشيخته، فتبعها بذكر مؤلفاته ، ثم أسهب في عرض قصائده ومقطوعاته الشعرية " حتى أصبحت سيرته الذاتية أقرب إلى ديوان الشعر منها إلى السيرة "[2] ، ثم أورد رسائل مختلفة بقلمه، وأتبعها برسالة السياسة.

وعند عرض ابن الخطيب لهذه السيرة سيطر على أسلوبه السجع مما افقد هذه الأخبار متعة القراءة والمتابعة . سيرة ابن الخطيب هذه قد تعين الباحثين في الكشف عن جوانب مختلفة عند التأريخ لتلك الفترة، فقد عكست الصراعات والفتن المحتدمة التي كانت تسيطر على هذه الفترة، ولعل أكبر دليل على ذلك نهاية أبن الخطيب نفسه المأساوية ،فقد مات مقتولا في السجن.

---

1) ابن الخطيب،لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة،ت،محمد عبد الله عنان، ط1،مكتبة الخانجي القاهرة، 1977م.ج4،ص438.

2) شاكر ،تهاني، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،ص64.

ما ورد على شكل رسائل:

رسالة "الصداقة والصديق " لأبي حيان التوحيدي (414هـ) :

من أهم السير الذاتية التي وصلتنا على شكل رسائل " رسالة الصداقة والصديق " لأبي حيان التوحيدي، وأبو حيان التوحيدي رجل اكتنف شخصيته ونشأته الغموض، وشخصيته مثيرة للجدل، وجديرة بالبحث العميق لسبر أغوارها، والحقيقة أن شخصية أبي حيان تستهوي وتغري الباحثين في قراءتها والحديث عنها بإفاضة ، فهو رجل نشأ في رحم المعاناة والبؤس والفقر والحرمان ، ولم يستطع التخلص من هذا حتى وفاته ، ورغم عقليته الوقادة ، ونبوغه العلمي والأدبي إلا أن التاريخ ظلمه كما أنه ظلم نفسه عندما حرق كتبه، وظلمنا عندما حرمنا من هذا النتاج العظيم ، والذي يدل عليه ما وصلنا من كتبه كالمقابسات، ومثالب الوزيرين، والإمتاع والمؤانسة والإشارات الالهيه، والصداقة والصديق. والأخبار عن أبي حيان قليلة وغير مفصلة لأنه"من المتعذر على المؤرخ إيجاد سيرة متسلسلة الحلقات للتوحيدي ، فإن أخباره المبعثرة هنا وهناك لم تفدنا شيئا عن أصله ونشأته ومكان ولادته، وهذا ما جعل الأخبار عنه قليلة ومتضاربة، وما عرف منها لم يسلم من التحريف وذلك أن أبا حيان التوحيدي لم يكن على وفاق مع أهل عصره مما جعله يقضي شطرا كبيرا من حياته مستترا ، خشية الأذى وبطش السلطان" [(1)].

ومع هذا فإنه يرجح أنه ولد سنة 30هـ لأبوين فقيرين،وقضى قسما كبيرا من حياته في بغداد، وهو فارسي الأصل، واختلف في نسبه إلى واسط أو نيسابور أو شيراز. وتلقى العلم على عظماء عصره أمثال أبي سعيد السيراجي، والدمالي، والقاضي أبي حامد المروزوذي، وأبي بكر القفال الشاشي، والنهرواني، وأبي سليمان السجستاني ، وغيرهم الكثير. ولعل مما أثرى معرفة أبي حيان كثرة تجواله وتطوافه في جميع أرجاء البلاد ، ومخالطته وقربه من مختلف الطبقات خاصة الطبقات الدنيا نتيجة لظروفه الصعبة مما أكسبه تجارب مختلفة و "إطلاعا على النفس البشرية فترى ظلالها منعكسة في آثاره ، فهي صدى أصيل لأحداث عصره وتياراته الفكرية والأدبية والاجتماعية" [(2)].

1) التوحيدي ،أبي حيان ،الصداقة والصديق ،ت ،د. إبراهيم الكيلاني ،ط2 ،دار الفكر ،دمشق 1996،(مقدمة المحقق) ص 11.

2) المصدر السابق ،ص13.

يرى بعض النقاد أن سر نبوغ أبي حيان. يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والناس، "إن تلك الثورة شبت في مفتاح حياته ومستهل صباه حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجري بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائه حينا، ثم تحول على ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هاذين الجدولين ما ينقع غلته، ويطفئ صداه. هنالك من فجر بركان غضبه وتحول إلى آتون مستعر ، يرمي باللهب المحاق والشواظ المبيد" (1) .

ولعل ما يهمنا في هذا المقام، أن مؤلفات أبي حيان تعكس جانبا، أو جوانب من سيرته الذاتية، خاصة كتابه "مثالب الوزيرين" ، و" الإمتاع والمؤانسة " و "رسالة الصداقة والصديق" ، وقد اخترنا للحديث رسالته " الصداقة والصديق "؛ لأنها أقرب ما كتب للسيرة الذاتية. كما انه كتبها بأخرة من حياته، فهو يصور الجانب الوجداني من حياة التوحيدي.

ويرى بعض النقاد أن كتب أبي حيان عكست شخصيتين مختلفتين"الشخصية الأولى شخصية الأديب الذي يحدثنا عن نفسه وأشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة. والشخصية الثانية شخصية الباحث الذي ينقل الصور المختلفة لما يفهمها معاصروه من ضروب العلوم والآداب الفنون .

وتظهر الشخصية الثانية بشكل جلي في كتابه المقابسات، أما الشخصية الأولى فتظهر في جميع كتبه، ولكنها تتجلى وتبدو واضحة للعيان في رسالته الصداقة والصديق ، وكما أشرنا سابقا، فإن الجانب الوجداني عند أبي حيان نشأ في رحم المعاناة، وبؤس الأيام وحرمانها ومما ساعد على إبراز هذا الجانب أن الرسالة لم تؤلف دفعة واحدة بل أمتد تأليفها طوال حياة مؤلفها، واكتملت في أواخر أيامه. وقد صرح أبو حيان بالظروف النفسية التي كتب بها الرسالة حيث يقول:" ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق،والأسف، والحسرة والغيظ،والكمد،والومد،وكأني بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنه، وأمرس نقده عليها، وأنكر علي التطويل والتهويل بها وإنما أشرت بهذا إلى غيرك لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي وإطلاعك على دخلتي واستمراري على هذا الأنقاض والعوز الذين قد نقضا قوتي، ونكثا مرتي ، وأفسدا حياتي وقرناني بالأسى وحجباني عن الأسى،لأني فقدت كل مؤنس وصاحب،

1) مبارك ،زكي ،النثر الفني في القرن الرابع الهجري ،ج2 ،ص162.

ومرفق، ومشفق،والله ! لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي ، فإن اتفق فبقال،أو عصار، أو نداف ، أو قصاب ، ومن وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه فقد أمسيت غريب الحال غريب الفظ،غريب النحلة،غريب الخلق، مستأنسا بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، مجتنفاً على الحيرة ، محتملاً الأذى، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على الشفاء، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص" (1) .

وقصصه الممتعة واستطراداته العديدة في"الصداقة والصديق"التي تعكس شخصيته، كثيرة وعديدة يقول أبو حيان:" وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول:" اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم " وأقول " اللهم أسمع واستجب، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ، والفرح معدوم،وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد" (2).

ولا يخفى علينا ما بين الخوارزمي وأبي حيان من تشابه ، فكلاهما عانى مرارة الظلم فالخوارزمي رأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان رغم حداثة سنه " فلا عجب أن يردد " التوحيدي " شكاته وأنينه وهو الذي رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد" (3)

إن أهم ما يميز أبا حيان التوحيدي في كتبه، وخاصة في الصداقة والصديق، قدرته التصويرية، وتطويع اللغة في رسم صوره الفنية،التي استطاع من خلالها تصوير مشاعره وأحاسيسه، وكذلك مشاعر وأحاسيس وخواطر الناس ، وعرض أرائهم في فهم الحياة ، وتظهر هذه المقدرة التصويرية امتلاكه ناصية اللغة وتطويعها لخدمة صورة وخيالة الواسع "وهو يظهر في ثنايا كلامه غني اللغة قوي الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء" (4) .

والقارئ لرسالة الصداقة والصديق يجد الأمثلة العديدة التي تعكس ما قلناه عن أبي

---

1) التوحيدي ،أبو حيان ،الصداقة والصديق ،ص33-34.
2) المصدر السابق ،ص29-30.
3) مبارك ،زكي ،النثر الفني في القرن الرابع الهجري ،ج2، ص169 .

4) المرجع السابق ،ص170.

حيان من قدرة التصوير، والأسلوب الأدبي الجميل، والتمكن من اللغة، ولنسمع لقوله" وما من أحد إلا وله من الفن حصة، لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل، أو حميم أو صاحب، أو رفيق، أو سكن ، أو حبيب ، أو صديق ، أو أليف، أو قريب، أو بعيد أو ولي ، أو خليط ، كما لا يخلو أيضا من عدو ، أو كاشح ، أو مزاج ، أو مكاشف ، أو حاسد، أو شامت، أو منافق ، أو مؤذ، أو منابذ ، أو معاند، أو مذل، أو مضل، أو مغل"(1).

وقد أوجز القول إحسان عباس ولم يدع مجالا للزيادة حين قال عن أسلوب أبي حيان :" وأما أبو حيان فاكتفى" بالرسائل الصغيرة " في ترجمة الأشخاص ، منتهجا أسلوبا فنيا حيويا عامرا باللفتات الدقيقة ، أسلوبا ربما لم يرزق مثله أحد من قبله أو من بعده قوة وأصالة وجمالا. وفضلا عن هذا كله كان أبو حيان يتفرد بميزتين: الأولى ذلك الخيال اللازم لربط أجزاء السيرة في وحدة كاملة، وهو خيال يضع الكلمة اللازمة والحوار الضروري في كل موقف إذا قصر الواقع، ولا يهتم بالصيغة الأصلية للخبر إلا بمقدار. وهي مقدرة قصصية لا تستغني عنها السيرة حين يراد لها أن تكون أدبية. وأما الميزة الثانية فهي فهمه الدقيق لموقف كاتب السيرة في عدم تحيزه وفي ميله دائما إلى الإنصاف"(2).

1) التوحيدي ،أبو حيان ،الصداقة والصديق ،ص 160.
2) عباس ،إحسان،فن السيرة،ص20.

رسالة " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " لابن الجوزي (510-597هـ)

صاحب هذه السيرة هو عبد الرحمان بن علي بن حسن بن علي بن عبد الله بن محاري بن أحمد بن حسن بن جعفر الجوزي نسبة إلى فرضة نهر البصرة ابن عبد الله ابن القاسم بن النضر بن قاسم بن حسن بن عبد الله بن عبد الرحمان بن قاسم بن حسن بن أبي بكر الصديق ، الشيخ الحافظ، الواعظ، جمال الدين أبو القزح المشهور بابن الجوزي، القرشي التميمي البغدادي الحنبلي، أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن خبرة، وجمع المصنفات الكبار، والصغار نحوا من ثلاثمائة مصنف ، وكتب بيده نحواً من مائتي مجلد، الوعظ الذي لم يسبق إليه، ولا يلحق شأوه فيه"[1] ولقد ولد ابن الجوزي ببغداد بدرب حبيب حوالي سنه 510هـ وتوفي سنة 597هـ [2].

ونأتي إلى " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " وهي رسالة وجهها ابن الجوزي إلى ابنه على شكل نصائح ضمنها بعضا من سيرته الذاتية، فبعد أن وجد في ابنه القاسم توانياً عن الجد في طلب العلم ، كتب له هذه الرسالة يحثه بها ويحركه على سلوك طريقه في كسب المعرفة . فالهدف من الرسالة النصح والإرشاد على شكل وصايا الآباء للأبناء ودعوتهم إلى الاقتداء بهم ليلقوا ما يلقونه .

"وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي وتسأل الموقف لي ، فإن الإنعام علي لم يكن بكسبي وإنما هو من تدبير النصيب بي" [3].

وقد قسم ابن الجوزي كتابه إلى سبعة عشر فصلاً تحدث فيه عن تميز الآدمي بالعقل ، في معرفة الله تعالى بالدليل ، وفي النظر للنفس عند الحدود ، وفي الانتباه للنفس والندم على ما مضى ، وفي التفكير في الدنيا ، وفي وجوب عدم اليأس ، وفي الصلاة بعد الدرس، وفي تذكير الولد بتصانيف أبيه،وفي عدم التعبد من دون علم، وفي تعليم السلوك، وفي حسن المداراة للخلق ، وفي وجوب أداء كل ذي حق حقه ، وقمتها في الحض على طلب العلم. والذي يهمنا أكثر من غيره الفصل الثالث لأنه يقبض في الترجمة لنفسه ، ويسوق لابنه من أحواله ما قد يرشده في دنياه .

---

1) ابن كثير،إسماعيل ،ج 13 ،7م،ص35
2) المرجع السابق،36 .

3) ابن الجوزي ،عبد الرحمن،لفتة الكبد إلى نصيحة الولد،تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري،دار الكتب العلمية 1987م، ص35.

" فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار، قد رزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط، ولا ضحكت ضحكا خارجاً. حتى أني كنت ولي سبع سنين أو نحوهما أحضر رحبة الجامع. فلا أتخير حلقة متعبد، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسير فأحفظ جميع ما أسمعه وأذهب إلى البيت فأكتبه .

ولقد وقف لي ابن ناصر، رحمه الله ، وكان يحملني إلى الشيوخ فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يراد مني ... ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر اخذ جزءاً وأقعد حجزة من الناس إلى جانب الرقة فأتشاغل بالعلم .وقد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة.

ولقد تاب في مجالسي مائة ألف، وقد قطعت أكثر من عشرين سالف مما يتعاناه الجهال . ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لئلا أسبق، وكنت أصبح وليس لي مأكل، وأمسي وليس لي مأكل، ما أذلني الله لمخلوق قط . ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي، ولو شرحت أهوالي لطال الشرح" (1).

ويذكر ابن الجوزي بعضا من أخباره في مواقع أخرى والتي في مجملها تطلعنا على نشأة وأخبار ابن الجوزي، ومدى اندفاعه في طلب العلم والتحصيل متحملا كل المشاق والصعاب ، ويعرض علينا ابن الجوزي ويعرفنا بكتبه ومصنفاته الكثيرة والعديدة. إن رسالة ابن الجوزي تصور الحياة المثالية التي عاشها ويطلب من ابنه أن يحتذيها.

1- ابن الجوزي ،عبد الرحمن،لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ، ص35-38.

ما ورد على شكل كتب:

(طوق الحمامة في الألفة والألاف) لابن حزم الأندلسي(456هـ) :

طوق الحمامة من أقدم السير الذاتية التي وصلت إلينا،وابن حزم الأندلسي(384-456) يقول عنه ابن كثير " وهو الإمام الحافظ العلامة، أبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن سفيان بن يزيد ، مولي يزيد ابن أبي سفيان، صخر بن حرب الأموي، أصل جده من فارس، أسلم وخلف المذكور، وهو أول من دخل بلاد المغرب منهم،وكانت بلدهم قرطبة فولد ابن حزم هذا بها في شهر رمضان، سنة أربعة وثمانين وثلاثمائة، فقرأ القرآن، واشتغل بالعلوم النافعة الشرعية، وبرز فيها وفاق أهل زمانه وصنف الكتب المشهورة ، ويقال إنه صنف أربعمائة مجلد في ترتيب من ثمانين ألف ورقة وكان أديباً طبيباً شاعراً فصيحاً، له في الطب والمنطق كتب ً، وكان من بيت وزارة ورئاسة،ووجاهة، ومال،وثروة،وكان مصاحباً للشيخ أبي عمر بن عبد الثمري، وكان للشيخ أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، قد حدث بينهما مناظرات يطول ذكرها ، وكان ابن حزم كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه، وما زالوا به حتى بغضوه إلى ملوكهم ، فطردوه عن بلاده ، "حتى كانت وفاته في قرية له في شعبان من هذه السنة وقد تجاوز التسعين" [1]، وكتاب طوق الحمامة، يعد أهم كتاب يكشف لنا شخصية ابن حزم في جانبها الإنساني والنفسي العميق، ويعكس الكتاب جرأة عجيبة، وكيف لا تكون عجيبة وقد جاءت من أحد أئمة المذهب الظاهري ، وقد " أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جداً في أوروبا ، وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل ،

وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاباً ألف في" فن الحب" قبل ذلك الكتاب لا في اللغات القديمة ولا اللغات الحديثة، لأن أوروبا في القرن العاشر للميلاد كانت معارفها قليلة جداً في الشؤون الوجدانية، فكان من المستغرب حقاً أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام بتفصيل شائق جذاب هو أية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماماً من

أئمة الدين، ويحتذى في أدب النفس، وكرم الطبع ومتانة الخلق. وما كاد ينشر الكتاب حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم: جولد زهير، و دوزي

1) ابن كثير،البداية والنهاية،ج 12، ص553.

وبروكلمان، والدكتور سنوك هوجرنيه، والمسيو مرسيه، وتسابق المستشرقون الألمان والنمساويون والهولنديون. والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه "[1].

إذن الكتاب لم يثر ضجة عند العرب وحدهم، بل عند الغرب أيضاً، وليس المجال هنا الحديث عن تلك الخلافات حول الكتاب والتي وصلت إلى حد إنكار بعضهم لنسبة الكتاب لابن حزم . ولكن الذي يهمنا هو ما تضمنه الكتاب من اعترافات وبوح عن النفس بصورة جريئة وتكاد تكون نادرة " ولذلك نرى ابن حزم الأندلسي فذاً في تلك النتف الاعترافية. التي ضمنها كتابه " طوق الحمامة " وهو زعيم مذهب ، وأخو تشدد بالغ في النظرة الدينية " [2] .

وقد أورد ابن حزم كثيراً من الاعترافات الجريئة ومنها قوله: "وعني أخبرك أني أصبت في صباي جارية لي شقراء الشّعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشّعر،ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه وأني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لاتؤاتيني نفسي على سفه ولا تحب غيرة البتة" [3] .

ويرى إحسان عباس أن ابن حزم يتعمق في استبطان أحواله النفسية في بعض اعترافاته ومذكراته .

ويمثل على ذلك بقول ابن حزم "وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ . وهذا حكم من تتداوى برأيه إن ربه عنه سريعا.

ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدتني إلا مستزيدا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتني فترة، ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب، فلم اجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادي، وغير شاف وجدي، ولا قاض اقل لبانة من لبناتي، ووجدتني كلما ازددت دنوا ازددت ولوعا، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي" [4] .

ورغم هذه الجرأة والصراحة في عرض اعترافاته " إلا انه لم يستطع أن ينسب

1) مبارك ،زكي،النثر الفني في اقرن الرابع الهجري ،ج 2، ص200–201.
2) عباس ،إحسان ، فن السيرة،ص112.
3) الأندلسي،ابن حزم،طوق الحمامة،في الألفة والآلاف،ط 1،دار الجيل ،بيروت ،1997.ص 47.
4) المصدر السابق، ص90 .

كثيرا من الوقائع لنفسه، فاكتفى بالتلميح أحيانا، وكنى عن أسماء الأحياء مراعاة لمشاعرهم " [1] .

وقد أشار ابن حزم إلى ذلك منذ البداية حيث يقول:" فاغتفر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها وإما نحافظ في ذلك صديقا ودوداً ورجلا جليلاً"[2] ، وليست المسألة بتلك السهولة بحيث نطلب من ابن حزم أن يعطينا صورة دقيقة عن حياته وحياة الآخرين، فابن حزم وإن كان صريحاً إلى حد كبير فيما يخص نفسه فإنه فيما يخص الآخرين سيكون أكثر حذراً وأقل صراحة." وحتى لو سلمنا جدلاً بأن صاحب الترجمة الذاتية سيتحلل من هذا كله، فلا يمنعه حياء،ولا تخدعه أثرة،ولا يغريه بالاختراع فن؛ وبأنه سيكون صريحا كأوقح ما تكون الصراحة، قاسيا كأشد ما تكون القسوة ، فإنه لا يستطيع أن يكون بهذه القسوة ، وتلك الصراحة إلا فيما يتصل بشخصه فحسب. أما فيما يمس الآخرين، الأحياء منهم والأموات، فلا بد أن يجد من نفسه وازعاً، ويشعر بشيء غير قليل من الحرج، وهو يقص ما كان بينه وبينهم من صلات ومغامرات. وصلات الإنسان بغيره من الناس لها النصيب الأوفر في تكوين نسيج حياته"[3] .

وقد أورد ابن حزم أخبارا تعكس أثر البيئة في تنشئة الإنسان وتركيبه النفسي ، ومن هذا القبيل التنشئة المترفة التي نشأها ابن حزم، وقربه من النساء منذ كان طفلاً، فقد تربى وتعلم على أيديهن " ولقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل وجهي"[4] ورغم هذه الاعترافات ، التي تتسم بالجرأة والصراحة وعمق التحليل النفسي إلا أنها تبقى سيرة ذاتية ناقصة ؛ لأنها لم تتناول جميع جوانب ومراحل حياة ابن حزم " وهذه الاعترافات في كتاب طوق الحمامة تجعله طرفة حقيقية ، إذ قلما يعترف العرب في كتبهم بوقائعهم اليومية على هذا النحو الذي نجده عند ابن حزم. على أن هذا الكتاب ليس ترجمة شخصية كاملة لصاحبه ، فإنه إما يسوق لنا فيه جانباً واحداً من حياته هو جانب حبه ، وكثيراً ما يتحدث عن وقائع لبعض المحبين دون أن يسميهم ، وأكثر الظن انه هو نفسه صاحب هذه الوقائع ، وخاصة

1) عباس ،إحسان،فن السيرة،113.
2) الأندلسي ،ابن حزم ، طوق الحمامة ،ص 13.
3) بدوي ، عبد الرحمن، الموت والعبقرية ، ص106.
4) الأندلسي ،ابن حزم،طوق الحمامة ،ص 74 .

أنه يسوق دائماً وراءها أشعاراً تصور حالة المحب أو المحبوب في الواقعة" [1].

وقد أصاب شوقي ضيف فيما قاله إلا أن لنا ملاحظة حول قوله بأن ابن حزم هو صاحب تلك الوقائع التي لم يسم أصحابها مستدلا بذلك بالأشعار التي قالها ابن حزم عقب كل واقعة ، ولكن ابن حزم توقع مثل هذا القول فدافع عن نفسه منذ بداية الكتاب ، فهو يقول: " وسأروي في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تفكر أنت ومن رآها علي أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشموني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أني ذاكر لك ماعرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبه إلي" [2] .

1) ضيف،شوقي،الترجمة الشخصية ،ص43.
2) الأندلسي،ابن حزم،طوق الحمامة،ص14 .

سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (470هـ)

صاحب هذه السيرة هو المؤيد في الدين (ت سنة 470هـ) واسمه هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي، ولد في شيراز عام 390ه ، والمعلومات عن شخصيته ونشأته قليلة "لأن المؤرخين وأصحاب كتب التراجم أغفلوا الحديث عن هذا الداعية الخطير مع أنهم ترجموا لمن هو أقل من المؤيد شأنا سواء في الأدب أم في تاريخ الفكر الإسلامي السياسي"(1) . ولعل هذا الأمر عائد إلى أمور مذهبية .

وعلى غير عادة أصحاب السير الذاتية لم يحدثنا المؤيد في سيرته عن نشأته وطفولته وأساتذته وشيوخه "فقد كان رجلا يدين بالستر لم يشأ أن يزيح الستر عن شيوخه الذين أخذ عنهم ، ولا عن الدعاة الذين اتصلوا به واخذوا عنه" (2) .

وهذا يجعل سيرته الذاتية ناقصة، وتتناول جانبا من حياته وهو الجانب السياسي، ويذهب الباحث إلى ما ذهب إليه محقق الكتاب من أن المؤيد عندما بدأ كتابة سيرته لم يشأ أن يكتب ترجمة حياته، وإنما أراد أن يؤرخ في ما حدث بينه وبين الملك أبي كاليجار، لكن الأمور توسعت في سرد الحوادث والاستقرار بتفاصيلها،فكتب بذلك جزءا هاما من حياته. ودافع المؤيد في الدين لكتابة هذه السيرة أوضحه في مقدمته لسيرته فقد أراد أن يقف الناس على جهوده في إدخال أبي كاليجار البيهولي في العقيدة الفاطمية، ولهذا صنفها إحسان عباس ضمن الصنف الذي كتب للتفسير والتعليل والتبرير .

"ولكنه على أي حال أراد أن لايدع التاريخ يغفل فيه دوره، وهو هام في رأيه،وأن يطلع الناس على حقائق، لولاه لظلت مستورة للأبد"(3). وصف المؤيد كثيراً من معاناته وخلقه النفسي "فلما كان يوم الجمعة سمعت في منزلي ما لم أشبهه إلا بنفخ الصور حقيقةً، وما حسبت إلا أن السيوف تأخذني من أقطاري، والنار تحرق إلى جوانب داري، وقعت مستسلما لأمر الله سبحانه وحكمه " (4).

ويصف في موضوع أخر معاناته في رحلة الهروب من شيراز إلى مصر فيقول: "وعملت على تنكير الزي والهيئة والدخول في أطمار رثة ، واستتبعت غلامين مجهولين،

1)المؤيد ،هبة الله الشيرازي ،سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة،ت حسن كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة 1949،مقدمة المحقق ص12.

2) المصدر السابق،ص13.

3) عباس ،إحسان ،فن السيرة ص120.

4) المؤيد ،هبة الله الشيرازي ،سيرة المؤيد ص63-64.

وسلكت في بعض المجاهل من الطرق، أكتري من مرحلة إلى مرحلة حمارا أركبه، أو جملا أو ثورا، على حسب ما يتفق، وأتحمل في خلال ذلك من مشقة المشي وخوض الأودية والوحول، والصبر على مضض البرد والنزول على المواضع القذرة ما يكون الموت عند دائه شافيا... وكنت أحل في صوب الطريق بأقوام من الزيافة وأهل السواد فأسمعهم يذكرونني من القبيح بما أعلم أنهم لو شعروا بي لكانوا يتطهرون بدمي ويصلون، وحسبك بمن يقطع الطرقات هذه سبيلها ويسمع بنفسه في نفسه مثل تلك العظائم" (1).

وأما أسلوب المؤيد،في سيرته،فيقوم على سرد الأحداث،الذي يقطعه بعض الأحيان الحوار، وإيراد كثير من الشعر والمناظرات والرسائل، ولغته ليست سهلة ويغلب عليها السجع المتكلف، والذي كان سمة عصره "وأسلوبه في سيرته غير سهل ولا سائغ، وهو يعتمد السجع الذي أنكره على أبي العلاء ، في بعض رسائله"(2).

وتكمن قيمة سيرة المؤيد في كونها من أول ما كتب في السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ، كما عدها بعض النقاد من أقرب التراجم الذاتية إلى الترجمة الذاتية الأدبية بمعناها الحديث؛ لما يتوفر فيها من عوامل وسمات السيرة الذاتية " وكلها من العوامل التي تحقق المتعة الأدبية، وتثير التعاطف الوجداني بين كاتب الترجمة الذاتية وبين متلقيها، ويدعوه إلى المشاركة القوية في عديد من تجاربه وخواطره ومشاعره وانفعالاته. على أنه مما يقلل من هذه المتعة في السيرة الذاتية، التي كتبها المؤيد، ما كان يعمد إليه من محسنات لفظية وأسجاع ومجانسة، وصنعة وتكلف، تجهد الذهن وتثقل حركته، وما أثبته فيها من رسائل كثيرة متبادلة بينه وبين الآخرين، فقط كانت تقطع السرد، وتبعد بنا عن ذاته" (3).

بقي أن نقول إن هذه السيرة تعد من أغرب السير" وغرابة هذه السيرة أنها الجزء الظاهر من جبل الثلج المختفي تحت الماء، وهو الجزء المستور في طرق عمل دعاة الإسماعيلية، وكيف كانوا يحيكون المؤامرات سرا في سبيل دعوتهم" [4] .

---

1) المؤيد ،هبة الله الشيرازي ،سيرة المؤيد، ص 69 .
2) عباس،إحسان،فن السيرة ص120.
3) عبد الدايم ،يحيى ،الترجمة الذاتية في الأدب العربي ،ص 39-40.
4) نبيل ، مصطفى ، سيرة ذاتية عربية من أبن سينا حتى علي باشا مبارك ، دار الهلال،مصر1992، ص10.

المنقذ من الضلال أبو حامد الغزالي (505هـ)

ولد أبو حامد الغزالي عام (450هـ - 1058م) في طوس إحدى مدن خراسان وكان والده فقيرا صالحا، وتوفي ولا يزال أبو حامد صغيرا، قرأ الغزالي في صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الرثكاني الطوسي، وقد كان أستاذه الأول بها يوسف النساخ، الذي صار فيما بعد إماما للحرمين .

وبرع الغزالي " في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه، وساد في شبيبته حتى إنه درس بالنظامية ببغداد في سنة أربعمائة وثمانين، وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عند رؤوس العلماء، وكان ممن حضر عنده أبو الخطاب،وابن عقيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه ، قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مصنفاتهم، ثم إنه خرج عن الدنيا بالكلية وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة ، وكان يرتزق من النسخ ، ورحل إلى الشام فأقام بها بدمشق وبيت المقدس مدة ، وصنف في هذه المدة كتاب إحياء علوم الدين، وهو كتاب عجيب يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء تصيبه من التصوف وأعمال القلوب ...ثم أكرمه بعض الوزراء بالخروج إلى نيسابور، فدرس بنظاميتها، ثم عاد إلى بلده طوس، فأقام بها، وابتنى رباطا ، واتخذ دارا حسنة، وغرس فيها بستانا أنيقا ، وأقبل على تلاوة القرآن وحفظ أحاديث الصحاح" (1). وتوفي الغزالي سنة (505هـ) ودفن بطوس. عندما عاد أبو حامد الغزالي في أواخر أيامه إلى وطنه وأشتغل بالتدريس في نيسابور.

وكتب كتابه المنقذ من الضلال يصف فيه سيرته العقلية التي أوصلته إلى الحق واليقين وهو يصور الصراع الروحي الذي عاناه الجانب الروحي، لذا لم يعتبره بعض النقاد سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق (2).

ولكن " يذهب الأروبيون إلى تسمية كتابه "المنقذ من الضلال" بـــ " اعترافات الغزالي". وفي هذه التسمية إشارة واضحة المعالم لفن السيرة الذاتية في هذا الكتاب الرائد"(3).

إن هذه الاعترافات التي جاءت بعد رحلة الشك العقلي، أوصلت إلى الإيمان التسليمي،وما

---

1)ابن كثير،البداية والنهاية ،م6 ،ج 12،ص 662-663.
2) عباس ، إحسان ،فن السيرة ،ص 126.

3) ضيف ،شوقي، الترجمة الذاتية ،ص102.

امتازت به من عمق الحقيقة والصراحة والعبقرية النفسية تقربها من السيرة الذاتية ، وكل هذا تجلى بدقة الرسم والتصوير والتعبير عن هذه الأزمة الروحية التي كان يعيشها ، انظر إليه وهو يقول " ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسئن ومبدع لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا واجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأرصد ما يرجع إليه حاصل عبادته. ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وكان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد شرة الصبا" [1].

ويصور لنا الغزالي في كل مرحلة من مراحل سيرته أدوار الشك التي مر بها،ومن ذلك قوله " فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي يكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثل من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، لم يورث هذا شكا و إنكارا، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه إلى التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته فلا .

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني " [2].

---

1) الغزالي محمد ،المنقذ من الضلال،تقديم وتحقيق وتعليق محمد مصطفى ومحمد محمد جابر ،مكتبة الجندي،مصر. (د.ت) ،ص24-25.

2) المصدر السابق، ص26-27.

ووصل الشك بالغزالي حدا أخذ يشك فيه بالمحسوسات بل في أقوى الحواس حاسة البصر " فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا"[(2)].

وبعد ثورة الشك العنيفة ينطلق الغزالي باحثا عن الحقيقة في شتى الفرق وفي شتى العلوم ، ويبدأ البحث عند أهل علم الكلام ثم أهل الفلسفة ، ثم الباطنية ، ثم التعرف الذي يجد فيه ضالته " إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا "[(3)].

ونصل مع الغزالي إلى النهاية حيث " تنتهي رحلة الغزالي العقلية ، فقد تخلص عقله من الأبحاث الملتوية التي تعمقها المتكلمون والمتفلسفة والباطنية ، ووجد خلاصه أخيرا في بيئة المتصوفة ، حيث يتحول الشعور الديني إلى تجربة ذاتية قلبية ، تدرك بالذوق لا بالعقل " [(4)] .

1) الغزالي محمد ،المنقذ من الضلال ، ص 27-29 .
2) المصدر السابق ،ص75.

3) ضيف ،شوقي ،الترجمة الشخصية ،ص 75.

النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية عمارة اليمني (527 هـ)

صاحب هذا الكتاب هو "عمارة بن أبي الحسن ابن زيدان الحكمي من قحطان ، أبو محمد الملقب بنجم الدين اليمني الفقيه الشاعر " [1] .

ومعظم كتب التراجم تركز في ترجمته على سبب مقتله وهو اشتراكه في مؤامرة مع من كانوا حكاماً وأعياناً أيام الدولة الفاطمية لإعادة الدولة الفاطمية، وكاتبوا من أجل ذلك الإفرنج، وتكشف المؤامرة ويتم إعدام المتآمرين والذي كان من بينهم الشاعر عمارة اليمني " [2] .

وعنوان كتابه " النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " عنوان خادع ولا يدل على حقيقته، كما يقول شوقي ضيف:"فهو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء وإنما هو في أخباره هو نفسه ، وبعبارة أدق هو ترجمة ذاتية له " [3] .

يبدأ عمارة كتابه محاولا أن يبين ماهيته فيقول:" وبعد فهذا مجموع لم أقصد به شيئا مخصوصا، ولا فنا منصوصا، بل ذكرت فيه نبذا من الأخبار مختلفة المقاصد ، متباينة المراصد، ولم أورد فيه إلا ما أملاه الخاطر، أو أورده من أقيمهم في الصدق مقام الناظر، وبالله التوفيق، وأشرت فيه إلى النكت العصرية، في أخبار الوزراء المصرية "[4].

ويتضح مما سبق أنه لم يكن يعي فن السيرة الذاتية ؛ لذلك لم يستطع أن يحدد الفن الذي يصنف كتابه تحته (لم أقصد به شيئا مخصوصا، ولا فنا منصوصا).

ويحاول بعد ذلك أن يبين منهجه في الكتابة فيقول:" وتجنبت سجع المتكلفين ، وفارقت ذلة المتخلفين ، وأطلقت أعنة الكلام وسامحت أسنة الأقلام ، فلا في سهل الهزالة أنا حاطب، ولا في حزل الجزالة أنا خاطب ، وأشرت فيه إلى ما شاهدتم من العجائب العصرية ، في أخبار الوزراء المصرية ، من غير إفراط في أوصافهم، ولا تفريط في إنصافهم،وإن تخلل ذلك شيء ليس منه فبالعرض فأصله لا بالغرض ، والحديث كما قيل الشجون ، والجلد قد يخلط بالمجون "[5] .

---

1) ابن كثير ،البداية والنهاية م 6، ج2 ،ص795 .
2) المرجع السابق ،ص795-796
3) ضيف ،شوقي ،الترجمة الشخصية ،ص91،
4) اليمني ،عمارة ،النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ،ت هيرتويغ درن برغ ،مطبعة مرسو ، شالون 1897م ،ص5-6.
5) المصدر السابق ،ص6-7.

ولهذا أمتاز أسلوبه في سيرته الذاتية بالبعد عن السجع المتكلف، فجاءت عباراته سهلة واضحة وسلسة ، ومع هذا حافظت على جزالتها (فلا في سهل الهزالة أنا حاطب ، ولا في حزل الجزالة أنا خاطب) واتسمت ترجمته بالصدق والإنصاف فيما كتب عن نفسه أو عن غيره، ويقوم أسلوب عمارة في هذه السيرة على سرد الأحداث وتكثيفها وعرضها بشكل مختصر وجمل قليلة موجزة .

ويبدأ بذكر نسبه فهو قحطاني من تهامة اليمن من مدينة يقال لها مرطان ، ويبين أن أهلها بقية العرب في تهامة " لأنهم لا يساكنهم حضري ولا يناكحونه ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قودا بأحد منهم، ولذلك سلمت لقتلهم من الفساد " ويذكر عمارة ما سبق في نوع من نباهي وثقافة أهل السويد على أهل الحضر وأنهم أهل الصقة الصافية .

وكان أجداده سادة القوم ، ومنهم العلماء والمصنفون، ويركز في حديثه على نسبه على عمه علي وصفاته والذي يبدو أنه قدوة شاعرنا، وتظهر أبعاد إنسانية واجتماعية عند حديثه عن عمه فيعكس النظام الإقطاعي الذي كان سائدا وإن كان يخلو من الاستبداد ، ويظهر نظام التكافل الاجتماعي .

ويتحدث بعد ذلك عن رحلته إلى زبيد للتعلم، وينطلق بالتجارة ويبدأ قول الشعر ، ويصل بملوك اليمن، وحج (سنة 549هـ) فبعث به صاحب مكة رسولا إلى الفطائز خليفة مصر الفاطمي ووصلها(سنة 550هـ)، وكان الوزير بها طلائع بن رزيك، فاستقبله بقاعة الذهب بقصر الخليفة، وينشده قصائد في مدحه ومدح الخليفة،فتنهال عليه الأعطيات والهدايا و" يتحول الكتاب من هذا الموضع إلى مذكرات سياسية قيمة فيصور لنا أحوال مصر ومجالسها الأدبية [1]. ويستقر عمارة في مصر رغم أحداثها السياسية العاصفة تلك الأحداث التي تنعكس على السيرة الذاتية لعمارة.

---

1) ضيف، شوقي ،الترجمة الشخصية ،ص 92.

الاعتبار : أسامة بن منقذ (488هـ-584هـ).

يعد كتاب " الاعتبار" لأسامة بن منقذ من أهم السير الذاتية في الأدب العربي القديم وأنضجها . ويقع الكتاب في الأصل في ثلاثة أقسام :[1]

فالقسم الأول الذي يحفل بأخبار الوقعات والمصافات والحروب، هو أغناها وأكثرها قيمة وأجدرها بالمراجعة .

والقسم الثاني يتعلق بأخبار الصيد والقنص والجوارح وهو قسم حافل مثير أيضا حكا فيه أسامه حكايات مشاهد الصيد التي حظرها .

والقسم الثالث ملحق بالكتاب، فيه طرف من أخبار الصالحين ألحقت بالكتاب إلحاقا، فليس لها صلة به ولا بموضوعه .

ويرى الأشتر أن وقوع " الملحق ، في الطبعة الأصل ، بين أخبار القسم الأول والقسم الثاني من الكتاب. وهو وضع لا يقره المنطق، وينكره كلام أسامة نفسه في أول الملحق، فهو صريح في النص على إلحاقه بالكتاب. ونحسب أن الناسخ الذي نسخ الكتاب، في الأصل، أخطأ فيه ، أو استهان باختيار موضعه منه "[2].

ويبدو أن أسامة كتب كتابه هذا وقد بلغ التسعين، ويفهم هذا من قوله في كتاب الاعتبار:" فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطأ، ولا يؤخره الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت الأهوال والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح ومرحت بالسهام والجروح ، وأنا من الأجل في حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين "[3] .

فأخذ أسامة – وقد بلغ من الكبر عتيا – يسترجع ذكريات حياته الحافلة بالتجارب والمغامرات والبطولات من أجل استخلاص العبرة منها، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب بـــ " الاعتبار " .

وقد صور أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار صور البطولة والفروسية أمام الصليبين، وصور كذلك جوانب عديدة من حياة المسلمين في ذلك العصر،ولم يكتف بذلك،

1) الأشتر،عبد الكريم،من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ الكيناني،منشورات وزارة الثقافة،دمشق 1980، ص10-11.
2) المصدر السابق ،ص 11.

3) المصدر السابق ،ص 284.

بل تعداه إلى تصوير حياة الصليبيين أنفسهم وكل ذلك جاء بدقة وأمانة قل مثيلها (تعكس شخصية الفارس الحقيقي الذي ينصف حتى أعداءه) " وفي مجمل معاملاته مع أصدقائه وأخصامه يدهشنا هذا الرجل بميله للنصفة والعدالة " [1].

والكتاب " في جملته يصور حياة أسامة في نشأته واختباراته الحربية، وشجاعته في محاربة الإنسان والحيوان، وفيه دراسة لبعض الطبائع والنفسيات بين الرجال والنساء من المسلمين والصليبيين "[2].

والكتاب يعد وثيقة تاريخية واجتماعية ونفسيه تعكس حقبة من الزمن تداخلت فيها حضارتان، فرسم الكتاب صورة للمجتمع في تلك الفترة ووصف أحوال الحياة والناس والعادات والتقاليد، ورسم كذلك صورة الصراع بين المسلمين والصليبيين فبدا الكتاب وثيقة حية من وثائق الحروب الصليبية، فأسامة لم يكن يعبأ بأخبار المعارك والتأريخ لها ، على نحو ما نعرف في الكتب التي أرخت لها، ولكنه كان يصور حياة الناس التي تجري تحت سطح هذه الأحداث الذاتية، ويقف عند الصور العميقة المؤثرة منها، وما كان يقع لهم داخل بيوتهم، وفي مواطن جدهم ولهوهم، وما كانوا يقولونه لأنفسهم وهم يواجهون الموت " [3].

ويرى بعض النقاد أن امتياز سيرة أسامة الذاتية بشيء من التاريخ، وعلم النفس ، والاجتماع، والبيئة، وطبائع الحيوان " لم يأت ضمن الإطار الذي تتداخل فيه السيرة الذاتية مع غيرها من الفنون، لأن السيرة الذاتية عندما تتداخل مع التاريخ، تطوع الخبر التاريخي بحيث يدخل في نسيجها الفني، ويفقد طابعه التاريخي، وكذلك يحدث بالفنون الأخرى التي تتداخل معها، وهذا الشيء لم يحدث في كتاب أسامة، حيث جاءت الأخبار المتعلقة بسيرته على شكل حكايات قصيرة،تتخللها حكايات أخرى عن العرب، والصليبيين وطبائعهم وغير ذلك من الحكايات" [4].

وهذا الكلام صحيح لحد كبير، ولكن لا يمكن لكاتب السيرة الذاتية أن ينفصل عن الأحداث والبيئة الاجتماعية التي عاشها خاصة إذا ما كان يعيش في خضم هذه الأحداث، بل هو

---

1) ابن منقذ ،أسامه،الاعتبار،ت فيليب حتي،م جامعة برنستون ،الولايات المتحدة،1930،مقدمة المحرر،ص ش.
2) عباس ، إحسان ،فن السيرة ،ص128.
3) الأشتر،عبد الكريم،من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ الكيناني، ص9.

4) شاكر، تهاني ،السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم،ص57.

جزء منها يساهم في صنعها، كما حدث مع أسامة، ولا ننسى كذلك أن القسم الثالث من الكتاب، والذي يتحدث عن أخبار الصالحين، ألحق بالكتاب إلحاقا وليس له صلة به و بموضوعه .

ولعل أفضل ما جاء في الكتاب تلك الأخبار والطرائف التي شاهدها وكتبها عن الإفرنج والتي تعكس بعض عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، كما تعكس مدى تخلفهم عن المجتمع الإسلامي في شتى المجالات الاجتماعية والعلمية والطبية خاصة، فقد روى كثيرا من النوادر الطبية التي تبين مدى جهلهم وتخلفهم في مجال الطب، ومن هذه النوادر قوله: "ومن عجيب طبهم أن صاحب قنطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له " ما أسرع ما داويت المرضى! " قال " أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدمل وصرحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها .فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شي يداويهم . وقال للفارس " أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ ". فحظر الفارس والفأس، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس " أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة أقطعها "، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحده ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرآة فقال " هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها " ، فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف، فقال " الشيطان قد دخل في رأسها"، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها، فقلت لهم " بقي لكم إليّ حاجة ؟ قالوا "لا" ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه " [1].

ومما ذكره ابن منقذ من نوادر الإفرنج وصفاتهم انعدام النخوة والغيرة عندهم وقد ذكر قصصا أثارت استغرابه ودهشته ومن ذلك: أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له: سالم، من أهل المعرة، في حمام لوالدي، رحمة الله قال :" فتحت حماما في المعرة أتعيش منها. فدخل إليها، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المأزر في الحمام! فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه! فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: سالم ! فتقربت منه ،

1) ابن منقذ ، أسامه ، الاعتبار ،ص 132-133.

فمد يده على عانتي وقال: سالم جيد! وحق ديني أعمل لي كذا ! واستلقى على ظهره ، وله مثل لحيته في ذلك الموضع ! فحلقته ، فمر يده عليه فستوطأه فقال : سالم ! بحق دينك أعمل لداما (والداما بلسانهم :الست) يعني امرأته : وقال لغلام له: قل لداما تجيء ! فمضى الغلام وأحضرها وأدخلها فاستلقت على ظهرها ! وقال: أعمل كما عملت لي! فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني! فشكرني ووهبني حق خدمتي": فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم! ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ! وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة " [1].

وهذا التبلد في الإحساس وانعدام الغيرة ما زال طبعا فيهم إلى يومنا هذا ، ولكن الذي أثار دهشتي في هذا الخبر هو كيف يسمح المسلمون للنساء بدخول حمام الرجال ؟! وكيف يسمح المسلم لنفسه بالاطلاع على عورات الآخرين وخاصة النساء؟!.

ومما يلفت النظر في هذا الخبر إنصاف ابن منقذ للإفرنج حتى وهو يذمهم (ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة !).

لقد روى أسامة ابن منقذ هذه الذكريات، وهذه الأخبار والطرائف والعبر بأسلوب سهل وبسيط ، وباللغة المحكية والدارجة في ذلك الوقت " ولا يبرز الكتاب قوة الصراع من الناحية الفكرية ، إلا أنه حاول أن يستخرج العبرة من الأحداث نفسها " [2].

ويعتمد ابن منقذ في كتابه الاعتبار على الأسلوب القصصي والحوار، ويعرض الأحداث ويسردها في صورة أدبية قصصية، وينقل لنا ما طرأ على شخصيته في مراحلها المختلفة ، من تحول وتطور رغم أنه لم يكتب بشكل منسق على الزمن .

وكتاب الاعتبار " طرفة بديعة لما يحوي من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره، وهي مذكرات نفيسة ويزيد في نفاستها أن أكثر ما دون فيها مما خبره بنفسه، وشاهد بنفسه "[3].

1) الأشتر،عبد الكريم،من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ الكيناني،ص236-237.
2) عباس ،إحسان ،فن السيرة،ص 128.
3) ضيف ،شوقي ،الترجمة الشخصية ،ص99.

"التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا "   عبد الرحمن بن خلدون (808هـ)

ذيل ابن خلدون كتابه المشهور في التاريخ بهذه السيرة الذاتية ، والتي سماها بـ " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا "، لا يخفى على أحد شهرة ابن خلدون ، فهو من أكبر مؤرخي العرب والمسلمين ، وشخصية سياسية متميزة عايش الملوك والسلاطين، وتولى المناصب الرفيعة، وطاف أرجاء البلدان، ودرس العلوم المختلفة، وجاءت حياة ابن خلدون حافلة بالأحداث متقلبة مضطربة وما هذا إلا انعكاس للعصر الذي عاش فيه،والذي كانت تمزق دوله الفتن والثورات والحروب .

يستفتح ابن خلدون كتابه ببيان نسبه فيقول :" وأصل هذا البيت من أسيلة ، أنتقل سلفنا عند – الجلاء وغلب ملك الجلاقة ابن إدفونش عليها– إلى تونس في أواسط المائة السابعة ... ونسبنا حضرموت، من عرب اليمن إلى أوال بن حجر من أقيال العرب، معروف وله صحبه "[1].

ثم يتحدث عن أسلافه في الأندلس ودورهم في الأحداث المختلفة، ثم أسلافه في إفريقيا، ثم يصل بنا استقرار والده بتونس ، ثم يسهم في الحديث عن نشأته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلوم المختلفة من حديث وقراءات ونحو وفقه وأدب وعلوم وعقلية ونقليه، والذين خدمهم من ملوك وسلاطين زمانه، ويتحدث عن رحلاته من تونس إلى الأندلس، ثم رجوعه إلى أفريقيا وسفره إلى الإسكندرية. وإقامته في القاهرة، ثم لقائه تيمورلنك ورجوعه عنه إلى مصر وتوليه القضاء بمصر مرة ثالثة ورابعة وخامسة .

والكتاب بمجمله سجل تاريخي حافل بالأحداث ، وحس المؤرخ وشخصيته بارزة في الكتاب؛ لذا يكاد يخلو من الأسلوب الأدبي والفن القصصي، والكتاب صورة صادقة عن نفسه، لذا هو مفيد لمن أراد أن يتعرف على شخصية ابن خلدون، وهو مفيد أيضاً لمن يبحث عن الحقائق التاريخية، " وعلى هذا النحو أتيح لابن خلدون أن يرى أكثر العالم الإسلامي العربي لعصره، وأن يشارك في شؤونه السياسية شرقا وغربا وليس هذا الكتاب الذي ضمنه التعريف به وبرحلاته إلا مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التي ألم بها وكل ما كان يجري بها من شؤون سياسية واجتماعية .

---

1) ابن خلدون،عبد الرحمن،التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ،منشورات ،بيروت 1979،ص3-4.

وستظل هذه التعريف به وبرحلاته إلا مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التي ألم بها وكل ما كان يجري بها من شؤون سياسية واجتماعية. وستظل هذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التي دونت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام لعصره"[(1)].

ويبدو أن دافع ابن خلدون إلى كتابة هذه السيرة الذاتية هو الإنصاف لنفسه، وتصوير شهرته العريضة "ولكن وراء كل ذلك غاية من التبرير والتفسير، فقد اتهم ابن خلدون بأنه شارك في بعض الانقلابات، لما كان في الأندلس، اخذ يتنكر له الناس حتى صديقه لسان الدين بن الخطيب، ولما كان في مصر ولي القضاء وعزل عنه عدة مرات حتى ليظن الناظر إلى هذا التقلب في حياته ، أن العيب في شخصه لا فيمن حوله ، فكتب سيرته منتصفاً لنفسه ، وأبان عن وجه الحقيقة كما كان يراه ، ولم تخل سيرته من غرض أخر ، هو تصوير تلك الشهرة العريضة ، والمنزلة الرفيعة التي نالها في الحياة السياسية والاجتماعية "[(2)] .

لقد كتب ابن خلدون سيرته على شكل أخبار تاريخية لا تعكس الأحاسيس النفسية والداخلية له " فكأن الغاية الرئيسة مما كتبه عن نفسه، أن يثبت الوقائع التي ذكرها في تاريخه. ولهذا لم يخرج تعريفه بنفسه عن نطاق التاريخ إلا في مواقف قليلة جدا كالتي اشرنا إليها سابقا من ذكره القضاء يومئذ وفساده بشفاعات أهل الشوكة والسلطان ، وكذكره خروجه في الكتابة عن الطريقة المتبعة يومئذ ، وهي طريقة السجع والبديع إلى طريقة جديدة "[(3)] .

ولعل هذا كله يؤكد ما ذهب إليه إحسان عباس وهو ضعف الإحساس بالصراع عند ابن خلدون، والذي خلف الفن" فإن طبيعة الاستسلام أغلب على هذا اللون من الأدب، حتى عند أصلب شخصياته، وأشدها تمرسا بالمصاعب،وهي طبيعة يمثلها ابن خلدون لنفسه، على صلابة عوده،لأنه إذا واجه المشكلة تنحى عنها لتمر، أو اختار الهجرة لئلا يضعف إزاءها، وهو يعزل ثم يولى ثم يعزل ثم يولى، ويتقبل هذه الأمور كأنها أحداث تجري بمعزل عنه وعن تفكيره وتقديره؛ ويغرق أهله جميعا في سفينة قادمة من تونس ،

---

1) ضيف،شوقي ،الترجمة الشخصية،ص 104 .
2)عباس،إحسان،فن السيرة،ص123 .
3)المقدسي،أنيس ،الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة،ص 557.

فإذا جوابه على هذه الفاجعة أنه يريد زيارة مكة ليتعزى عن من فقدهم.ومعنى هذا أن الإحساس بالصراع الذي يخلق الفن ، ضعيف في تلك السيرة الذاتية، أما الصراع نفسه ، فحاضر في كل مرحلة من مراحل الحياة "[1].

وعنايته بالكتابة التاريخية أيضا قللت من المتعة الأدبية لسيرته الذاتية ؛ لأنها "تخرج عن الواقع الذاتي لابن خلدون حين نراه يتناول أحداثا وشخصيات خارجية تناولا يدعوه إلى كثير من الاستطرادات والتفصيلات، وحين يعمل إلى إثبات رسائل وأشعار مطولة له وللآخرين "[2].

1)عباس،إحسان،فن السيرة،ص 111.

2) عبد الغني حسن،محمد،التراجم والسير ،ص 40.

" لطائف المنن والأخلاق "   عبد الوهاب الشعراني (ت سنة 973هـ)

صاحب السيرة الذاتية هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمد ابن الحنفية، الشعراني أبو محمد، ولد في قلقشندة بمصر سنة 898هـ ، ونشأ بساقية أبي شعره من قرى المنوفية وإليها نسبته الشعراني. ويحدثنا عن نفسه في الباب الأول من كتابه قائلا:" وفيه من النعم نعمة شرف نسبي لكوني من ذرية الإمام محمد بن الحنيفة، ثم حفظي القرآن العظيم وأنا في سن التمييز ، ومواظبتي على الصلوات الخمس في أوقاتها من حين كان عمري ثماني سنين، فلا أتذكر أني أخرت الصلاة عن وقتها عمدا إلى وقتي هذا،ثم حفظي من الآفات وأنا يتيم من الأبوين، وتسخير التسامح لي حين غرقت في بحر النيل ، فوقفت تحت رجلي حتى استرحت وعمت، ثم مهاجرتي من بلاد الريف إلى مصر لقراءة العلم، ثم حفظي لمتون كتب العلم التي لم يحفظها أحد من أهل عصري "[1].

ويسهب الشعراني بعد ذلك في ذكر المنن والأخلاق التي منّ الله بها عليه ، ويطول ذكر هذه المنن والأخلاق، فينوء بحملها مجلد ضخم بلغت صفحاته ثمانمائة وثلاثا وأربعين صفحة مما يصيب قارئها بالكلل والملل، وقد رتب الشعراني كتابه على مقدمة وستة عشر بابا وخاتمة. ويبين الشعراني في مقدمته دوافعه إلى كتابة هذا الكتاب ، وذكره هذه المنن والأخلاق ؛ ليقتدي به إخوانه ، ويتخلقوا بهذه الأخلاق ، وليدوم ذكره لله – بعد موته – مدة بقاء الكتاب، وليعلم أهل عصره بدرجته في العلم والعمل، وليغني من يريد ذكر مناقبه عن البحث عنها والتتبع لها، أما الدافع الأخير ، فهو اقتداؤه بمن سبقه بالحديث عن نفسه من السلف الصالح .

وقد تحدث عنها عبد الرحمن بدوي فقال:" ترجمة من النوع الممتاز، لها قيمتها الكبرى ونعنى بها" لطائف المنن والأخلاق " لعبد الوهاب الشعراني (المتوفى سنة973) ، ففي هذه الترجمة الشخصية البديعة يقدم لنا الشعراني صورة رائعة من كتب " المناقب " المشهورة عند الصوفية. ومع هذا فإن المؤلف لم يقصد به التمدح والإشادة بنفسه ، وإنما أراد به أن يكون تعبيرا قويا عن عاطفة الشكر التي امتلأ بها نحو الله الذي منّ عليه بكل هذه النعم وتفضل"[2].

1) الشعراني،عبد الوهاب،لطائف المنن والأخلاق،تحقيق:أحمد عزّو عنابه،ط1دار التقوى،دمشق،2004ص16.

2) بدوي،عبد الرحمن،الموت والعبقرية،ص126.

والحقيقة أن سيرة الشعراني الذاتية رغم أسلوبها السهل الواضح ، وتصويرها جوانب مختلفة من شخصية الشعراني إلا أنه اعترتها كثير من العيوب قللت من المتعة الأدبية فيها " ولولا ما فيها من استطراد وتكرار وشطحات، وتقطع في السرد القصصي يجعل الصياغة غير مترابطة ، لكانت " لطائف المنن " للشعراني ، أوفي ترجمة ذاتية في التراث العربي، وأغناها بالتجارب الإنسانية "[1].

والصورة التي رسمها الشعراني لنفسه في سيرته الذاتية هي صورة غاية في المثالية والتي لا يمكن تحققها إلا في عالم الخيال " ولو حاولنا أن نرسم صورة للشعراني من خلال أخلاقه التي ذكرها في كتابه، فأننا لن نستطيع أن نرسم إلا صورة ملاك"[2] .

1) عبد الدايم يحيى،الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص40.

2) شاكر تهاني،السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص66.

ملامح السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

بعد أن وقفنا على أهم السير الذاتية في الأدب العربي القديم، وعرفنا مضامينها وسماتها الفنية، لابد من وقفة مع ملاحظات على هذه السيرة تبين وتبرز أهم ملامحها.

وقد راعينا في هذا كله أننا عند تعاملنا مع هذه السير الذاتية يجب عدم عزلها عن عصرها؛ لأنها تمثل الزمن الذي كتبت فيه، ولها ظروفها ومعطياتها وفلسفتها ورؤيتها التي تعكس عصرها وبنيتها الاجتماعية والحضارية وتمثله، ولذلك من الشطط والتعسف أن تحاكم النصوص الأدبية بمعزل عن عصرها وكيانها التاريخي، ولا نفهم من هذا الحديث أنها تعتمد عدم صلاحية تراثنا الأدبي القديم لهذا العصر، فالعمل الأدبي المبدع والخلاق يصلح لكل زمان ومكان بما يحمله من قيم عالمية وفنية بل الأهم من هذا وذاك القيم الإنسانية التي تعطي العمل الأدبي صفة الخلود .

ولا يخفى على أحد أن البحث التأصيلي لأي جنس أدبي هو ضرورة علمية ليتبع خواطر الأدب وتطورها ومتابعة سير نموها ونضجها.وقراءة نصوص السيرة الذاتية القديمة قراءة نقدية واعية هو تجديد لفاعليتها الأدبية والتاريخية وإعادة الألق والحياة لها، وكذلك تعمل على تجاوزها بغية التصوير والتجديد " إن الثقافة المعاصرة محتاجة إلى الحوار. كيف يتم الحوار بمعزل عن مشاركة النص القديم. النص مثير لعقولنا بحدوده ومطالبه وممكناته. النص يعجز ويقدر. ما الجدل الممكن بين العجز والقدرة، بين ما أعطاه وما لم يعطه. لكننا نفرق أحيانا تفرقة قاسية. إن النص يعطيك شيئا ويحرمك شيئا آخر. هذا قانون الحياة يعرفه الناس جميعا. لكن بعض الدارسين يلذ لهم أن يقفوا عند السلب والعجز. بعض الدارسين يظنون النصوص مسرحا للتعريف بما يشتهون، والتنفير مما لا يشتهون "[1] .

إن أي جنس أدبي يمر بمراحل وأطوار متعددة وعديدة حتى يصل في مراحل نموه إلى الشكل المتكامل والمميز له عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى .

وبعد تتبعنا لتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم لاحظنا أن السيرة الذاتية في بداياتها ظلت متأثرة بكتب السير والتراجم العامة ، ولا يميزها عن غيرها من السير

---

1) ناصف،مصطفى،محاورات مع النثر العربي،سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1997،ص10.

الغيرية وكتب التراجم سوى أن الكاتب يتحدث عن نفسه لا عن غيره ، قد يتحدث عن مولده ونسبه ونشأته وشيوخه ومؤلفاته، فهي لا تمدنا بمراحل نمو الشخصية وصراعها النفسي ولا تقدمها لنا كلا متكاملا. وهذا الجانب من السيرة الذاتية يتضح فيما وصلنا على شكل قطع متناثرة في كتب التراجم ، وكذلك فيما جاء ذيلا على كتب التراجم يترجم فيه الكاتب لنفسه. وحتى لا نتهم بالتعسف ومحاولة لي عنق النصوص لتطويعها لتجعل منها سيرا ذاتية يمكن أن تصنف هذه النصوص تحت مفهوم أوسع وهو " أدب الذات " ويدرج تحت هذا المفهوم الكثير مما عده النقاد سيرا ذاتية ومن هذه السير التي تندرج تحت هذا المفهوم (أدب الذات) ما صنفه إحسان عباس تحت "الصنف المحض" كقصص الجاحظ وأبي حيان والصلاح الصفدي والصابي و الصولي، ويشمل القاضي الفاضل، والعناصر الذاتية في كتب الرحالة، ويشمل كذلك سيرة ابن سينا، وموفق الدين البغدادي، وعلي بن رضوان وغيرهما الكثير .

وهناك صنف من السير كان أكثر تطورا وأكثر رقيا في حديثه عن الذات ، ولكنها لم تتناول الذات بجميع أطوار نموها وبجميع أبعادها النفسية والروحية وإنما صورت جانبا واحدا أو بعض الجوانب واغفلت جوانب أخرى، ومع هذا إلا أنها تعد أكثر قربا من السيرة الذاتية من سابقتها إلا أنها تبقى ضمن دائرة مفهوم " أدب الذات " وهذا لا ينقص من شأنها؛ لأنها تعد خطوة قوية وجريئة من خطوات نمو السيرة الذاتية وتطورها. ومن هذه السير " طوق الحمامة " لابن حزم " ورسالة الصداقة والصديق " ولفتة الكبد " لابن الجوزي ، والمنقذ من الضلال للغزالي ، وسيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ، وسيرة عمارة اليمني النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ولطائف المنن للشعراني .

أما انجح السير في الأدب العربي القديم وأقربها إلى مفهوم السيرة الذاتية الحديث فهي سيرة أسامه بن منقذ الاعتبار ، " ومذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ، أما سيرة ابن خلدون في كتاب " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا " فإنني أجد نفسي في إلحاقها بها رغم أن بعض النقاد عدها من أنضج السير الذاتية القديمة، إلا أنني أرى أنها تقصر عن الاعتبار ومذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ؛ لأن الحس التاريخي للمؤرخ بقي يسيطر على ابن خلدون " يتناول أحداثا وشخصيات خارجية تناولا يدعوه إلى كثير

من الاستطرادات والتفصيلات " [1].

وقد أصاب المقدسي حين قال عن ابن خلدون:" لم يخرج تعريفه بنفسه عن نطاق التاريخ إلا في مواضع قليلة جدا "[2].

وقد لاحظنا أن القدماء لم يكن عندهم وعي بمصطلح السيرة الذاتية ، ولم يتبلور في أذهانهم كجنس أدبي واضح المعالم، وقد لاحظنا ذلك صراحة عند عمارة اليمني في" النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية "، فهو يقول متحدثا عن كتابه :"هذا مجموع لم أقصد به شيئا مخصوصا، ولا فناً منصوصا، بل ذكرت فيه نبذا من الأخبار، مختلفة المقاصد، متباينة المراصد، ولم أورد فيه إلا ما أملاه الخاطر، أو رواه من أقيمة في الصدف مقام الناظر "[3].

وأما دوافع كتابة السيرة الذاتية عند القدماء فتباينت وتعددت ، ومنهم من أفصح عنها، ومنهم من لم يفصح، ولكننا نلمحها ونلحظها من خلال قراءة السيرة الذاتية . وقد صنف إحسان عباس السيرة الذاتية حسب كيانها العام وكذلك حسب دوافعها إلى أربعة أصناف أما الصنف الأول ، فهو " الصنف الإخباري المحض، وهو يضم الحكايات ذات العنصر الشخصي سواء أكانت تسجل تجربة أو خبرا أو مشاهدة، كتلك الحكايات التي يقصها الجاحظ وأبو حيان والصلاح الصفدي والصابي والصولي وغيرهم عن نفوسهم ، وعن الأحداث التي صادفتهم، كما تضم بعض المذكرات التي كتبها صاحبها من أجل الغاية التاريخية، وهذا يشمل جانبا من السيرة التي تحدثت عنها في الفصل الأول، ويشمل " يوميات " القاضي الفاضل، والعناصر الذاتية في كتب الرحالة ، كرحلة ابن جبير والشيخ خالد البلوي وابن رشيد والعبدري،ومجموعة من السير الذاتية مثل سيرة ابن سينا، وموفق الدين البغدادي، وعلي بن رضوان الطبيب المصري، وهم كل واحد من هؤلاء أن يعرف الناس أين نشأ، وكيف تعلم،وكيف كانت قابليته للعلم، ومن شيوخه، وما هي الكتب التي ألفها، والبلاد التي زارها متنقلا" [4] .

أما الصنف الثاني فهو ما "يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير، ومن هذا

---

1) عبد الدايم ،يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،ص 40.
2) المقدسي ، أنيس ، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، ص 557 .
3) اليمني، عمارة ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ص 5-6.
4) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 114-115.

النوع سيرة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وسيرة ابن خلدون، ومذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة، وكل واحد من هؤلاء كانت تكتنفه ظروف مضطربة فيها مجال للأخذ والرد والقيل والقال، فكتبوا سيرهم ليصنفوا أنفسهم أمام التاريخ،وليبرروا ما جرى لهم من زاوية ذاتية "[1].

وأما الصنف الثالث فهو الذي" يصور الصراع الروحي، وهو ملموح في سيرة ابن الهيثم ، وفي بعض ما كتبه المحاسبي في " كتاب النصائح " وواضح في " المنقذ من الضلال " للغزالي .

وأما الصنف الرابع والأخير، فأهم ما يتسم به أنه " يقص قصة المغامرات في الحياة،وما يلاقيه المرء من تجارب،وليس لدينا من هذا الصنف سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ولكن من أقرب النماذج إليها،مذكرات أسامة بن منقذ سماها " كتاب الاعتبار " "[2]

ويرى بعض النقاد أن إحسان عباس وقع في بعض الإشكاليات عند هذا التصنيف، ويتضح ذلك في توزيع السير الذاتية على هذه الأصناف الأربعة، " فمن ذلك مثلا أننا لا نرى سببا يوجب إشارة الباحث إلى بعض ما أورده ياقوت الحموي في معجمه إشارة تخصيص، والحال أن الآثار المذكورة تنتمي إلى الصنف الإخباري المحض، أول أصناف القائمة، كذلك لا نفهم من معالجة إحسان عباس لرسالة حنين بن إسحاق التي تحدث فيها عن المحن التي أصابته في أي الأصناف الأربعة يحسن بنا إدراجه "[3] .

وقد تبع إحسان عباس في هذا التصنيف للدوافع معظم النقاد الذين تلوه، ويبدو هذا الأثر واضحا عند يحيى عبد الدايم، فقسم السير تبعا لحوافزها إلى تبريرية،والرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة، والتخفف من ثورة وانفعال،وتصوير الحياة المثالية،وتصوير الحياة الفكرية، والرغبة في استرجاع الذكريات [4].

إن كثرة هذه التصنيفات وتعددها نتيجة حتمية للكتابات الذاتية في الأدب العربي القديم والتي لم تقتصر على موضوع واحد،وتعددت أصنافها ودوافعها وتجارب أصحابها، وتبعا لذلك تعددت مضامينها وأساليبها.

---

1) عباس ، إحسان ، فن السيرة ،ص117.
2) المرجع السابق ، ص 127–128.
3) طريطر، جليلة،مقومات السيرة الذاتية ،ص 404.
4) عبد الدايم، يحيى، الترجمة الذاتية ،ص 33–35.

ولعل من أبرز ملامح السير الذاتية أنها عكست بيئة العصر وحضارته الذي تمثله " وخضعت للروح العام الذي وجه الفكر العربي شأنها شأن فنون المعرفة الأخرى "[1] .

وعكست مضامينها فكر أصحابها واتجاهاته، فالسياسي يعنى بالأمور السياسية والحربية،والصوفي يعنى بالأمور الروحية وهكذا،ولعل هذا ما جعل شوقي ضيف يصنف السير حسب اتجاهات أصحابها وفكرهم، ولهذا جاءت معظم هذه السير تمثل جانبا واحدا من سيرة الكاتب الذاتية مهملا ومغفلا الجوانب الأخرى من حياته مما جعل سمة النقص تغلب على معظم هذه السير .

ومن الملامح البارزة لهذه السير أن كثيرا منها اتخذت مضامينها جانب الوعظ والإرشاد والتهذيب ، ورسم الصورة المثالية وملامحها و– التي قد لا تتوافر في كثير من السير الذاتية الحديثة – الصدق والصراحة " التي تبلغ حد الاعتراف بالعيوب الشخصية ، والصدق و الخروج على الأفكار السائدة "[2] .

وقد أوضحت ذلك عند تناول هذه السير في المحاور السابقة،وقد يبدو ذلك واضحا عند أبي حيان وابن حزم والغزالي وابن بلقين. وأما من حيث الأسلوب فقد جاء متفاوتا من سيرة لأخرى مابين أسلوب مباشر وبسيط وأسلوب أدبي فني ودقيق يستخدم اللغة الأدبية والفنية الموحية والمعبرة المتسمة بالإيحاء وحسن الخلق والتصوير الجميل الذي يبث الحياة في الأحداث ويوظفها بأسلوب وسرد أدبي مسترسل يقطعه حوار فني مما يحقق المتعة الأدبية، وفي الجانب الأخر نجد سيرا تتسم بالمباشرة والسجع والتكلف والاستطراد والتكرار .

بقي أن نقول إن جل النقاد أجمعوا على عدم وجود سيرة ذاتية في الأدب العربي القديم متكاملة بالمفهوم الحديث للسيرة الذاتية، وأغلب الظن أن هذا الحكم فيه تعسف شديد بل إن النقاد يناقضون أنفسهم في هذا السياق،فهم يذكرون ويعددون كثيرا من السمات الفنية لهذه السير والتي تقربها من مفهوم السير الذاتية في العصر الحديث ثم بعد ذلك ، يقولون لا يوجد سير ذاتية متكاملة وهل يوجد في أدب أي أمة من الأمم سيرة ذاتية تطابق مفهوم ومقاييس السيرة الذاتية الحديثة ؟! وهل يجوز لنا أن نحاكم أي جنس أدبي ضمن

1) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية ،ص 36.
2) المرجع السابق ،36.

مقاسينا الحديثة بمعزل عن ظروف العصر الذي كتب فيه؟! ، ومع هذا وذاك سيحاول الباحث إثبات وجود بعض السير الذاتية القديمة المتكاملة والقريبة جدا للمفهوم الحديث وذلك من خلال الدراسة الفنية والموضوعية لسيرة عبد الله بن بلقين ، وذلك في الفصل القادم إن شاء الله .

الفصل الثاني

دراسة فنية

مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري

(التبيان)

أنموذجا

تعد سيرة الأمير عبد الله بن بلقين من أنضج السير الذاتية في الأدب العربي القديم وأتمها، بل هي أقرب السير الذاتية القديمة للمفهوم الحديث للسيرة الذاتية بما تحوى من خصائص وسمات فنية، ولهذا السبب ارتأى الباحث اختيارها أنموذجا للدراسة الفنية والموضوعية، ومن مسوغات اختيارها للدراسة – إضافة لما سبق – أن الدراسات السابقة لسيرة الأمير عبد الله بن بلقين لم تفها حقها، جاءت في أغلبها عجلى مبتسرة لم تتجاوز في أطولها بضع صفحات تعرف بالسيرة وصاحبها، وتثنى عليها وعلى أسلوبها.

ومن هذه الدراسات السابقة :-

دراسة شوقي ضيف الموسومة بالترجمة الذاتية في الأدب العربي، فقد تحدث عن مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين في سياق حديثه عن التراجم السياسية وقد تحدث عنها في حوالي ثلاث صفحات، بين فيها أن عبد الله بن بلقين تحرى في كتابه الصدق عن نفسه وعن غيره،ويرى شوقي ضيف أن في الكتاب "مادة وفيرة لمن يريدون أن يؤرخوا عصر أمراء الطوائف تأريخا صحيحا وثيقا، وهو في حقيقته مجموعة من الوثائق النفيسة عن هذه الحقبة " (1) .

ثم يعرض بعد ذلك بشكل مقتضب لمحتويات الكتاب، ويخلص إلى القول:" والحق أن هذه المذكرات مجموعة من الأضواء النفاذة سلطت على عصر أمراء الطوائف بالأندلس، فإذا هي تبدد كل الظلام فيه. وإن الواجب أن يعيد المؤرخون كتابة هذا العصر على هدي تلك المذكرات " (2) .

أما إحسان عباس، في كتابه فن السيرة،فتحدث عن مذكرات عبد الله بن بلقين مصنفا إياها ضمن الصنف الذي يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير مبينا أن عبد الله بن بلقين كتب سيرته لينصف نفسه أمام التاريخ، وليبرر ما جرى له من زاوية ذاتية، وبين إحسان عباس، أن الظروف السياسية، والأخطار المحيطة، والمؤامرات العديدة ، هي التي أوصلت الأمير إلى ما وصل إليه ، ولهذا " كان لابد للأمير عبد الله من أن يقصّ القصة كما يعرفها ، بعيدا عن التزيد"(3)

1) ضيف ، شوقي ، الترجمة الشخصية، ص 90.
2) المرجع السابق ، ص 91.
3) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 121.

أما محمد عبد الغني حسن، فيرى أنها أقدم ما وصل إلينا من المذكرات ، ولا يتحدث عنها إلا بثلاثة أسطر [1] .

وما ذكره يحيى عبد الدايم، في كتابه الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث يعد أفضل وأدق ما قيل حول مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين، رغم أنه جاء مكثفا في صفحتين، إلا أنه ركز فيه على الأسلوب، و السمات الفنية التي حققت وأثارت في النفس أكبر قدر من المتعة الأدبية، ويرى عبد الدايم أن " أعظم ما يقربها إلى الفن، أنها تنقل إلينا من خلال " الحوار" ما يثير فينا " الإحساس الدرامي " وتجعلنا نحس بمشاعر الرحمة والإشفاق والعطف والرثاء "[2] .

وتذهب تهاني شاكر إلى ما ذهب إليه عبد الدايم، من تمتع الكتاب بكثير من السمات الفنية للسيرة الذاتية ، وترى أيضا أنه كان صادقا وصريحا في سيرته .[3]

ولعل دراسة صالح الغامدي الموسومة بـ " الممكن والمستحيل في السيرة الذاتية: قراءة في كتاب: "التبيان" للأمير عبد الله بن بلقين " تعد من أوفى الدراسات وأفضلها، وقد اطلعت عليها بعد أن فرغت من هذه الدراسة، ولكن لأهميتها عدت إلى ذكرها والإفادة منها ، وقد تحدث فيها عن " التبيان " كونها مذكرات أم سيرة ذاتية ، وعن دوافع الكتابة ، وعن الحقيقة والاختلاق ، وعن بعض جماليات هذه السيرة .[4]

---

1) عبد الغني حسن ، محمد ، التراجم والسير ، ص 24.
2) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 42 .
3) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 50.
4) الغامدي، صالح، " الممكن والمستحيل في السيرة الذاتية: قراءة في كتاب :" التبيان " للأمير عبد الله بن بلقين" مجلة الدرعية، العددان: الثاني والثالث والأربعون، رمضان 1429ه،ص، 435- 450.

مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (عرض وتحليل) :

قسم عبد الله بن بلقين مذكراته إلى اثني عشر فصلا ، حمل الفصل الأول عنوان " نظرات عامة للمؤلف "، وحمل الفصل الأخير عنوان " تأملات أخيرة بعد المنفى " وما بين النظرات والتأملات تأتي فصول سيرته الذاتية .

الفصل الأول : نظرات عامة للمؤلف :-

يبدأ هذا الفصل بالقواعد التي يتعين للمؤلف إتباعها ، وقد فقدت الورقة الأولى إلا أنه واضح من السياق أنه يدعو إلى الابتعاد عن السجع المتكلف، والألفاظ الغريبة والحوشية؛ لأن ذلك يولد خشونة اللفظ الذي تمجه الأسماع[1]. والحقيقة أن ابن بلقين – منذ البداية – يعيننا على فهم أسلوبه الذي سينهجه في كتابة هذه المذكرات، والتي سنلاحظ، بعد دراستها، أنه التزم هذه القواعد في كتابته ، وأن هذه القواعد التي رسمها في كتابته تدل على أدب وسعة إطلاع ،" والكلام، إذا خرج من القلب، وقع في القلب"[2]، ولعل التزامه بهذه القاعدة هو ما جعل مذكراته تلامس قلوبنا، بل جعلتنا نتعاطف معه ، ونميل إلى إنصافه، ونستشعر صدقه فيما يقول. ويتابع حديثه عن قواعد الكتابة، ويأتي الحديث في عبارات وتشبيهات موجزة معبرة، فيقول: " ولا خير في رام رعش، ولا متكلم هائب ؛ فإن الهيبة من المخافة والمخافة فرع من الحذر؛ ومن حذر فقد عقله، ومن خاف ، تكدر عيشه، ولا تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكى بها الجنان ، فالنفس إذا منعت ما تشتهي ، ترى مختلطة ، وتعبر كأنها بطوارق الخيل مختبطة "[3]

واضح أنه يطلب ممن يكتب ، ألا يتخوف من ذكر الحقيقة، والتعبير عن رأيه وما يجول في خاطره، حتى لا تختلط عليه الأمور، ولكنه يعود ليضع بعض القيود اللازمة ، فالكاتب يجب ألا يترك نفسه على هواها، فقد يحيد عن جادة الصواب " ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله ؛ فكل مفتون ملقن حجته ، ولا عليه أن يرفض ذلك ، فيكون بانيا على غير أصل وعاملا لغير نهاية.

وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويفسد حال نفسه ، وهو لا يشعر ، بل يعرف نفسه

---

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان ، نشر و تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، 1955 ،ص 3 .

2) المصدر السبق ، ص 3
3) المصدر السابق ، ص 4.
على فريقين. يسعى في بلوغ أمله، وإدراك ما حض عليه الكتاب وأتى به الرسول – عليه السلام – " [1] .

ثم بعد ذلك يتحدث المؤلف عن حقيقة الإسلام،وبطلان حجج الملحدة والمشركين ، ويتحدث عن قصور القياس دون عون من الوحي، ولا أدري لماذا يتحدث ابن بلقين عن مثل هذه الأمور ، وربما أراد أن يظهر ثقافته الدينية، وكذلك حسن إسلامه وإيمانه ، ردا على ما اتهمه به خصومه من كثرة لهوه وفسقه، وأرى، أيضا، أنه أراد من كلامه – هذا – أن يقنع نفسه، أو يواسي نفسه في أن زوال ملكه أمر قدري محتوم ، فهو يقول:" وليس في العالم أمر يثبت ، وعلى هذا بنيت الدنيا ، وكذلك الدول والملل: كل يأتي في أوانه، ولا يتعدى وقته، والدين صلاح العالم، ولا عدل إلا به، والملك يعضده ويحميه وهو قوام العالم على ما رتب البارئ عز وجل " [2] .

ثم يتحدث – في هذا الفصل – عن تكوينه السياسي، وكيف أن جده اعتنى بتعليمه وتدريبه على أمور الدولة والسياسية، وأنه كان يتوسم فيه خيرا، ويرى فيه خير ولي للعهد برغم كثرة المتنافسين ، وأصحاب الحق من أهل بيت المملكة " كل ذلك من الأسباب التي أذن الله من أجلها ولايتي من بعده . وقد كان من أهل بيت المملكة من يصلح لها قبلي ، ومعي من أخ كبير ، وعم وقرابة ، وأتوقع استهدافهم إلي ، وتقلبهم علي ، ما لو أنفقت ملء الأرض على كفاية شره ، ما استطعت له فكفاني الله تعالى ما كنت أتوقع"[3] .

ثم بين في ختام هذا الفصل صعوبة الإنصاف التاريخي ، وأن الناس لا يجمعون على مدح أحد ، ولا ذمه ، فرضا الناس غاية لا تدرك؛ لذلك يجب على المؤرخ أن يتحرى الصدق، ولا نأخذ بكل ما سمعناه ، وتقوله الناس عليه .

ثم يأتي الفصل الثاني، ويتحدث فيه عن الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري ، وأوليات هذه الدولة أيام زاوي بن زيري و حبوس بن ماكسن ، فقد كان هذان الرجلان من رؤساء الأجناد البربر الذين جلبهم المنصور بن أبي عامر ، وبعد زوال الدولة العامرية ، وظهور ملوك الطوائف طلب أهل البيرة الحمايـــة من زاوي وحبوس ، ولما طاعت البلاد لهم تقاسموها بالقرعة على عادة البربر ، فكانت البيرة لزاوي ، وحصن آشر وجيان لحبوس ،

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 3-4 .

2) المصدر السابق ، ص 9.
3) المصدر السابق ، ص 12-13.

ولما عرفه ثوار الأندلس من شدة بأسهم ثاروا عليهم بقيادة المرتضى ، إلا أن زاوي وحبوس هزموهم هزيمة نكراء ، فثبتوا بهذا النصر أوطانهم، وهابهم الناس، وتوطد ملكهم بغرناطة. ثم رحل زاوي بن زيري إلى القيروان،ومات هناك مسموما،فصفا الأمر لحبوس بن ماكسن ، وكان عفيفا عادلا ، فسار بالناس بأجمل سيرة .

ويأتي الفصل الثالث ويتحدث فيه عن إمارة باديس بن حبوس الذي آل له الملك بعد وفاة والدة حبوس، والذي كان حسن السياسة صبورا على الأذية،واللافت للنظر أن باديس قرب منه أبا إبراهيم اليهودي، ويبدو تقريب أهل الذمة والأقليات عادة عند الملوك ما زالت إلى يومنا هذا، ويفسرها ابن بلقين بقوله:" ولأن هذا يهودي ذمي، لا تشره نفسه إلى ولاية، ولا هو أندلسي فيبقى منه إدخال داخله مع غير جنسه من السلاطين"[1] .

ويتحدث بعد ذلك عن فشل المؤامرة التي دبرها بدير بن حباسة ضد باديس، والتي أراد فيها قتله، ثم يتحدث عن انتصار باديس على زهير صاحب مرية، ثم يتحدث بعد ذلك عن شخصية والده الأمير بلقين، وكيف أجمع الناس على محبته الخاصة والعامة، ولكن يوسف بن نغرالة اليهودي تآمر عليه، بعدما علم أن الأمير بلقين يريد قتله، فاستبق الأمر، وقتله بالسم " فسولت له نفسه سقيه. وكان متمكنا بذلك، لأن أبانا كان كثير الشرب معه، والتكرار عليه في منزله، فشرب يوما عنده على عادته؛ فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان في جوفه، واستلقى على الأرض؛ فلم يستطع المشي إلى منزله إلا عن مشقة؛ولبث يومين يجود بنفسه، حتى مات – رحمة الله عليه – "[2].

وهنا يتضح دور اليهود على مدى التاريخ، والقائم على التفرقة وإثارة الفتن، كما نلمح أن لليهود دورا في الحكم في الأندلس، وتبدو هنا صراحة ومصداقية المؤلف ، إذ يصف والده بأنه كان كثير الشرب.

تأكدت منزلة ابن نغرالة بعد مقتل الأمير بلقين، وبلغ المكان الأرفع، وفي هذه الفترة تم استيلاء باديس على مالقة، ثم يتحدث المؤلف عن علاقات باديس ببني صمادح أصحاب المرية، ثم يأتي الحديث عن الناية، ووصوله إلى غرناطة،وهو عبد كان للمعتمد بن عباد، وأخذ ينافس اليهودي في الحظوة عند الأمير، ويتآمر اليهودي على الأمير ماكسن، وينتهي

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 31.

2) المرجع السابق ، ص 40.

الأمر بإجلائه عن غرناطة .

ويتابع الحديث في الفصل الرابع عن أمارة باديس بن حبوس من موت ابن نغرالة إلى نهايتها، فيتحدث عن مؤامرة الوزير اليهودي ابن نغرالة، وتآمره مع ابن صمادح حتى وصل الأمر –بعد فتن وقلاقل– إلى ثورة صنهاجة عليه وقتله، واستطاع باديس انتزاع وادي آش من يد ابن صمادح، ثم انتزاع مالقة من يد ابن عباد، وكشف عن أمر فنيانة وفتنتها، ثم استولى على مدينة جيان، ثم استولى عن طريق النابة على بياسة وحصلت بعد ذلك مؤامرة ضد النابة ، وتم مقتله ، وكان ينوي قتله النابة ، وخلع باديس ، وتولية ابنه ماكسن ، ولكن الأمير باديس فوت عليهم الأمر بأن دعا ابنه ، وأرجعه إلى الحضرة ، وأعلنه خليفة له ، لكنه كان يكيد له ، وينفر الرعية منه.

وينتهي هنا ما هو موجود عن دولة باديس بن حبوس ، فقد فقد جزء منه في النسخة الأصلية .

واعتبارا من الفصل الخامس ، يبدأ الحديث عن فترة حكم المؤلف عبد الله بن بلقين ، ويبدأ الحديث عن مشاكل الأندلس الخارجية، وحال الجزيرة عند ابتداء إمارته ، ويبين استغلال ألفونش السادس للفتن ، فيطلب من ابن بلقين المال والضرائب ، فيرفض ، وينتهز ابن عمار الفرصة ، ويشترك مع ألفونش ويتآمر معه ضد ابن بلقين ، ويعترف هنا عبد الله بن بلقين وبكل صراحة أنه ندم على عدم مهادنة ألفونش " وعند انصراف المعتمد وعساكر الروم عنه ، عبينا عسكرا كثيرا ، ونهضنا إليه؛ فلم نقدر فيه على شيء، وانقطع رجاء الناس من دولتنا، لاجتماع المطالبين عليها مع الرومي، وقدمنا على التفريط أولا في معاقدته حسب ما سأل" [(1)] .

يضطر إلى مهادنته ابن صمادح صاحب المرية، ثم بعد ذلك تشتد المؤامرات والتحالفات ضد ابن بلقين، ويزين ابن عمار لألفونش أمر غرناطة، وما فيها من ضعف، وصغر سن أميرها ، ويصور لنا ابن بلقين – هنا – كيف كان ألفونش يستغل تنافس أمراء الأندلس وأطماعهم ، فيضرب بعضهم ببعض " فأدرك الرومي من ذلك طمعا كبيرا، وقال:" هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة! وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر ، إلا تقويته على نفسي ؟ وكلما أكثر الثوار ، وقع بينهم

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 70.

التنافس ، كان ذلك لي أفئد! ، فأتى على نية أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض " [1] .

ويصور لنا ابن بلقين الصراع النفسي الذي عاشه بعد أن أحكم الخناق عليه من قبل ابن عمار وألفونش." فورد علينا من إقبال ألفونش مع ابن عمار هول عظيم ، وصح عندنا أنه لم يأت إلا طالبا ملكنا "[2]. ويضطر ابن بلقين إلى الرضوخ وتوقيع المعاهدة مع ألفونش، وقد سيق إليها سوقا " فقبلنا قوله، ورأينا إعطاءه عشرة آلاف، في العام تدفع بها مضرته خيرا من هلاك المسلمين، وفساد البلاد، وإذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابدته، ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عونا عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا "[3].

ويتحدث بعد هذا عن استيلاء ألفونش السادس على طليطلة، وكذلك استيلاء ابن هود على دانية مع ذكر بعض أخبار من هود، ويظهر من حديث ابن بلقين مدى إيمان أهل عصره بالتنجيم " وتوفي قبل ذلك ابن النون عند بلوغه آماله بقرطبة، وكانت الأندلس قد ارتجت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيرا حتى مات! وكذلك الأشياء إذا تمت. وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة، فقد تمت أيامه، وإذا تم شيء، دنا نقصه"[4].

ثم يعاود ذكر قضية التنجيم عند حديثه عن ابن هود " فتوفى ابن هود في إثر أخذه لدانية، وبلوغه آماله منها. وقد كان ابن الخياط المنجم ذكر ذلك كله؛ ولقد قرأته في بعض كتبه قبل أن ينقضي ، حتى رأيته عيانا" [5].

ويذكر ذلك أيضا مع المؤتمن الذي جاء بعد ابن هود " وكان المؤتمن رجلا عالما، قد طالع الكتب، مع ما كان عنده من الآثار؛ فرأى موته قريبا " [6] .

ولعلها لحظات الضعف والانهزام، في تاريخ أية أمه تجعلها تتشبث بالأوهام والخزعبلات؛ لتداري عجزها .

ويأتي الحديث عن ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 72-73 .
2) المصدر السابق ، ص 74.
3) المصدر السابق ، ص 76.
4) المصدر السابق ص ، 76- 77 .

5) المصدر السابق ص 78 .
6) المصدر السابق 78 .

رشيد، ويذكر أعماله بعد ذلك واصفا مهلكه الشنيع. ويتحدث بعد ذلك عن عقد الصلح بينه وبين المعتمد صاحب أشبيلية .

ونجد ابن بلقين منصفا لخصمه المعتمد، فيقول " ليس كل الناس علم سر الأمر كالذي نصفه نحن. والدليل على ما قدمناه ذكره من ارتباط المعتمد إلى الخير وإثارة للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته، لم ير بعده فتنة فيما بيننا وبينه " [1] .

ويختم ابن بلقين هذا الفصل بالحديث عن منهجه في كتابة مذكراته ، والذي يعكس دقته في ذكر أخبار الأندلس وأحوالها، فقد كان يعتمد المشهور من أخبارها ، ويبتعد عن المختلف فيه ، ولا يذكر منه إلا ما ينقاس بالفعل، أما عند حديثه عن أخبار دولته ، والأمور التي عاينها، فقد كان يطنب فيها، ويتجه إلى الوصف وضرب الأمثال " تزيينا للكلام ، وإقامة للبرهان ، ودورانا على الحقيقة " [2] .

ويأتي الفصل السادس، وتحدث فيه عن مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين. بعد أن تمت المصالحة، بين ابن بلقين والمعتمد بن عباد، ومهادنة ألفونش السادس، توجه عبد الله بن بلقين نحو حل مشاكله الداخلية، وقام برفع المظالم عن الناس ، وقام بعدة إجراءات إصلاحية، كان أهمها التدرج في عزل وزيره سماجة؛ والذي كانت له مقاليد الأمور والسطوة على الدولة ، التي تعززت أيام صغر ابن بلقين .

وصل بعد ذلك نزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية ، إلا أن ابن بلقين استطاع متابعة تعاقب أحداثه وحله ، وفي كل هذه الأحداث تظهر حكمة ابن بلقين ، ووعيه للسياسة، وذلك واضح من الإصلاحات التي قام بها، ورفع المظالم ، وكذلك حل النزاع بينه وبين صاحب المرية ، ويقول ابن بلقين حول مصالحته لابن صمادح: " وإنه ، لما ظهر من كلب الروم على الأندلس ما ظهر ، ورأيت نفسي ظافرة متى رمت مع ابن صمادح فتنة، وتبين لي ضعفه عن المناظرة، صرفت نفسي عن التمادي والإلحاح،وقلت : " أنا في مثل هذا مدرك ! لا يفوت من الأمر متى أردناه شيء. وحسبنا ما قد ظهر إلينا ؛ فالإبقاء أولى، وإصلاح الأمر مع الجار– وجار ضعيف يبقى عليه – خير من تهيينا لقوي لا يرام ! ولقد كان مع الجار – وجار ضعيف يبقى عليه – خير من تهيئنا لقوي لا يرام !

---

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص82 .

2) المصدر السابق ، ص83 .

ولقد كان المظفر على بصيرة من إثباته لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوة وقدوة ! " [1].

وتظهر حكمته كذلك في تعامله مع أخيه تميم بن بلقين صاحب مالقه ، ولنستمع إليه، وهو يحدث نفسه قائلا:" هذا إنسان لم يبصره الدهر، ولا حكمته التجارب، ومتى تركناه على هذا ذائبا، ولم نؤدبه عليها ، تمادى شره، وحسب أن ذلك لهيبته، فازداد، ولا تنفع فيه موعظة، ولا قيل" فلم نجد بدا من تأديبه وزجره، فأن الشيء تحقره، وقد ينمى! وإنما كان ذلك الإغضاء لمعان توقعت، وانتظارا به لحسن العودة، وروية البصيرة. فإذا قد يئسنا من هذا وأمنا ما يشغلنا عنه، فنتركه على هذه الضلالة من العجز والخرق !"[2].

ويهزم عبد الله بن بلقين أخاه تميما، ولكنه يبقي عليه بعد أن حجمه، وترك له بعض الحصون والقرى؛ وذلك من باب صلة الرحم، وإرضاء لوالدته، ويذكر بعد ذلك ثورة كباب بن تميت، وثورة بني تاقنوت ونهايتهما. وقد استطاع ابن بلقين القضاء عليهما، فقد عاثوا في الأرض فسادا، وحاولوا إفساد صلحه مع ابن عباد، وقد عرض عليهما السلم، فرفضوا، وقد تمكن أولا من بني تاقنوت، وكان قد دعاهم للأمان قبل أخذهم، لكنهم رفضوا، ولهذا قام بصلبهم بعد التمكن منهم، ثم فرغ لكباب بن تميت وحاصره ولما رأى أنه مأخوذ لا محالة طلب الأمان والعفو حتى لا يحل به ما حل ببني تاقنوت ، فأعطاه ابن بلقين العفو ، ويعلل ذلك بقوله :" فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك قدوة لمن سأل منا العفو بعد الإساءة ، فلا ييأس من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها" [3] .

ويختم ابن بلقين هذا الفصل بالحديث عن سياسته في الحكم ، وحكمته في اتخاذ القرارات،تأكيد هذه الحكمة في اتخاذ القرارات، وتسيير أمور الحكم والسياسة،تأتي مباشرة قبيل حديثه عن فترة قدوم المرابطين، وكأني به – هنا – يدافع عن الاتهامات التي وجهت إليه من عدم الحكمة في اتخاذ القرارات، والطيش، وعدم السيطرة على أمور الدولة ، إلا أن ما قاله ، وما فعله في معالجة الأحداث والمشاكل، ينبئ بغير ذلك ، ويبدو فيه الصدق، والقرارات التي اتخذها، التي قد يبدو فيها مخطئا، أملتها الظروف ولامناص منها ، فكانت كالدواء المر يتجرع لبرء الداء "وكنا مع هذا نصغي إلى قول الناس بالأذن، لا بالعقل ، فنقيس عليه ، ونتخير مراده ، ولا نريه الخلاف ، فنوحشه ، غير أني أوسع لهم صدري ،

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 90.
2) المصدر السابق ، ص 90-91 .
3) المصدر السابق ، ص 98- 99 .

ويسع جهلهم حلمي، وأقضي بعد ذلك ما أريد ، إذ لم أكن على أمر مجبورا، ولا مقهورا، إلا ما قهرتني عليه السياسة ، وما تحمد له العاقبة ، كمن يتجرع الدواء لبرء الداء " وكنا مع هذا نصغي إلى قول الناس بالأذن، لا بالعقل؛ فنقيس عليه، ونختبر مراده، ولا نريه الخلاف، فنوحشه ، غير أني أوسع لهم صدري ، ويسع جهلهم حلمي ، وأقضى بعد ذلك ما أريد ، إذ لم أكن على أمر مجبورا ولا مقهورا، إلا ما قهرتني عليه السياسة ، وما تحمد له العاقبة ، كمن يتجرع الدواء لبرء الداء، ولم أكن أغتبن لأحد في الحق من جهالة ولا غفلة، إلا أن تكون مسامحة وتغافلا لأمر يراد، أو متابعة للقول في حينه تلطفا وقلة تلطفا وقلة خلاف على قائله ؛ ثم أصرفه تارات . فالجاهل عندنا من إذا أشار برأي ، ثم رأى أنه صنع ضده، أن يعاود القول فيه: فإن كان فطنا، من العي التكرار؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكير به غفلة منه ، أو استنقاص لمخدومة " (1) .

ويأتي الفصل السابع وفيه بداية النهاية حيث يتحدث عن قدوم المرابطين إلى الأندلس، وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لييط .

ويبدأ هذا الفصل بالحديث عن مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس ، فقد اهتدمت الأمور بعد أخذ ألفونش لطليطلة، فقد أصبح لا يرضى بالجزية فقط ، بل تعداها إلى الاستيلاء على القواعد، وزاد ألفونش من أصناف التعدي، ويصف ابن بلقين الحالة فيقول:" فوقع من ذلك في الأندلس رجة عظيمة، وأشرب أهلها خوفا، وقطع رجاء من استيطانها " (2) .

وتحدث مخالفات بين المعتمد وألفونش ، وكان يطلب الثاني من الأول أن يتخلى له عن معاقل " كان الموت عنده أولى من إعطائها " (3) .

وهنا يستنجد ابن عباد بالمرابطين " ورام كسرة بطوائف المرابطين ، وضرب بعضهم ببعض للقدر الذي شاء الله :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأكثر ما يجني عليه اجتهاد " (4).

وكذلك حصل مداخلة من صاحب مالقه للمرابطين قبل أن يستغيث بهم، وكان هذا كله مما

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 99- 100 .
2) المصدر السابق ، ص101.
3) المصدر السابق ، ص102.
4) المصدر السابق ، ص 102 .

مما يسعد ابن تاشفين أمير المسلمين، كما يسميه ابن بلقين إذ "رأى من تشتتنا أنه لا مشقة تكون عليه في أخذ بعضنا ببعض متى شاء" (1).

ويبدأ إرسال سفارات من أمراء الأندلس إلى مراكش، وبعدها يقوم المرابطون باحتلال الجزيرة الخضراء، وكانت الرسل تعاقد المرابطين على غزو الروم بمعونتهم.

وبعد ذلك تجمعت جيوش الأندلسيين برسم الجهاد، وكانت موقعة الزلاقة، وانتصر المسلمون على ألفونش السادس، ويصف ابن بلقين المعركة فيقول :" فلم تقع الصيحة على الجيش إلا وركبوا في طلبهم؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة. فاقتفى المسلمون أثارهم، وركبوهم بالسيف، ومات من جيشهم خلائق، وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل وميت مثقل صريع " (2).

وبعد معركة الزلاقة ، عقد ابن تاشفين مجلس رؤساء الأندلس، وأمرهم بالاتفاق والائتلاف، ولكن بدأ الخلاف يدب بين رؤساء الأندلس وسلاطينها، وقد بدأ الخلاف بشكوى صاحب مالطة أخ ابن بلقين إلى ابن تاشفين " وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجها لبقائنا في الجزيرة " (3).

ويعود ابن تاشفين إلى الأندلس لحصار حصن ليط ، وقد صور حصار حصن ليط فوضى ملوك الطوائف، وظهرت اضغانهم، وبدأت الرعية تأتي أفواجا شاكية لابن تاشفين " فالراضي منهم يلتمس الزيادة، والساخط يرجو الانتقام؛ وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط " (4).

ونشب خلاف بين ابن تاشفين وابن عباد، ينتهي بتسليم ابن تاشفين ابن رشيق لابن عباد، ويرفع ابن تاشفين الحصار عن لييط ، ويتفرق المحاصرون، وينشب خلاف بينهم، فقد وقعت بين المعتمد والمعتصم، صاحب المرية مشاجرات، وكذلك بين ابن بلقين وصاحب مالقة .

ويأتي الفصل الثامن،ويظهر فيه القلق والصراع النفسي المطبق، الذي كان يعانيه،

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 102 .
2)المصدر السابق ، ص106 .
3)المصدر السابق ، ص107.
4)المصدر السابق ، ص 109.

ويبعث عبد الله بن بلقين ، وذلك بعد عودته من حصار حصن لييط، وتخويف قرور له، وتهديده على لسان ابن تاشفين، ومما زاد في جزعه وخوفه ومعاناته ما حصل لابن رشيق، وما سمعه من وعيد القليعي وتهديده، ويصف مدى القلق النفسي بقوله: "فزادني ذلك جزعا، ولا سيما أن الجزع والسوداء متمكنة من نفسي، وأجدها في طباعي؛ كدت أن أموت غما . ولم أر قط قبل ذلك ذلا ولا كدرا " [(1)].

ونلمح – هنا – مصداقية الرجل ، فهو يعترف بأن الجزع والخوف طبع فيه، وهذا الطبع يعد نقيصة ، إلا أنه يعترف به.

وتتكالب المؤامرات والمصائب على ابن بلقين، سواء من أخيه تميم صاحب مالقة ، أو من قرور مندوب ابن تاشفين ؛ ومن الشيخ القليعي .

وبدأ ابن بلقين في هذه المرحلة بتشييد القلاع والحصون، وجمع العتاد والعدة ، وأخذ ينتظر ما يمكن أن يحدث ما بين ابن تاشفين والرومي، وبرر هذا الإجراء بأنه إن كانت الغلبة للمرابطين دخل في طاعتهم، ولن يتوانى عن المساعدة ، ومد يد العون ، وإن كانت الغلبة للرومي، كان أعده للدفاع عن نفسه .

ويضغط عليه ألفونش من خلال وكيله ألبرهانش ، ويطالب بالجزية والمعاونة ، ويرى من الحكمة مهادنته، وعقد اتفاق جديد معه ، ويخاطب ابن تاشفين، مبررا له ما فعل ، إلا أن الجواب كان فيه تهديد ووعيد، فقد صورت له الأمور على غير حقيقتها ويدافع ابن بلقين عن نفسه، فيقول بمرارة وأسى:" والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبة، ولا يسألني الله عن كلمة طعنت فيها على مسلم. فاتفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب؛ ولو أني أريد ذلك، والانحياش إلى النصارى، كالذي قيل، لم يصل المرابطون إلى سبتة إلا ومدينة غرناطة مملوءة منهم؛ وكنت أستطيع على ذلك، وكانت لي في المدة برهة وفسحة طويلة؛إلا أن الأعمال بالنيات، وتلك القالة إنما كانت سببا للذي قدر؛ ولو أن قضيتي تستوضح ، لوجد فيها ما لا مطعن فيه " [(2)].

وفي الفصل التاسع يحدثنا ابن بلقين عن الحوادث الأخيرة قبل النزاع،ونذر الكارثة ومن هذه الحوادث ثورة اليهود في مدينة اليسانة، ويفتح الحديث عن تلك الفترة قوله:"ولما

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 114 .
2) المصدر السابق ، ص 128-129.

كنت في تلك الفترة، بدت أمور وأسباب دلت على ما كان من الانتقال، ومقدمات آذنت بالزوال . فأول ذلك نفاق أهل اليسانة " [1].

واستطاع في النهاية تهدئة الأمور. وبرزت قضية زناته، فبعد أن قام ابن بلقين ببعض الإجراءات لتغيير مواقع الجند وقادتهم حصلت بعض البلابل، إلا أنه استطاع إعادة الاستقرار، بعد أن أظهر الحزم، وعدم التراجع عن قراراته، ويحدث بعد هذا انقلاب مؤمل وثورته في لوشة، واستطاع إنهاء ثورته يوسف بن حجاج زوج أخت ابن بلقين،وتم تثقيف مؤمل ومن معه، وثار بعد ذلك نعمان، وسار ضد ابن بلقين، وأظهر الولاء للمرابطين، وشوه صورة أمير غرناطة أمام أمير المرابطين .

ويأتي بعد سرد هذه الأحداث والفتن الحديث عن مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله بن بلقين، فعندما شعر الأمير ابن بلقين بالخطر يداهمه وجد من الحكمة تزويج أختيه، واختار في البداية أزواجا من بني عمها إلا أن أهل الدولة صدوه عن ذلك حسدا – كما يقول – متعللين بأنهم قد يظهرون عليه بحكم المصاهرة والقربى ، ووقع بعد ذلك الاختيار على يوسف بن الحجاج وآخر ابن لأحد وزراء جده .

ويعترض الحديث حديث عن ندماء الأمير عبد الله بن بلقين ، ويتجلى حديث ابن بلقين في هذه القضية ، كلام سلس عذب ينساب انسيابا ، وينم عن حكمة وعقل نير استمع إليه وهو يقول:" هذا طبع البشرية: فلا تسمع ممن يريك التحقيق بكلامه ؛ فإن الحق ثقيل على النفوس، والباطل إليها أسرع، والحق عليها أخف. ولما علم الشيطان حيل الإنسان، لمجراه منه بمنزلة الذم ، أتاه من قبل هواه ، ولا سبيل أن تلقى أحدا عديم العقل : كل قد أخذ من التجربة حصته، وحاز اختياره؛ وعرضك عليه ما يبدو إليك عجز وكلفة: فإن كان ريضا؛ فهو بشأنه أبصر؛ ولعل له عذرا ، وأنت تلوم ؛ فتولد عليه انقباضا منك وتحفظا لئلا يريك الخلاف حتى يأتي بما اعتزم عليه. وإن ألفيته جاهلا ، فمن العناء رياضة الهرم، لم تزده أكثر من نقله عن وده ، ولا ينتقل عن طبعه " [2] . وقد أبتلي ابن

بلقين نصحاء وصفهم بأن كل واحد منهم يريد أن يعمل برأيه، وأن تجري الأمور على هواه ؛ فإن لم يتفق ذلك له صار في حيز الأعداء، ثم يعود للحديث عن زواج الأميرتين

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 130.
2) المصدر السابق ، ص 142 .

أختيه مبررا أسباب تزويجهن " وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع الستر؛ وإنه، متى عرض عارض، كان البعل مكتفيا بامرأته ، يقلعها إذا أحوج ما تكون فيه عند ذلك ، وتكون لنا منهم عدة ، ويقل طمع كل من يشره إلى خطبتهما "[1].وبعد ذلك يتحدث عن غضب المعتمد لتدخل عبد الله بن بلقين في مسألة مرسية .

ويرسل ابن بلقين سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسببه ، ويقع الخوف في نفسه بعد رجوعها .

ويأتي الفصل العاشر، وفيه يأتي الحسم حيث يستسلم عبد الله بن بلقين إلى يوسف ابن تاشفين ويتم سجنه ثم إخراجه من الأندلس، ونفيه ويصف في هذه الأثناء حالة القلق والهلع والحيرة التي عاشها"فلم ندر ما نصنع، (واتســع الخرق على الراقع)؛ وقلــت:(لا طاقة لي بجميع أهل البلاد ، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ! فبمن نمسك الحضرة ؟ ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقل) .

(ولا يتمكن للخباء أن يقف دون أوتاد !)، ولا في الأمر من مداراة ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ! ولا ثم غيره يسند إليه ، فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى الطامة الكبرى ! ولا في الممكن أن نوجه إلى الرومي ، فيكون ذلك فسادا في الدين ، واستعجالا للمكروه ؟ وإن شعر بذلك أهل حضرتنا ، كانوا أول من يقاتلنا قبل المرابطين ! ما دام الستر بيننا وبينهم ، فيكشفون لنا القناع على بصيرة ! " فما عهدنا أياما وليالي كانت أفجع إلى قلوبنا ، وأدهى لنفوسنا من تلك الأيام " [3] .

وبلغت ابن بلقين الحالة داخل حضرة غرناطة ، فلا يجد قبل ما يسر ، فمنهم إما طامع وإما شامت ، وبدت الأمور مؤذنة بالزوال ، ولهذا لم يجد الأمير عبد الله ملجأ إلا بالتسليم " كيف ما رويت بهذه الوجوه ، لا خير فيها لمن تعقب الأمر وتدبره ، إلا ما صنعناه مع حكمه الأقدار التي لا تجرى على إهمال ! فخرجنا إلى رجل ، كأنما نساق إلى الموت ، لا ندرى ما نلقى ، إلا كالخاطر بنفسه ، متوكلين على القدر" [3].

ويتم نهب أمواله، ويجرد من كل شيء بقسوة وعدم رحمة ، ويتم نفيه إلى المغرب الأقصى ، وتبدأ رحلة العذاب والهوان ، وما رافقها من أهوال .

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 143.
2) المصدر السابق ، ص 148- 149 .
3) المصدر السابق ، ص154 .

ويتم عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخي الأمير عبد الله ، وتم نفيه بعد تجريده من كل شيء .

ويأتي الفصل الحادي عشر الذي يتحدث فيه عن عزل ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك ، مبينا في البداية موقفهم السلبي ، وتأليبهم عليه مع أمير المرابطين أثناء الحملة على غرناطة .

بعد استسلام ابن بلقين توجهت جيوش المرابطين إلى المرية ، ومات صاحبها من الغم وولي ابنه ، وبعد أن اهتدمت الأمور فر بذخائره طالبا النجاة .

وتتوتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد ، وضيق على المعتمد الخناق واستعان بالرومي، فوقعت عليه الحجة، وتم الاستيلاء على قرطبة وأشبيلية،ونفي ابن عباد بعد أن جرد من كل شيء .

ويعود ابن تاشفين – بعد ذلك – إلى مراكش ، ويتم عزل ابن الأفطس صاحب بطليوس وقتله مع ابنيه الفضل والعباس .

ويتحدث بعد ذلك عن نشاط المرابطين ضد النصارى ويتوقف عن الحديث بما ببلنسية لأنه لم ينته أمرها حينئذ .

ويختم الفصل الحادي عشر بتأملات في تقلب الأقدار ، وأن الإنسان يحب أن يستسلم للأقدار ويرضى لما هو كائن، فتوطن النفس على ما يعلم أنها عليه دائمة ، أحرى وأروح للبال .

ويأتي الفصل الثاني عشر والأخير وفيه تأملات أخيرة بعد المنفى، ويبدأ هذه التأملات بالحديث عن شعره فقد كان محبا للشعر ومجالس الأدب، ويقول: إنه كان ينظم القليل من الشعر على سبيل الاستلطاف في وصف الأشياء، فيكتب البيت أو البيتين بعد كد ومعاناة .

وبعد ذلك يتحدث عن طالعه ومصيره، ويرى أنها جاءت موافقة لما قاله المنجمون، ثم بين ابن بلقين رأيه في التنجيم، والواضح أنه كان يؤمن بالتنجيم، وقد

لاحظنا من عرضنا لسيرته، كيف أنه ذكر حوادث كثيرة تدل على أخذه بالتنجيم وبدت لنا أنها سمة عامة على أهل عصره. ومع هذا فإنه يختم قوله عن التنجيم فيقول:" وأما أنا ، فأقول إنه تأنيس ما لم تقرب المدة ، وزيادة في ألم المنية إذا اقتربت. ولا يكون الطب إلا ليصح البدن مدة الحياة لكراهية العيش في نكد. وأما لدفع أجل ، فلا ينفع شيء " [1].

ويقطع الكلام ليقدم لنا آراء طبية في الأغذية والنبيذ، ثم يعاود الحديث عن التنجيم، وتبدو أن هذه القضية كانت تقلقه كثيرا، فهي حاضرة في أرجاء سيرته، ثم يتحدث في هذه التأملات عن مسائل فلكية وعن تحديد العلوم الطبيعية والطب، ثم ينقض قول من ينكر أن الجن تتكلم، ويلحظ في هذه التأملات الأخيرة كثرة استشهاده بالآيات القرآنية الكريمة .

ويتحدث ابن بلقين عن الخمرة، وعن هموم الهوى والشباب، ويبدو في هذا الحديث رقة الأحاسيس و المشاعر " وقالوا في الجلوس على المياه والرياحين مما يسلي العاشق ، ويتداوى من أحزانه به ، وأما أنا فأقول إن ذلك يزيد في تذكاره ؛ ونقيم البرهان على ذلك أن النفس لا تولع إلا بما استحسنت، فكل مستحسن تراه يخرجها إلى ذكر الأسى في خاطرها، وكل حديث إنما يسوقه إليه؛ وكل ما زيد تذكارا زاد شوقا ، فأعقبه سهرا وقلقا ، والشيء لا يعاني إلا بضده : فكيف يشغف بحسن ويسليه حسن ؟ بل يوقظه ويشغله "[2] .

وبعد هذا الحديث عن الهوى والشباب يقف كاتبنا مع تأملات نظرية وأمثلة يضربها من قصة حياته عن الطموح، وزوال خيرات الدنيا . وبعد ذلك يتحدث عن أولاده ،فقد رزق بطفلة ، ثم بولدين ، وتبرز عادة كانت عند قومه وهي التبرك والتفاؤل إذا كان بكر أولادهم بنتا. ثم يتوجه المؤلف بالحديث إلى قرائه ، راضين عنه أو ساخطين.

ويبين ابن بلقين سيرته الذاتية بالدفع عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة ، كحرصه على جمع المال ، وحب الحسان ، ومنادمة الصبيان ، فبين أنها كانت من مستلزمات الحكم والملك " وتتبعت ما لا عار فيه على الملك ، ولا نقصان في المملكة ، من راحة تختلس عند الفراغ من الشغل كي تعقب نشاطا ، وعما دفعنا إليه تسلية " [1].

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 183.
2) المصدر السابق ، ص 201.
3) المصدر السابق ،ص195 .

حاولنا في العرض السابق أن نقف على أهم مفاصل هذه السيرة الذاتية كي تتضح لنا وللقارئ الرؤية عند الحديث عنها ، وعن أسلوبها وجمالياتها الفنية ، وهذا ما سنتناوله في المحور القادم إن شاء الله .

مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين : (دراسة فنية)

بعد أن تعرفنا على سيرة ابن بلقين، ووقفنا على أهم مواضيعها، ومفاصل أحداثها، نعيد قراءتها قراءة نقدية ، ونحاول خلالها الوقوف على أهم جمالياتها وسماتها الفنية ؛ لأن العمل الأدبي أدبيته تكمن فيما يحمل من قيم جمالية وسمات فنية، وكلما ارتفعت وارتقت جماليات العمل الأدبي، ارتفعت قيمته، وزاد ألقه. ولعل النقد في مستوى من مستوياته، بل في أدق مستوياته، مهمته الكشف عن جماليات النص أو العمل الأدبي .

ويسعى هذا الفصل نحو الكشف عن هذه الجماليات والفنيات في سيرة ابن بلقين الذاتية ، وكذلك يحاول بيان مدى تحقق مقومات السيرة الذاتية في هذه السيرة، وقراءة النص الأدبي قراءة فنية تحتاج – قبل كل شيء – إلى ثقة وإيمان بالنص نفسه، وبقدراته الفنية ، ونحسب أن الثقة والإيمان متحققة بسيرة ابن بلقين ، فهل نستطيع استنطاق هذا النص ، من أجل كشف جمالياته ، ذلك ما سنسعى إليه .

وقفة مع دلالة العنوان :

الحديث عن عنوان هذه السيرة الذاتية يثير ، منذ البداية ، قضية مهمة ، وهي لماذا لم ينشرها بعنوانها الأصلي " التبيان "؟ ، ولماذا فرض على القارئ وسمها بمذكرات الأمير عبد الله بن بلقين؟ يبدو أن المحقق رأى في " التبيان " أنها مذكرات لا سيرة ذاتية ، ورغم مجانبة الصواب؛ لأن " التبيان " أقرب للسيرة الذاتية منها للمذكرات،لأنها – كما سنوضح لاحقا – تركز على ذات صاحبها، وتتبع مراحل نمو شخصيته وتحولاتها وأطوارها المختلفة، " وكان الأولى ببروفنسال أن يحافظ على العنوان الأصلي لهذا الكتاب وهو " التبيان "، ثم يضيف إليه عنوانا ثانويا آخر مثل " مذكرات " أو " سيرة ذاتية " أو غيرهما ، دون أن يفرض على قارئه شكلا أدبيا معينا بدون مبرر "[1].

ولنعد إلى العنوان الأصلي الذي وضعه ابن بلقين وهو " التبيان " وقد كان الكاتب موفقا في اختيار هذا العنوان، وجاء العنوان مناسبا للغاية والهدف والدافع إلى كتابة هذه

السيرة ، فهي جاءت لتبين ، كل شيء ولدفع التهم عنه ، ولتبرر وتعلل ما قام به ، فجاءت هذه السيرة لبيان كل الأمور على حقيقتها .

---

1) الغامدي ، صالح ، الممكن والمستحيل في السيرة الذاتية ، مجلة الدرعية ، ص 437.

اللغة في سيرة ابن بلقين

اللغة وعاء الفكر، وأساس كل عمل أدبي ، وجماليات العمل الأدبي هي نتاجات فن استخدام اللغة، وقد استطاع ابن بلقين توظيف اللغة وتطويعها في سيرته الذاتية بشكل استطاع خلاله ملامسة قلوب القراء ، والتواصل معهم بأسلوب سلس وسهل ، وفي نفس الوقت عميق ، فقد استخدم اللغة الفصيحة المحكية والبسيطة دون تكلف و توعر وتمحك "واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك يولد خشونة اللفظ ، الذي تمجه الأسماع " [1] .

ولهذا جاءت لغته على سجيتها تنساب من قلبه انسيابا لتلامس قلوبنا دون حذر أو تهيب يخدمه في ذلك كونه أديبا وشاعرا " والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب ، ولا خير في رام رعش ، ولا تكلم هائب ، فإن الهيبة فرع من المخافة ، والمخافة فرع من الحذر ، ومن حذر ،فقد عقله ، ومن خاف ، تكدر عيشه ، ولا تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكى بها الجنان " [2] .

ولهذا جاءت عباراته موجزة ومحكمة ، ومما أثرى لغته ودلالاتها ، وساعد على تكثيف عباراته، وتخصيب لغته كثرة استشهاده بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكذلك باستشهاده بالشعر والأمثال والحكم وبعض الحكايات. فقد استشهد ابن بلقين بست وثلاثين آية، وتسعة أحاديث نبوية، وخمسة وعشرين مثلا وحكمة ، وخمسة عشر بيتا من الشعر .

وقد جاء توظيف هذه الآيات والأحاديث والأشعار والأمثال والحكم في مكانها المناسب، فلم تأت هكذا اعتباطا أو حشوا، بل جاءت لتعمق الدلالة، وتؤكد المعنى ، وتختصر الكلام. ولنضرب أمثلة على ذلك، فقد استشهد ابن بلقين بالآية (123) من سورة هود فجاء الاستشهاد في مكانه معبرا، ومختزلا لكثير من الكلام والوصف لظلم القائد قرور" ثم التوى أمر رندة ؛ ونازلها قرور، إلى أن ظفر بالراضي، وخدعه ، وحصل على

أمواله؛ ثم قتله، خوفا من أن تفتضح تلك الأموال؛ وقيل إن ذلك لم يكن عن رأي السلطان. وأمر بقتل كل من ظفر به في رندة المذكورة من الأحرار والجند المقاتلين.

---

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 3.
2) المصدر السابق ، ص 3 .

وقتل فيها رجل من العرب يعرف بأبي الصمصام، جرأة على الله ، ليأخذ بنته ، ونكحها من بعده، وحصل على ماله.(وما ربك بغافل) واستمسك بالعبيد ، وصيرهم إلى السلطان" (1) .

ونجد ابن بلقين يستشهد في الفقرة الواحدة ، أو في الحادثة بأكثر من شاهد قرآني ، أو حديث ، أو مثل ، أو شعر، وقد يجمع بين شاهد قرآني وشاهد من الحديث أو مثل أو شعر "وكنا لا نقدم شيئا ولا نؤخره من هذه الأمور إلا بعد روية وفكرة في العاقبة ، وندع مشورة الناس ؛ فإنا بلونا منهم قلة التحقيق ، والنطق على الهوى : فإما مفتون بأمر يزينه ويحمل عليه ، وإما كاره لخير أو مطالب لأحد ، فيجعلنا نحيز عن ما لا يطابق هـــواه ، (ولو اتبع الحق أهواءهم، لفسدت السماوات والأرض)، فلما بلونا من الناس هذه الشمائل، وأن كل أحد يحب أن تجرى الأحكام على اختياره، رجعنا إلى إيثار اختيارنا، إذ كان نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا؛ (وما حك ظهرك مثل ظفرك !)"(2). فقد جمع في الكلام السابق بين الاستشهاد في الآية (71) من سورة المؤمنين وبين المثل .

أما استشهاده بالشعر ، فجل ما استشهد به من الحكمة يأتي به ليؤكد به صواب رأيه وتدعيم حجته " فصالحت الرجل ، وأمرت بهدم تلك الحصون ؛ ونشرت المرية منة كفن .

وتمكن بعد ذلك ، ودنا ، وصار أصدق الناس لنا :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

فلم نزل متعاقدين متشاركين في الحلو والمر إلى انصرام الأجل " (3) .

ويأتي استشهاده بالشعر بموضع آخر يدل على فراسته ، وقدرته على فهم حاشيته والتمييز بين الناصح و الغاش: " فجعل يسمى لي أقواما لا يعشرهم في الخير والفضل، وقدم ذكر صاحب الأحباس ابن سلمون ، وتسبب إليه برسم الأحباس ، وغيرهم ممن لم

يبل منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلت في نفسي: " الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى الحاشية ولنا لآبائنا، إلا وهو يريد إفرادنا دونهم، ليتمكن بما شاء، ولا نجد صديقا نستريح إليه، مع ما تبين من إنفاسه ، وحة مقاطعه، وأغراضه القاتلة !). والعين تبصر في عيني

---

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 172.
2) المصدر السابق ، ص 99.
3) المصدر السابق ، ص 90 .

محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها " [1] .

ولو تمعنا كل مواضع الاستشهاد لطال بنا الأمر وأحسب أن ما ذكرناه يفي بالغرض ويؤكد ما ذهب إليه الباحث من أن ابن بلقين كان موفقا في استشهاده ، فجاءت لتحقق الدلالة، وتوجز الحديث، وتدل على سعة إطلاع الكاتب. وتتجلى فيه اللغة من خلال السرد والحوار ووصف الفضاء المكاني والزماني وسنناقش ذلك في المحاور القادمة .

السرد والحوار

إن أكثر ما لفت أنظار النقاد في دراساتهم العجلى لسيرة ابن بلقين هو السرد والحوار، فقد استطاع التعبير عن أطوار شخصيته ، وأثر الأحداث عليها " في سرد أدبي يثير في النفس أكبر قدر من المتعة الأدبية ، لأن أعظم ما يمتاز به " الأمير عبد الله " هو أسلوبه الأدبي العذب، المعتمد على الحوار الفني المحكم ، الذي يستعيد فيه في تمثل قوى، ما دار من حديث بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الآخرين أو بينهم وبين غيرهم .

وقد أتيح له حظ عظيم من القدرة على تمثل الحوار الحافل باللفتات الذكية ، واللمحات الدالة ، وبث فيها نقلة من واقع الحياة حرارة وحيوية ، ولونه بعناصر قليلة من الخيال والتصور "[2] .

لقد جاء السرد والحوار في سيرة ابن بلقين بأسلوب أدبي عذب مشوق ، وعذوبته تكمن في مستوى اللغة الذي اختاره ابن بلقين ، فقد اختار – كما اشرنا سابقا – لغة سهلة بسيطة لا تعقيد فيها، بعيدة عن التوعر والتكلف، وفي الوقت نفسه ارتقى بها عن الإسفاف واللغة العامية ، ونجد مستوى اللغة واحدا في السرد والحوار، فجاءت لغة الحوار بمستوى لغة السرد ، ولم يعتمد فيها على اللغة العامية بحجة أن لغة الحوار يجب أن تعبر عن واقع حال أصحابها ، كما يزعم بعض الأدباء والنقاد المعاصرين .

ونلحظ في سرد ابن بلقين للأحداث التي لم يعايشها ميلا كبيرا نحو الاختصار، وعدم التفصيل حرصا منه على الحقيقة والصدق ، الذي ألزم به نفسه منذ البداية فأهم ما يميز سيرة ابن بلقين الصدق ، ونقل الحقائق ، كما هي دون هوى أو تحيز " وقد تحرى فيه الصدق عن نفسه وعن جيرانه " [3] فهو " يقص القصة كما يعرفها مخلصا ، بعيدا عن التزوير " [2] .

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 117.
2) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية ، ص 41–42 .
3) ضيف ، شوقي ، الترجمة الشخصية ، ص 89 .

وقد أوضح ابن بلقين هذا الأمر عند تحدثه عن منهجه في كتابة مذكراته ، فهو يقول: "وإذا أتينا على ذكر جمل من أحوال الأندلس الحادثة فيها، المشهور خبرها حسبما استفاض ، وتركنا وصف الاختلافات ، إذ يوجد الحق في طرف واحد ، ولم يكن منها ما طولع بالمشاهدة ، ولا بالمعاينة أكثر من إشاعة الخبر ، ذكرنا منه ما ينقاس في العقل، وحذفنا منه الإكثار والمشتبهات. وإنه ، متى أتينا على ذكر خبر حادث في دولتنا مما حاولناه، أو شاهدناه أطنبنا في وصفه، وقتلناه علما إلى آخره ، وأخبرنا بسبب عن جهره، وبأرق الأسباب فيه . والإطناب فيما يحاول الإنسان أفضل ، وأنعت من الوصف المشاهدة لغير ما يخصه ، كما أن وصف المشاهدة ، وإن كان لا نعنيه ، أبلغ من ذكر المستفاض الذي لم يوقف على حقيقته ؛ فقد يذكر منه ما يقبله العقل ، ثم يجترى واضعه على أن يضع فيه من دون الأغلب عليه عند العامة ، فيصير مكذبا.

ولهذا ما اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيرا من الأحداث عنها ، واقتصرنا على الإطناب فيما يخصنا منها، مما حاولناه أو رأيناه عيانا، والحقيقة من الخبر عون كبير على ما يروم الإنسان من صفة في منظوم أو منثور، كالمادح أو الذام ؛ فإنه ، إذ وجد إلى المقال سبيلا ، أطنب وأبلغ ، وإن كانت بعض الزيادة فإنها لا تمكن إلا الأغلب والأكثر ، ويكون في ذكر الأمرين مصدقا لمعرفة الناس به ؛ ولأن كتابنا لم يكن مبنيا إلا على وصف مملكتنا الخاصة، (والحديث ذو شجون) ؛ فإن من ذكر جمل من غيرها عند الحاجة إلا وصفه أو ضرب مثلا تزيينا للكلام وإقامة للبرهان ، ودورانا على الحقيقة " [3] .

ويأتي السرد عند ابن بلقين دقيقا في عباراته محكما في وصفه للأحداث ، ويجعل القارئ يصغي للحديث ، ويجد فيه المتعة الأدبية ، والحقيقة الجلية ، ولا يملك إلا الاقتناع بما يقوله الرجل والتعاطف معه ، وما يزيد من متعة القارئ ولا يجعله يشعر بالملل ، أن كثيرا من الحوارات المحكمة تقطع رتابة السرد، ومما يبقي على حيوية العمل أنه كان يخصب سرده بكثير من الاقتباسات من القرآن الكريم ، والاستشهاد بالأحاديث النبوية ،

---

1) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 121 .
2)ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 82 – 83

والأشعار والحكم، إضافة إلى رواية العديد من الحكايات الممتعة .(قصة الإوزة) (قصة السمكة) *.

ومن أجمل التقنيات السردية التي أضفت على سيرة ابن بلقين جمالا ، ورفعت من مستوى التقنية في السرد والحوار، استخدام " المنولوج الداخلي " والذي استطاع من خلال هذه التقنية أن يعبر عما يدور في أعماق أعماق نفسه ، بمناجاته مع الذات ، فجاءت مناجاة النفس عذبة شاعرية عميقة في الدلالات النفسية ، لتعبر في كثير من الأحيان عن الصراع النفسي الذي يدور في نفس ملك يصارع أحداثا جساما آلت به إلى فقد الملك ، بل فقد كل شيء .

فها هو يناجي نفسه قبيل معاقدة معاهدة ألبرهانش وكيل ألفونش السادس ، وقد أتعبه القرار الصعب ، أيوقع المعاهدة ، أم يقاتل ، فهو أمام خيارين كلاهما مر " ومع من أثق رأيه ؟ أي مقدرة بنا على مدافعته، لا عسكر ترك لنا ندافع به ! فكم يأخذ في هذه النصبة من أسرى المسلمين ! وكم يفسد فيها من الأموال ! ما لا يعشر قيمة ما يعطى كالذي عهدناه منهم ! اللهم لو كان، ونفذ ذلك، ويبلغنا عن أسرى المسلمين ذلك قبل رحلتهم دون فساد في البلد ! ونحتسب ذلك له تعالى ، وهو العالم بالضمائر ! فإنا لو فعلنا ذلك أشرا و بطرا ، وعندنا بمن ندافع ، لكان فيه الحجة علينا ! " [1] .

ونلحظ أن المنولوج الداخلي عند ابن بلقين يأتي دائما قبيل اتخاذ القرارات المصيرية ، فها هو يرتد إلى ذاته قبل دفع الجزية ، وتجديد المعاهدة مع ، ألفونش فيقول " إذ لابد من دفعها ، فبالعقد أولى ، فإن حوجنا إليه ، وجدناه ، ولم يضر ؛ وإن استغنى

عنه ، كان مكانه سمر القنا والبيض والرقاق ، إن تداركنا الله بعسكر يدفعه ؛ والحرب خدعه ! (وإذا لم تغلب ، فاخلب !)" (2) .

ونجده في كل مرة يناجي نفسه ليتخذ قرارا مصيريا مقنعا لنا،ومؤكدا حكمته، فهو عندما عرض عليه رسول ابن رشيق أن يكون له مرسية بعد اتفاق ابن رشيق رفض الأمر، وقد حاول في حواره مع نفسه أن يبين لنا حكمته في هذا الرفض ، وأنه إنسان قادر على تقدير الأمور،و يستطيع قراءة ما يدور حوله وفهمه"وقلت في نفسي:"هذه نصبة

---

* ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 173.
1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 123.
2) المصدر السابق ، ص 125 .

لم يكد أصحابنا يتخلصون منها إلا بعد المرام الشديد، والكد العظيم! رد منهم هذه المشقات! فلا يعترضها هذا الوقت إلا جاهل بالزمان ! وليت لو سلمنا من هذا كله !وإنه من أمل أن يبقى بلده بيده ، فقد شره إلى كثير ، فكيف لفضول العمل الذي كنت أرى وأميز ؟ " (1) .

ونتيجة لتأزم الموقف والأحداث ، والمواقف الصعبة التي حاصرته من كل جانب، لم يكتف بالحديث مع نفسه ومناجاتها ، بل استطاع أن يلج إلى نفوس خصومه ، ليكشف ما كان يدور في داخلها من حديث ، فانظر إليه وهو يتحدث عن أحد خصومه (كباب) ، فيقول :" وإن كبابا بعد ذلك ، لما رأى صنيعنا بمالقة، على ما قدمناه، نظر – في زعمه – لنفسه وقال: (هذا ما صنع بأخيه! و طاعت له الرعايا! فكيف بمن هو عبد من عبيده؟)"(2)

ومثل هذا نجده – أيضا – عند حديثه عن مهاجمة ألفونش السادس غرناطة ، واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ، يقول: " فأدرك الرومي من ذلك طمع كثير، وقال: " هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة، وان لم يحصل البلدة! وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسي ؟ وكلما أكثر الثوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفئد !" " (3) .

ويتجلى السرد المطعم بالوصف الدقيق والعميق ، وبالحوار المحكم ، عند حديث ابن بلقين عن الحال داخل حضرة غرناطة ، عندما آل ملك عبد الله إلى الزوال ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى ، فظهرت الأشياء على حقيقتها ، وانكشفت الأمور ، وانبلج ما كان قد خفي، فوصف لنا ابن بلقين الحال الذي آلت إليه الأمور بدقة وبراعة تعكس نفسية

الناس مبينا كيف نتبدل ونتغير ، وسنورد هذا الاقتباس – على طوله – لتتضح الصورة "ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتهم ، اطلعنا على أمور دليلة على الانتقال ، مؤذنة بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافا على القياس والرتبة، مع المعاينة لما عمي قبل ، وإظهار ما خفي، إذا لا حرج ولا هيبة ولا صولة تتقى. أما الجند من البربر ، فكانوا مغتبطين بهم، طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية. واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحجر ، وقدموا كتبهم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يعدهم بأن يبقيهم في أماكنهم على أفضل ما

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 144- 145 .
2) المصدر السابق ، ص 96 .
3) المصدر السابق ، ص 72-73 .

كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقى، تقلع إلى السفلى بأهله وماله ، وبقى هو بنسمته منفردا متأهبا للشر ، إما بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ منا . ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نية أنهم من سبق ، ولا طاقة لهم بالحرب ، ولا هم أهله ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول : (لأي وجه نحتمل الحصار ؟ تاجر هنا وصانع كما في غيرها !) وأما الرعية ، فبخ بخ ، ذلك ما كانت تبغي ، طمعا منهـا في الحرية ، وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعشر ، وأما الرقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كنا نمسك الحصون ، فهم أول من طاع ، وأعين من بالحضرة إليهم يقولون : (ما الذي خالف بنا عن صنيع بني عمنا ؟) فلم نجد في صنف منها راحة يرجى معونتها ! ، وأما العبيد والصقالبة ، فالعبيد الأعلاج ، أول من عصا ، كما ذكرنا ، بلوشة ، رجوا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة ، ولم يفكروا في عاقبة أن يخطؤوا عنده ، فيقول:(ما نصحوا مولاهم رب الإحسان إليهم ! فكيف غيره ؟) إلا كل واحد بشهوته بين عينيه ، للذي شاءه الله – لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ! .

حتى الخدم من النساء و الخصيان: كل طامع في إقبال الدنيا عليه،والخروج عن ثقاف العصر إلى راحة التسريح ، والاستهتار بالرجال ، وما أشبه ذلك . فجعفر الخصي منهم ولبيب كانا زعيمي المداخلة ، ورأس الفتك ، يقولان: (نحن لا ولد لنا ولا تلد! فعلى أي شيء نصبر على القتال ؟ وما عسى نطمع أن نصير إليه : هل يجمل بنا سلطنة أو قيادة أو قضاء أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العيال : من سبق استمتع بنا، وكنا عنده من جملة ألفيء ، نرزق كسائر الكسب ، فلا نضيع ! تعالوا بنا نقدم لأنفسنا !) فوردت عليهم كتب

أمير المسلمين بالإنزالات القوية ، والمثاقيل والمراتب العالية ، يعدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم لنا ، حتى اتفقت من كل جهة " [1] .

وتحتدم الأحداث وتتوالى ، ويقع ابن بلقين تحت ضغط نفسي عنيف ، فإما أن يستنجد بالروم ، ويكون ذلك وبالا على المسلمين ، ويتحمل إثمهم إلى يوم الدين، ويبقي على ملكه ، وإما أن يستسلم للمرابطين ويخسر ملكه ، ويأتي سرد هذه الأحداث ليعكس القلق والتوتر النفسي، والصراع مع الذات، ويأتي الحوار ليعكس ما هو كائن، وما يمكن أن يكون ، وتحت هذه الضغوطات يأتي القرار بالاستسلام للمرابطين بعد تحكيم العقل ، وتغليب مصلحة المسلمين " وكم عسا [هكذا] العيش في هذه الدنيا ! والنجاة بالنفس في دار الدنيا ، وتخليصها من الأوزار في الآخرة ، لا يبالغ ذلك شيء ، ولا يعدله ! فاستعملنا العقل الذي جعله الله أميرا على كل شيء ؛ وكل قوة لا يتأنيها العقل ضعف وسكر ، مع سوء العاقبة . ولا سيما أننا بحال لابد من إسخاط الروم بإرضاء المسلمين ، أو إسخاط المسلمين بإرضاء الروم ! فالآن يرثيها المسلمون أولى ، وأجمل للعاقبة " [1] .

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 150-151 .

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 152.

الزمن

تكمن أهمية الزمن في الأعمال السردية من تناغمها و تلازمها مع عنصر المكان بل إن كثيرا من النقاد يدمجها في مصطلح واحد (الزمكان) مع تأكيد العلاقة الجوهرية المتبادلة بين الزمان والمكان [1]، والزمن في الأعمال الأدبية والسردية خاصة ليس زمنا واحدا، وإنما أزمنة متعددة ومنوعة ، فهناك الزمن المنطقي الطبيعي الواقعي المألوف، وغالبا ما يسير في خط أفقي للأمام والخلف وهناك الزمن النفسي أو الذاتي ، والزمن الحالي, وهما يتحركان على خط وهمي للخلف والأمام ، وهناك الزمن الأسطوري[2].

ويمكن أن يراوح النص السردي في استخدام هذه الأنواع الزمنية ، فيستخدم أكثر من زمن، ولكن الزمن المسيطر على السيرة الذاتية هو الزمن الواقعي المنطقي والطبيعي؛ لأن صاحب السيرة الذاتية يتحدث عن زمن حقيقي واقعي، وعادة ما ينطلق من الماضي ؛ ولهذا يسيطر على السرد استخدام الفعل الماضي ، وهذا ما نلحظه عند ابن بلقين ، فالفعل الماضي عنده يسيطر سيطرة تامة ، وهذا لا يحتاج إلى تمثيل لأنه بارز وواضح في كل مراحل سيرته ، وأكثر الأفعال الماضية استخداما في سيرته هو الفعل الماضي " كان " ، والفترة الزمنية التي يتناولها ابن بلقين في سيرته طويلة وممتدة ؛ ولهذا وجدناه يختزل الأحداث ، ويسرع السرد ، وقد اشرنا لهذا سابقا عند الحديث عن لغته ، فهو يميل إلى الإيجاز المحكم والعبارات القصيرة ولا يسهب في وصف الأحداث ، ويحذف ما لا أهمية له في إبراز شخصيته أو التأثير فيها ، وهذا الإسقاط والحذف يعد " تقنيه زمنية تقتضي

بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من القصة ، وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث " [3] .

وقد أوضح ابن بلقين هذا الأمر عند حديثه عن منهجه في الكتابة. ويقوم ابن بلقين أحيانا بقطع زمني عن طريق الاسترجاع لحديث سابق لم يكتمل، وهذا ما يسميه جيرار جينيت بـِ " استرجاعات تكميلية أو (إحالات) تضم المقاطع الإستعادية التي تأتي لتسد بعد فوات الأوان ، فجوة سابقة في الحكاية (وهكذا تنتظم الحكاية عن طريق إسقاطات مؤقتة،

1) باختين ، مخائيل ، أشكال الزمان والمكان في الرواية ، ت يوسف حلاف ، وزارة الثقافة تونس 1990، ص5.

2) يضيف بعض النقاد لهذه الأزمنة ، زمن القراءة وزمن الاستغراق الكتابي وزمن الاستغراق الزماني ، وزمن النص .

3) بحراوي ، حسن ، بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 1990 ، ص 156.

وتعويضات متأخرة قليلا أو كثيرا، وفقا لمنطق سردي مستقل جزئيا عن مضي الزمن)"[1]

وقد لاحظنا أن ابن بلقين يستخدم هذه التقنية مرتين، مرة عند حديثه عن مسألة زواج الأميرتين أختي المؤلف، فبعد أن أنهى الحديث عن هذه المسألة وانتقل إلى موضوع آخر، عاود الحديث مجددا عن هذه المسألة، وعنونه بـــ " رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف "، فقد شعر المؤلف أن هناك فجوة في الحديث السابق، وأن الأمر لم يكتمل، فعاود الحديث عنه مرة أخرى. والمرة الثانية التي حدث فيها مثل هذا الاسترجاع هي حديثه عن التنجيم ، فبعد أن عرض رأيه في التنجيم ، تحول للحديث عن أمور أخرى ، لكنه عاود بعد ذلك رجع الكلام عن التنجيم ، فهو أحس – كما أحس في المرة الأولى – أن هناك فجوة في الحديث وأن الصورة لم تكتمل .

أما الزمن النفسي أو الذاتي عند ابن بلقين ، فيبرز بروزا واضحا ، ذلك أن الظروف النفسية التي كان يعيشها الرجل نتيجة تزاحم الأحداث، وتراكم الثورات والمصائب ، والخطر الذي أخذ يداهمه من كل حدب وصوب ، إضافة إلى أن من طبعه السوداء ، كما اعترف بنفسه ، كل ذلك جعله يكتب مذكراته وهو في حالة من التوتر والقلق والخوف ، فكان الزمن يطول ويقصر تبعا لدرجة القلق النفسي وتأزم الأحداث ، وإذا ما عرفنا أن " المدة الزمنية من حيث هي كينونة زمنية موضوعية لا تساوي إلا نفسها ، ولكن الذات هي التي حولت العادي إلى غير عادي ، والقصير إلى طويل ؛ كما

تعمد هذه الذات نفسها إلى تحويل الزمن الطويل إلى قصير في لحظات السعادة ، وفترات الانتصار " [2] .

لقد كانت وطأة الزمن ثقيلة على نفسية ابن بلقين، وكي يهرب من شدة الزمن وثقله رأيناه يختصر الزمن ويسرع الأحداث عن طريق التكثيف للأحداث،والحذف والاختصار منها .

ولعل أقسى اللحظات وأطولها وأكثرها قلقا وتوترا ، هي لحظة نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ، فبدت الساعات والأيام كأنها دهور ، فهو مسافر إلى المجهول ، لا يعرف ما مصيره، ويقتله جزعا وخوفا الانتظار" وأمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء،

---

1) جينيت ، جرار ، خطاب الحكاية ، ترجمة محمد المعتصم و زملاه ، ط 3، منشورات الاختلاف ، الجزائر 2003 ، ص 62 .

2) مرتاض ، عبد الملك ، في نظرية الرواية ،الكويت، عالم المعرفة،1998 م ، ص 205.

وقال:" تنتظروا بها السلطان حتى يرد عليكم." وأعطانا من المرابطين مشيعين من يؤنسنا, ويتكفل أمورنا . فشكرنا له ذلك ، وتحركنا على المقام ، إذ كان الحفز من ذلك شديدا .

وكنا طول طريقنا جازعين ، لا ندري ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارة فينا. ولقد كنت أرى المرابطين ينزلون بمنزل ، أو يحتلون في موضع، فأقول:" إن ذلك لشيء أمروا به ! " فكنت طريقي ذلك تحت جزع وهلع ، أسال الله أن يكفر بها السيئات ، ويجعلها آخر مصايبنا بعزته ؛ إلى أن وصلنا الجزيرة ، فأرسلنا إلى سبتة ؛ ودخلنا البحر في يوم عاصف ، أدركتنا فيه أهوال لم نكد نسلم منها إلا بالأجل الذي لم يحضر ؛ حتى خرجنا إلى سبتة ، بعد أن قيل لنا:" فيها تنتظرون الأمير ! " كما قيل عن الجزيرة . فزادنا ذلك قلقا " [1] .

ونلاحظ ابن بلقين يئن تحت وطأة الانتظار والقلق والتوتر والخوف ؛ ولهذا نجده لا يستطيع أن يفصل الحديث ، بل يختصره اختصارا ، فجاءت رواية هذه الفترة المؤلمة والمرحلة الصعبة بصفحتين اثنتين فقط ، لأن الرجل أصبح لا يحتمل مجرد تذكر هذه الفترة.

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 160.

المكان

للمكان أهمية بالغة ، في الأعمال السردية , فهو أحد عناصرها الفنية الأساسية ، وفيه تجري الأحداث ، وتتحرك الشخصيات ، وقد تتعدى أهمية المكان كل ذلك ليصبح المكان فضاء يحتوي كل العناصر السردية " فهو يتخذ أشكالا ، ويضمن معاني عديدة ، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله " [1] .

وليس المكان يرد خلفية تتحرك أمامها الشخصيات أو تقع فيها الحوادث . " ويبدو المكان كما لو كان خزانا حقيقيا للأفكار والمشاعر و الحدوس ، حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة تؤثر فيها كل ظروف على الآخر " [2] .

إن تسمية المكان هي أول السبل إلى بناء المكان ، فتسمية المكان في أي عمل سردي تحيل القارئ على المكان الذي يحمل الاسم نفسه في الواقع إن ابتعاد ابن بلقين عن وصف المكان حرم سيرته من ألق المكان الذي يتحقق من خلال التصوير الفني الجميل للمكان، وكذلك حرمنا كقراء من متعة معايشة المكان ، ورغم ذلك فإن وصف جزيئات المكان هنا وهناك في سيرة ابن بلقين ربما سمحت لمخيلتنا إعادة بناء المكان أو لنقل تصوره .

وفي الفترة التي تحدث فيها عن حكم أجداده نجد التركيز على الحدث لا على مكان الحدث ، فذاب المكان في الحدث ، وغاب الوصف للمكان ، ومرد ذلك أن الأمير

عبد الله يسرد أحداثا سمعها ، ولم يعايشها فضعف الإحساس بالمكان ، فجاء ذكر المكان عابرا ليدل على مكان الحدث دون إحساس به ، ولكنه عندما يأتي الحديث عن المكان على لسان صاحب المكان ، نجد فيه عمق التشبيه الذي يعكس مدى التشبث بالمكان، ونجد ذلك عند وصفه لصنهاجة على لسان الأمير حبوس بن ماكسن ، فيقول: " إن صنهاجة عندي مثل الأسنان في الفم إن عدمت منهم واحدا ، لا تلحقه أبدا " [3] .

فلما جاء الحديث عن المكان من صاحب المكان ، ومن ملك المكان عكس مدى التشبث بالمكان ، والقرب منه ، والإحساس به من خلال ذلك التشبه العميق في صورته ودلالته .

---

1) بحراوي ، حسن ، بنية الشكل الروائي ، ص 33.
2) المرجع السابق ، ص 31.
3) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 26.

ونجد موضعا آخر يعكس قرب المكان من صاحبه وعمق الإحساس به ، فيقول :" والآن أتوقع على هذه البلاد الشريفة والمعاقل الفارهة أن يليها من قبل النابة من يشقى بها الجميع ، ولامعهم على إمساك الدولة ، وتكون لهم الصولة علينا ، ثم لا مهرب إلا إلى يديه " [1] . ولكن رغم ذلك نجد أن المكان هو المحرك لكل الأحداث ؛ لأن كل الأحداث تدور حول الصراع والنزاع حول المكان ، فتحول إلى معاقل وحصون ومراكز حماية للإنسان يلجأ إليها، وفي الوقت نفسه ، يرنو إلى غيرها طمعا ورغبة في الأمان " فإذا أمسكنا معاقلنا ، وكان بنو عمكم بالحضرة ، يتجسر على تبديدكم ، وكان أمره بعد ذلك هينا ، متى أراد التغير ، قتلناه ، ومتى ما سخط السلطان على أحدنا ، وأمر بنفيه على يده ، لجأ إلى معقل صاحبه " [2] .

ولكن المفاجئ عندما نصل إلى الفترة التي يتحدث فيها ابن بلقين عن فترة حكمه نجد المكان يبقى كما هو في حديثه عن فترة حكم أجداده ، فبقي المكان ذائبا في الحدث ، ويبقى مجرد مسرح للحدث ، يأتي ذكره لمجرد الدلالة على مكان حصول الأحداث ، ولكن الملاحظة أنه كلما زاد الصراع وتزاحمت الأحداث يتبعها زخم في ذكر المكان ، وأسماء المدن والحصون والقلاع .

كنا قد فسرنا – سابقا – عدم وقوف ابن بلقين كثيرا عند المكان ، وعدم وصفه والإحساس به ، بأنه ناجم عن كونه يتحدث عن فترة عابرة لم يعايشها، ولكن بما نفسر هذا الأمر وقد استمر في حديثه عن فترة حكمه وهي فترة عايشها، ويمكن تفسير ذلك بأمرين :

أولهما :–أن هم الرجل كان ينصب على الأحداث من أجل الدفاع عن نفسه، والتبرير لموافقته، وبيان الحقيقة للناس، وهذا لا يأتي إلا من خلال التركيز على الحدث لا على مكان الحدث .

وثانيهما :–أن ابن بلقين فقد ملكه, وسلب منه سلبا، وهنا لابد للإنسان أي إنسان من أمرين هما :

الأول :– أن يتشبث بالذكريات، ويبقى يصف الأماكن،ويبكي الإطلال للتعويض عن الفقد.

1) ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 52.
2) المصدر السابق ، ص 52– 53 .

والأمر الثاني:– أن ينسى أو يتناسى حتى يستطيع التعايش مع الواقع الجديد ، وهذا ما حصل مع ابن بلقين ، فقد هادن نفسه ، وتعايش مع الواقع الجديد واستسلم له ، ولهذا ابتعد عن وصف المكان حتى لا يهيج مشاعره ، ويفقد توازنه مع الحياة الجديدة التي آل إليها ، إذن فابن بلقين كان يحس بالمكان إحساسا عميقا ، ولا ننسى أنه أديب وشاعر ، ولكنه أبقى هذا الإحساس دفينا ، وخبأه خلف الأحداث .

ولكن وإن كان ابن بلقين قد أهمل وصف المكان إلا أنه ذكر المكان والمتمثل بكثرة أسماء المدن والقرى والقلاع والحصون ، يحيل في حد ذاته ، ويؤجج في ذهن القارئ فضاء أوسع للمكان من خلال ما يثيره اسم مكان ما من تصورات وتخيلات وأحداث في ذهن القارئ ، وقد يتداخل هنا الزمان بالمكان ليشكلا أبعادا يعاد إنتاجها في الذاكرة ، وقد يسهم في إبراز المكان – غير ذكر أسماء المدن والقرى والحصون والقصور – استخدام الحروف والظروف المكانية والزمانية ، وكذلك بعض الأفعال التي تدل كلها على المكان ، وتتبئ بمعان خاصة .

خلاصة الفصل الثاني:

بعد هذه الدراسة الفنية لسيرة ابن بلقين الذاتية ، نلحظ أن السيرة تمتعت بسمات فنية عديدة تجعلها خير مثال للسيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ، بل تعد من أنضج نصوص السيرة الذاتية – إن لم تكن الأنضج – فقد كتبت بلغة أدبية راقية وفي الوقت نفسه سلسة سهلة الفهم ، وأضفت على السرد حيوية وجمالا، فجعلته ينساب انسيابا ، وجاءت لغة الحوار بنفس مستوى لغة السرد ، وهذا الحوار المحكم جاء ليكسر رتابة السرد ويعمق الدلالة بأسلوب قصصي جميل ، وقد تجلت تقنيات السرد وتألقت وزادت قربا من السيرة الذاتية في العصر الحديث من خلاف المنولوج الداخلي الذي جعلنا نغوص في أعماق نفسية ابن بلقين ، بل نفسية بعض الأشخاص الآخرين الذين وضعهم القدر في طريق هذا الملك المخلوع .

أما الزمان والمكان فحاضران في سيرة ابن بلقين ، وإن كان الزمان أكثر وضوحا وبروزا من المكان وبرز الزمن بأنواعه المختلفة .

لقد استطاع ابن بلقين أن يمدنا بمراحل حياته وأطوار شخصيته النفسية ونموها وأهم ما يميز هذه السيرة – بإجماع النقاد – الصدق والحقيقة ، فقدم لنا الأحداث والحقائق كما هي دون زيادة أو نقصان ، واستطاع بيان الحقائق وإزالة اللثام عن كل غامض ،

فاستمال قلوب القراء ، وجعلهم يميلون لإنصافه والتعاطف معه ، بل إن بعض النقاد يرى أنه يجب إعادة النظر في تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الأندلس بعد قراءة سيرة ابن بلقين .

وكان ابن بلقين صادقا بميثاقه مع القراء ملتزما بالمنهج الذي اختطه لنفسه .

وبعد هذه الدراسة الفنية لهذه السيرة الذاتية نستطيع أن نجزم بما زعمناه – في البداية – من أن هناك نماذج من السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم جاءت ناضجة ومتكاملة ، وتقرب كثيرا من المفهوم الحديث للسيرة الذاتية ، هذا إذا ما راعينا ظروف وطبيعة العصر الذي كتبت فيه .

الباب الثاني :

السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

تمهيد : -

البحث في جذور أي جنس أدبي يعني بالضرورة تتبع تطوره ومراحل نموه وتجدده ، وبالتالي تحديد مرجعياته، والتخلص من فوضى الخلافات والآراء النقدية حول هذا الجنس ، هل هو طريف أم تليد ؟ .

وقد لاحظنا في الباب الأول من هذا البحث كيف كثر الهرج والمرج حول السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ، ما بين رأي يرى أنه فن محدث مرجعيته غربية ، ورأي يرى أنه فن عربي أصيل ، وقد حاول الباحث أن ينأى بنفسه عن ذلك الهرج والمرج والخلاف والاختلاف ، فالمسألة لا تحتاج إلى كل هذا ، فمثل هذه المسألة تحلها العودة إلى الجذور والأصول والمصادر، فعدنا إليها وقلنا هذه مصادرنا، وكان قدوتنا في ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد في دراسته لمصادر الشعر الجاهلي، فعندما أثبت هذه المصادر كان الرد المفحم لأستاذه طه حسين ، دون جدل أو خصومات ، والباحث يقول أن هذه مصادر السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم .

ويرى الباحث أن مرد الخلاف بين النقاد ، حول هذه القضية ، يعود إلى أن كلا الفريقين ينظر إلى الأمور نظرة قاصرة ،وخلطا بين قضية التأصيل والتطوير ، وقضية

التأثر والتأثير ، ونظر الكثير إلى السيرة الذاتية العربية من حيث انتهت، وهذا ما جعل النظرة قاصرة .

فالسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، في مرحلة نضوجها ، تأثرت بالغرب شأنها شأن الأجناس الأدبية الأخرى ، فتوهم بعضهم أن مرجعيتها غربية فقط ، ولو تتبعنا نشأة السيرة الذاتية في العصر الحديث لوجدنا أن السيرة الذاتية مرت – إلى حد كبير – بمراحل تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ، وجاءت محاكية للقديم حتى وصلت مرحلة النضج الفني ، فجاءت في كل مراحل تطورها لتلائم طبيعة العصر، وهذه من سنن الأجناس الأدبية ، تنمو وتتطور وتتجدد حتى تواكب ركب الحضارة ، فتطور العصر يتمخض عنه تغير المشكلات والرؤى والتفكير ، فتتطور وتتجدد الأجناس الأدبية بما يتوافق ويتلاءم مع روح العصر بل ، قد تتولد أجناس أدبية جديدة .

وتحاول هذه الدراسة في هذا الباب تتبع نشأة وتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، وبحث التداخل بينها وبين الأجناس القريبة منها ، وكذلك دراسة نماذج فنية تمثل مرحلة النضج والتجديد .

الفصل الأول :

النشأة والتطور

النشأة والتطور : -

ألمعنا في الإضاءة السابقة إلى أن مراحل نشأة السيرة الذاتية وتطورها في الأدب العربي الحديث ، تتشابه إلى حد كبير مع أطوار السيرة في الأدب العربي القديم ونشأتها ، فقد لاحظنا في بحثنا لتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم كيف بدأ الاهتمام بالسيرة الغيرية ، من خلال السيرة النبوية الشريفة ، ثم سير الصحابة والخلفاء والقادة ، ثم شاعت وانتشرت بشكل هائل كتب التراجم والسير، ثم بدأت إرهاصات السيرة الذاتية تظهر من خلال كتب التراجم، عندما أخذ أصحاب هذه الكتب يترجمون لأنفسهم كترجمتهم لغيرهم ، أو يذيلون بعض كتبهم بترجمة ذاتية لأنفسهم ، ثم تطور الأمر فظهرت سير ذاتية مستقلة اختلفت أنواعها وتعددت دوافعها ودرجتها الفنية . وهذا ما حصل مع السيرة الذاتية في العصر الحديث فكانت هناك إرهاصات تتدرج تحت فن السيرة – بشكل عام – توزعت ما بين السيرة النبوية الشريفة، والسير الغيرية ، وكتب التراجم ، وبعض السير الذاتية هي أقرب للتراجم والسير التاريخية، وبقيت متأثرة بالتراث السير ذاتي القديم ،ثم ظهرت المذكرات واليوميات، وبعد ذلك ظهرت السيرة الذاتية جنسا أدبيا مميزا له

خصائصه وسماته، وقد ارتبطت مرحلة السيرة الذاتية الفنية بظهور الرواية، بل إن بدايات الرواية العربية والمتمثلة بزينب يعدها بعضهم سيرة ذاتية .

وقد اختلف النقاد حول أول سيرة ذاتية في الأدب العربي الحديث ، فقليل منهم ربطها بمذكرات محمد كرد علي، ومنهم من ربطها بالساق على الساق للشدياق ، ومنهم من جعل البداية بالأيام لطه حسين .

وقبل الحديث عن إرهاصات السيرة الذاتية ونصوصها ، في الأدب العربي الحديث، لا بد من التعريج على الظروف الحضارية بمختلف أبعادها، ساهمت بتطوير الأدب بشكل عام والسيرة الذاتية بشكل خاص، وكذلك الحديث عن مرجعيات هذه السيرة والسياقات التي انطلقت منها .

الظروف الحضارية : -

الحديث عن الظروف الحضارية التي أثرت على نشأة السيرة الذاتية وتطورها في الأدب العربي الحديث ، هو الحديث نفسه عن الظروف الحضارية التي أثرت في الأدب العربي بشكل عام ؛ لأن السيرة الذاتية جزء من الأدب تتأثر بما يتأثر به ، وقد تعرض العالم العربي،ومجتمعه لتغيرات حضارية كبرى، فكان لزاما على الأدب أن يتغير ويتجدد – على اختلاف أشكاله ومضامينه – بما يتلاءم وهذه التغيرات .

ولا يخفى على أحد أن الأدب العربي مر في مراحل متعددة من النمو والتطور والتجديد ، منذ العصر الجاهلي ، وبلغت ذروة هذا التطور والتجديد في العصر العباسي ، نتيجة للتغيرات الحضارية العديدة التي طرأت على الفكر العربي ، ثم عاد الأدب العربي للجمود والتردي في العصرين المملوكي والعثماني ، وساد الجهل ، وفقد الأدب وظيفته ، وأصبح ضربا من التسلية والأحاجي والألغاز " وحين فقد الأدب الرسمي وظيفته بالنسبة لجماهير الشعب كان من الطبيعي أن يحل محله الأدب الشعبي الشفهي الذي يتلاءم مع أمية الجماهير ، وأصبح لهذا الأدب السيادة الكاملة على الساحة الأدبية كلها ، وسادت

الأغنية الشعبية والموال بديلا عن القصيدة الغنائية ، وحلت الحكاية والحدوته بديلا عن القصة ، وحلت السيرة والملحمة بديلا عن فن الرواية ، ويمكن النظر إلى الأراجوز وخيال الظل كبديل متواضع للمسرح ، وكان لابد لتجديد الأدب وتطويره من تغيرات عميقة لواقع المجتمع العربي تعيد للأديب والشاعر صلتهما بالأرستقراطية الحاكمة من ناحية ، أو بقوى شعبية قادرة ، وواعية من ناحية أخرى."[1]. .

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر لدغدغة مشاعر التطور والتغير، وفتحت باب اللقاء بين الحضارة الأوربية والعربية ، وفي الوقت نفسه، عرّت قوى المماليك والأتراك ، وكشفت حقيقة ضعفهم للشعوب ، وجاء محمد علي وأحدث تغيرا، وبدأ الانفتاح على العالم الغربي ، وبدأت البعثات العلمية ، ومع الزمن ظهرت طبقة من المثقفين بالثقافة الحديثة. وسط صراع مع قوى الاستعمار، وظهور القوى الوطنية، وكل هذه الأحداث ، والظروف أدت إلى بعث الحياة في الثقافة والأدب ، وبدأت مرحلة الإحياء للتراث العربي القديم ، وتميز الأدب في تلك المرحلة بالتقليد للقديم و التعصب إليه " وساد هذا النزوع والاتجاه

1) بدر ، عبد المحسن ، حركات التجديد في الأدب العربي ، القاهرة ، دار الثقافة ، 1979م ، ص150.

كل محاولات الثقافة والأدب في الفترة الأولى لنهضتنا الثقافية والأدبية ، فيما يسمى لدى الباحثين والنقاد الآن ، بفترة بعث التراث العربي القديم أو المدرسة الكلاسيكية ." [1] .

وإذا كان من إيجابيات هذا التيار أنه أعاد الحياة للأدب ، وربطه بجذوره التراثية ، إلا أن من سلبياته أنه أبقى الأدب والأدباء أسرى لهذا التراث ، وعبيدا للقديم ، فظهرت تيارات تدعو إلى التجديد والإفادة من ركب الحضارة والانفتاح على الغرب، فظهرت الرومانسية والواقعية وغيرها .

وقد واكبت السيرة الذاتية هذه التغيرات الحضارية والفكرية و التحررية ، وجاءت إرهاصات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، لتعبر عن هذه المرحلة " وقد نقلت إلينا " الترجمات الذاتية "، التي كتبت في هذا القرن جانبا من تلك التيارات الفكرية ، ومن خلالها نتبين طرفا من تلك الدعوات التي نادت بضرورة الخروج مما نحن عليه ، من جمود وتخلف ، والأخذ بالثقافة الغربية المتقدمة ، وبحضارتها على نحو ما يتمثل في " تلخيص الإبريز" ، لرفاعة الطهطاوي و" علم الدين " لعلي مبارك . وهي ترجمات ذاتية في خطوطها العريضة، وليست ترجمات ذاتية بالمعنى الفني الدقيق .

وتنقل إلينا " الترجمة الذاتية " التي كتبها الشيخ الإمام " محمد عبده " جانبا من حركة الإصلاح الديني واللغوي التي دعا إليها، وكذلك ينقل إلينا " الشدياق " كثيرا من آرائه في الحياة الاجتماعية في مصر وفي العالم الغربي ، ويصور لنا سخطه على كثير من مظاهرها ونقده إياها ." [2] .

وقد نهجت السيرة الذاتية في هذه المرحلة نهج القدماء ، وتأثرت بالتقاليد الموروثة ، وحتى الذين تأثروا بالغرب كرفاعة الطهطاوي وعلي مبارك و الشدياق " رغم إفادتهم اليسيرة من الآداب الغربية ، فإنهم حافظوا على الأسلوب العربي الموروث ، المتأثر بأسلوب المقامة تأثرا كبيرا . " [3] .

1) بدر ، عبد المحسن ، حركات التجديد في الأدب العربي ، ص 156.
2) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 48.
3) المرجع السابق ، ص 49.

وعند قراءتنا وعرضنا لإرهاصات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث وبدايتها سنلحظ أن مرجعية السيرة الذاتية في هذه المرحلة ، يمكن ردها إلى ثلاث مرجعيات أساسية هي : استلهام التراث العربي القديم (المرجعية التراثية)، والمرجعية الغربية ، والمرجعية الأيدلوجية الفكرية . وسنتناول كل واحدة من هذه المرجعيات .

أولا : المرجعية التراثية :

الحديث عن التراث حديث عن ديمومة الحضارة ؛ لأنه بوعينا للزمان ، وربطنا بين ما أنتج سلفنا،ومعطيات الواقع،مع مراعاة تحولات الحاضر عند إخضاع الماضي؛فالنظرة إلى التراث يجب أن تربط بين الأصالة والمعاصرة دون شطط أو تعسف ، أو تعصب لطرف على حساب الآخر ، فتتمسك بجذور الماضي ، وتعيش ألق الحاضر. " إن دراستنا لمحتوى التراث في كل مرحلة متقدمة ، تتوسع مساحة الرؤية أكثر مما سبق ، إذ أن النظرة تتجاوز مفاهيم عصرها، وتمنحها حياة مؤتلقة وفعلا مؤثرا في الأوضاع المادية والنفسية والروحية و الثقافية، وتعزز روابط الصلة بين عظمة الماضي، وتأثيره في ترسيخ عظمة الحاضر " [1] .

لقد أدرك أدباؤنا ومفكرونا في العصر الحديث، وفي مرحلة من المراحل، بعد أن ساد التخلف والانحطاط، أهمية العودة إلى التراث، لبعث الحياة في الأدب من جديد ، وصاحب هذه العودة اتجاهات، اتجاه متعصب للماضي والتراث لا يريد أن يخرج من تحت عباءته، وهذا الجحود بعينه بل الموت المحتم للأدب والفكر، واتجاه معتدل واع لأهمية التراث، وأهمية العودة إليه ، ليكون نقطة انطلاق نحو الحاضر والمستقبل ، وقابل هذين الاتجاهين اتجاه ثالث رفض التراث ، وعدّه مصدر تخلف ، واتجه نحو الغرب ، فكان أشد تطرفا وشططا من الطرف الأول .

ومن حسن حظ السيرة الذاتية أن معظم كتابها ، ولنقل روادها ، كانوا من أصحاب الاتجاه المعتدل، فأدركوا أهمية الوعي بالتراث، وفي الوقت نفسه أهمية الانفتاح على الغرب، فأدركوا أن الإبداع والتجديد ضرورة تمليها حركة تطور الوعي الإنساني .

ولهذا نجد السيرة الذاتية العربية الحديثة، وفي معظم نصوصها، وفي جميع مراحلها،وفي إرهاصاتها،وفي بداياتها، وفي مرحلة نضجها الفني، بقيت مرتبطة بالتراث،

1) الحافظ ، منير ، التراث في العقل الحداثي، دار المعرفة ، دمشق ط1 ، 2001 م ، ص36 .

ومستلهمة له، فإرهاصات السيرة الذاتية، المتمثلة فيما كتبه محمد عباد الطنطاوي (حياة الشيخ محمد عباد الطنطاوي) والشيخ محمد عبده، ورفاعة الطهطاوي (تلخيص الإبريز)، وعلي مبارك (علم الدين)، وأحمد فارس الشدياق (الساق على الساق) ، فجميع هؤلاء ، ورغم تأثر بعضهم بالغرب، وجاءت تراجمهم بوحي من اطلاعهم على الغرب ، إلا أن سيرهم الذاتية جاءت متأثرة بالسيرة العربية القديمة، و" بالتقاليد الموروثة للأدب العربي ، فنرى معظمهم ينهج في ترجمته الذاتية منهج تراجم العلماء، التي يزخر بها تراثنا العربي، فيعنى المترجم لنفسه – كالسابقين – بإثبات مراحل تطوره العلمي والفكري منذ الطفولة حتى وقت كتابة ترجمته، وقد يعن له ذكر أسرته وأصولها، وما وقع له من الأحداث البارزة في حياته. لكنها لا تختلف في جملتها عن التراجم الذاتية التي خلفها لنا علماء العرب منذ القديم "[(1)] ، فالتراث العربي الإسلامي متمثلا بنصوص السيرة الذاتية العربية القديمة ، شكل مرجعية وخلفية للسيرة العربية الحديثة ، وربطها بتقاليد الكتابة العربية القديمة،التي شكلت ما أسمته جليلة طريطر (بالذاكرة الأجناسية الفعالة) ، فهذه النصوص القديمة شكلت عناصر تذكيرية تصل ما هو حديث بما هو أقدم منه [(2)] .

وقد ساهمت أمور عديدة في الاطلاع على التراث، ومن ثم وعيه واستلهامه، ومن هذه الأمور التي كان لها دور في وصل جيل النهضة بتراث جامع الأزهر ، والذي كان لنظامه التعليمي فضل في حفظ اللغة العربية والتراث العربي الفكري والأدبي ، وكذلك ربط أجيال النهضة العربية الحديثة بتاريخ وحضارتها الأمة العربية الإسلامية ، مما عمق الإحساس بالأصالة والانتماء لهذه الحضارة العريقة .

وإضافة لجامع الأزهر ، ساهم انتشار المطابع ، وما قامت به من نشر لكتب التراث ، وإعادة الحياة لها من جديد ، كما أدى إلى اطلاع كبير على كتب التراث أكد ذات القيمة العالية ، فأعاد الثقة بهذا التراث ، وبرزت للأدباء نماذج أدبية راقية تحتذى ، بعد أن سيطرت نماذج رديئة في عصور الركود والانحطاط . ومن الإنصاف – هنا – ألا نغفل دور المستشرفين وحركة الاستشراق ، فقد ساهم المستشرقون في بعث التراث من خلال تحقيق الكتب القديمة ، ودراستها ونشرها ، كل هذه العوامل ساعدت وهيأت لرواد السيرة

1) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 48-49 .
2) طريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 396.

الذاتية في الأدب العربي الحديث، والإطلاع على النماذج القديمة للسيرة الذاتية ، والإقتداء بها ، و الاستفادة منها " بحيث شكلت هذه لدى هؤلاء الرواد خلفيات ، وأنماطا إبداعية ، تحولت إلى عناصر قارة ملهمة لهم، كما شكلت في الآن ذاته النماذج المعيارية ، التي تحددت بالقياس إليها، ما أثبتوه لإنتاجهم من مظاهر التجديد، في مستوى الشكل والمضمون فهذه الخلفيات التراثية ، هي بمثابة النمط الذي تقدر بالقياس إليه درجات الانزياح والعدول ، المثبتة لأصالة التجارب الإبداعية الحديثة "[1] .لقد أدرك رواد السيرة الذاتية العربية الحديثة أهمية دراستهم واطلاعهم على مستوى التراث السير ذاتي العربي القديم، فساعد على اتساع مساحة الرؤية،وعمق روابط الصلة بين عظمة الماضي، وتأثيره في ترسيخ عظمة الحاضر .

بقي أن نقول إن نماذج السيرة الذاتية الحديثة ، التي احتذت نصوص السيرة الذاتية العربية القديمة، واتخذتها معيارا، أصبحت فيما بعد هي الأنموذج المحتذى والمقتدى لنصوص السيرة الذاتية اللاحقة ، وتشكلت مرجعية أساسية لهذه النصوص ، وكانت الباعث والمحفز لنضجها وتطورها وتجددها .

1) طريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي ، ص 399–400.

ثانيا : المرجعية الغربية

تحدثنا في المحور السابق عن المرجعية التراثية للسيرة الذاتية العربية الحديثة ، وبينا كيف استلهم رواد السيرة الذاتية العربية هذا التراث ، وكيف أصبح النص التراثي نصا معياريا لنصوص السيرة الذاتية الحديثة، فتأثر فيها على مستوى الشكل والمضمون ، ومن حسن حظ السيرة الذاتية الحديثة، أنها في الوقت الذي التفتت فيه إلى التراث واستوعبته ، أطلعت على الثقافة الغربية وعايشتها وأفادت منها الكثير ، فشكلت مرجعية ثابتة للسيرة الذاتية العربية الحديثة ، وكانت تسير – هذه المرجعية – موازية ومساوية للمرجعية التراثية ، فامتد جسر الماضي مع الحاضر ، فالتقت الأصالة مع المعاصرة ؛ لأنه " يجب أن يقوم تبادل الحاضر على أساس تاريخي ، فترتبط المنجزات الراهنة بالتراث لتحقيق الأصالة " [1] .

لقد بدأ الاحتكاك بالغرب في العصر الحديث ، والاطلاع على ثقافاتهم منذ الحملة الفرنسية على مصر ، ومن ثم البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا ، وعمليات الترجمة التي تمت ، كل هذا وسع الاحتكاك بالغرب ، والإطلاع على نتاجه

الأدبي ، ونشأ الصراع ما بين الشرق والغرب ، وظهرت تيارات بعضها تمركز وراء صخرة التراث لا يريد أن يتزحزح ، وبعضها غرق في سحر الغرب ولم يلتفت لغيره ، ولكن بعضهم تميز بالنظرة الموضوعية .

وإذا كان رواد السيرة الذاتية هم أنفسهم رواد الرواية العربية ، والرواية فن حديث ، فلا يمكن لنا أن ننكر الأثر الغربي على هؤلاء الكتاب والأدباء ، وفي ظل الاطلاع على نصوص السيرة الذاتية في التراث العربي ، وكذلك الاطلاع على النصوص الروائية الغربية ، وكذلك النصوص السير الذاتية الغربية ، وفي ظل محاولة البحث عن الذات وإثباتها ، جاءت نصوص السيرة الذاتية العربية وفي جلها خلطت ما بين السيرة الذاتية والفن الروائي ؛ ولذلك حار النقاد في تصنيفها " وانقسم النشاط الروائي قسمة واضحة إلى شعبتين في هذه الفترة لا تخلو كل شعبة منها من صلة وثيقة تربطها بالفنون القصصية التي اهتم بها كبار المثقفين من قبل :

أما القسم الأول فيتصل بصورة أو بأخرى بالترجمة الذاتية لكاتبه ، وهذه الأعمال تمثل

1) بهنسي ، عفيف ، الحداثة والمعاصرة ، مجلة الوحدة المغربية ، ع \ 82\83 ، 1991 ص 207.5

سلما متدرجا تبدأ أولى خطواته بأعمال ترتبط ارتباطا مباشرا بالترجمة الذاتية لتنتهي إلى أعمال يضعف فيها الارتباط بالترجمة الذاتية ، ليصبح الارتباط بالرواية أقوى وأشد ، وإن لم يختف تماما الارتباط بين هذه الأعمال ، وبين التجربة الذاتية؛ وأهم هذه الأعمال مرتبة ترتيبا تصاعديا، على طريق الارتباط بالرواية هي الأيام لطه حسين، زينب لهيكل، إبراهيم الكاتب للمازني. سارة للعقاد ، عودة الروح للتوفيق الحكيم ." (1)

ولو عدنا إلى الإرهاصات التي سبقت طه حسين ، وهيكل ، والمازني ، والعقاد والحكيم ؛ لوجدنا أن إفادتهم من الغرب على مستوى المضمون، و تسجيل مظاهر الحضارة الغربية " لكنهم في كتاباتهم هذه أفادوا من الغرب إفادة . بدت فيما سجلوه من ثقافته ، وبعض مظاهر الحضارة الجديدة عليهم ، ولأن الجديد من أعمالهم هذه ، هو المضمون لما يحمله من إشارات إلى الجديد من الفكر والثقافة وتنبيه الأذهان إلى أنماط جديدة من الحياة في الغرب، تختلف عن تلك التي نحياها في الشرق وفيها ملاحظات شخصية كثيرة، وأخبار تشير إلى جوانب هامة في سيرهم. لكن أصحابها كانوا يحرصون على كثير من القوالب التعبيرية الموروثة . " (2) .

وهكذا استطاعت السيرة الذاتية العربية – وفي جميع مراحلها – أن تمتد من جذورها نحو التراث ، فبرز من نسيجها معطيات تراثية عربية قديمة ، ففاح منها عبق الأصالة ، وفي الوقت نفسه ، واكبت ركب الحضارة الغربية ، فلبت وتأقلمت مع حاجات الإنسان العربي الحديثة . فالغرب أصبح مثالا و أنموذجا ، للتحضر والمستقبل المشرق .

وسواء أذكر أصحاب السير الذاتية تأثرهم – بسير ذاتية غربية – صراحة ، كما فعل سلامة موسى في تربيته عندما ذكر تأثره بهنري آدم حيث يقول " وسيرتي هي أولا وأخيرا تربيتي فقد اقتبست العنوان من هنري آدم ، ووجدت في معناه مغزى قد ينفع القارئ "(3) . أم لم يذكروا كما فعل طه حسين، فإن الأمر لا يحتاج إلى تصريح ، أو عدم تصريح ؛ لأن الأمر يستشعر استشعارا ، وقد حارت جليلة طريطر في سبب الصمت عن موضوع تأثر الأدباء العرب في العصر الحديث بالسير الذاتية الغربية ، ثم وجدت أنه يكمن في " ندرة الاعترافات والتصريحات ، التي من شأنها أن تفصح عن نوعية الصلات

---

1) بدر ، عبد المحسن طه ، حركات التجديد ، ص 178–179.
2) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي ، ص 66.
3) موسى ، سلامة ، تربية سلامة موسى ، مؤسسة الخانجي ، 1962م، ص 5 .

التي يمكن أن تقرب بين نصوص السيرة الذاتية العربية ، وبعض النصوص الأوروبية ، التي يمكننا أن نفترض أنها من العوامل ، التي لفتت أنظار أدبائنا إلى هذا الجنس وأثرت في أسلوبهم في معالجته ، وحفزتهم على الإنتاج فيه. إن هذه التصريحات المفقودة ، جعلتنا لا نتبين بوضوح كاف ما رغب فيه أدباؤنا وما رغبوا عنه من سمات الكتابة السير ذاتية . كما تأثروا بها ، في نصوصها الأجنبية " (1) .

ويرى الباحث أن مسألة التصريح أو عدم التصريح في هذا السياق لا تشكل عائقا في كشف مدى تأثر كتاب السيرة الذاتية بالغرب، بل إنه ليس من الضروري، ولا مطلوب من صاحب أي نص أدبي ، أن يقول تأثرت بهذا الأديب أو ذاك ؛ لأن الكشف الحقيقي عن هذا التأثر يكون بإجراء دراسات مقارنة ما بين نصوص سير ذاتية عربية ، وأخرى غربية. وهذا مجال واسع وخصب ينبغي على من يبحثون عن هذه الدراسات أن يولوه اهتمامهم .

ونخلص إلى القول : إن أصحاب السير الذاتية في الأدب العربي الحديث ، تأثروا بالمد الحضاري الغربي الفكري والأدبي، سواء عن طريق احتكاكهم المباشر، أو غير المباشر، وفتح أعينهم على هذا العالم الجديد ، ودفعهم إلى التجديد في إبداعاتهم .

لقد أخذت قضية التأثير الغربي في الأدب العربي جدلا واسعا ، ففريق يرى أن التأثير الغربي في الأدب العربي الحديث كبير جدا، وأنه أسس نشأة الثقافة العربية الحديثة ، والأدبية تحديدا، وفريق يرى أن مسألة التأثير الغربي تم تناولها بشكل مضخم، ومبالغ فيه استجابة ، امتثالا " للخطاب الاستعماري الذي رسخ فكرة بسيطة وواضحة ، وهي أن التحديث وكل ما يتصل به جاء مع الحضور الغربي إلى الشرق ، فسادت الرواية الغربية لمفهوم التحديث الذي أصبح منذ ذلك الوقت يتجدد في محاكاة أشكال الثقافة الغربية ، كما في تلك الأشكال الأدبية ، وبالنظر إلى غياب البحث الحفري في الأدب القومي ، وإظهار خصائصه الأسلوبية والبنائية والنوعية ، فقد غابت معايير التحديث واضطربت ، وتمت وسط تشابك المؤثرات وتفاعلها ، استعارة معاييرها هذه بلورتها الثقافة الغربية " [2] .

---

1) طريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي ، ص 409-410.

2) إبراهيم ، عبد الله ، السردية العربية الحديثة ، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة المركز الثقافي العربي ، ط1 المغرب.، 2003 م ، ص 11-12.

ويرى الباحث أنه ينبغي تقرير العمق الفكري لقضية التأثر والتأثير بين حضارات الأمم والشعوب ؛ لأنه لا يمكن لأي أمة أن تعيش منعزلة عن الآخر ، والتفاعل بين الحضارات والأمم والشعوب ، هو الذي يولد الأفكار والرؤى ، ويجدد الحياة ، وفي الوقت نفسه يجب عدم إهمال تراث الأمة ، ودوره في بقاء الحاضر والمستقبل ، لذلك عند بحثنا في مرجعيات السيرة الذاتية ، بدأنا بالمرجعية التراثية .

ثالثا : المرجعية الأيدلوجية :

تحدثنا – سابقا – عن الظروف الحضارية التي سادت الوطن العربي عامة ، ومصر خاصة، والانفتاح على الغرب، وما ولده من إحساس بالتخلف عن ركب الحضارة " وقد كان القرن التاسع عشر ، بحق ، هو بداية تاريخ الفكر العربي الحديث ، خاصة في مصر،إذ حدث خلاله الصدام الفكري بين الفكر الشرقي الجامد، والفكر العربي المستنير، ونتج عن ذلك الصدام ، تكوين مدارس الفكر الغربي الحديث ، لأنه قد بدأ اتصالنا بتيارات الفكر الغربي ومذاهبه السياسية والاجتماعية والأدبية ." [1] .

وقد ولد الصدام بين الحضارة الغربية والعربية، بركانا ومعارك فكرية وأدبية بين المجددين الذين يدعون إلى التغيير والتجديد في الفكر العربي، والتقليدين الذين يعيشون بعقلية منغلقة على ذاتها . وفي ظل هذه الظروف ظهرت حركات أصلاحية وفكرية ثارت على الواقع،ورفضته،ودعت إلى التحرر ولفتت النظر إلى الحضارة الغربية،وإلى ضرورة تحدي الواقع للخروج من الجمود الفكري والحضاري، ولعل أهم هذه الحركات الفكرية

والإصلاحية، حركة رفاعة الطهطاوي،وحركة جمال الدين الأفغاني، وحركة محمد عبده " ونتج عن تلك التيارات الوافدة ، والحركات الإصلاحية السالفة، أن أثيرت في حياتنا منذ ذلك العهد، قضايا رئيسية احتلت أهتماما عظيما من جانب المثقفين، وظل بعضها يشغلهم حتى يومنا هذا وأهم هذه القضايا " قضية المذاهب السياسية والاجتماعية والأدبية " [2] .

ومعروف أن الأيدلوجيات تظهر كاستجابة أولية تبديها جماعة ما أمام تحديات تاريخية نواجهها ، وتتجلى وظيفة الأيدلوجية في حالة التحدي هذه من خلال بعث الروح النظامية والجماعية، وتخلق التضامن، وهذه الاستجابات تتولد – غالبا – من الشعور بعدم الرضا والإحساس بالمخاطر، والحزن على المصير، فالأيدلوجية نتاج حاجة الإنسان لإيجاد موقع له، يحدد على أساسه موقعه من الحياة والكون. وقد رفع أصحاب التيارات والحركات الفكرية والإصلاحية العربية شعارات ورموزا مستمدة من أيدلوجياته الدينية والسياسية، كان الهدف منها شحذ العواطف، وتغذية العقل من أجل الثورة على اليأس والبؤس من الواقع .

---

1) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي ، ص 46.
2) المرجع السابق ، ص 47.

وقد نقلت إلينا السير الذاتية التي كتبت في ظل هذه الظروف جانبا من تلك التيارات الفكرية والسياسية " والترجمات الذاتية التي كتبت في تلك الفترة، هي المحاولات الأولى ، التي تعكس حقيقة الصدام بيننا وبين الغرب ، كما تصور مرحلة البحث عن الذات في سبيل العثور على (مقومات شخصيتنا) " [1] .

1) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي ، ص 48.

إرهاصات وبدايات السيرة الذاتية

اختلف الباحثون حول بدايات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث وإرهاصاتها ، فمنهم من ربطها برفاعة الطهطاوي (تلخيص الإبريز) كيحيى عبد الدايم ، ومنهم من ربطها بـــ علي مبارك في (علم الدين) كـــشوقي ضيف ، ومنهم من ربطها بالشدياق في (الساق على الساق) كإحسان عباس ، ومنهم من ربطها بـــ محمد عمر التونسي في تشحيذ الأذهان كتهاني شاكر . ورغم كل هذا الاختلاف حول الإرهاصات ، إلا أن جل النقاد يرون أن البداية الحقيقية للسيرة الذاتية تتمثل بالأيام لطه حسين .

ولعل أكثر النقاد توسعا في الحديث عن إرهاصات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث كان يحيى عبد الدايم ، فقد تحدث عن " تلخيص الإبريز " لرفاعة الطهطاوي " ، وعن الترجمة الذاتية للشيخ محمد عباد الطنطاوي " ترجمة الشيخ محمد عياد الطنطاوي "، وعن الترجمة الذاتية لـــ علي مبارك " علم الدين " ، وعن الترجمة الذاتية للشيخ محمد عبده ، وعن الترجمة الذاتية لـــ أحمد فارس الشدياق " الساق على الساق " .

وسنحاول الوقوف على بعض هذه الإرهاصات للتعريف بها .

الساق على الساق : أحمد فارس الشدياق

عد كثير من النقاد والباحثين " الساق على الساق " سيرة ذاتية وعلى رأس هؤلاء النقاد إحسان عباس . وقد طبع الكتاب أكثر من أربع مرات كانت الأولى في باريس عام 1854م ، والثانية في مصر عام 1919، م والثالثة أيضا في مصر، وهي عن الطبعة الثانية ، أما الرابعة ، فكانت في بيروت عن دار الحياة عام 1969م ، والطبعة الأخيرة صدرت عن وزارة الثقافة الأردنية عام 2009م ، وقد أعدت الطبعة الأخيرة على طبعة بيروت ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الطبعة الأخيرة طبعة وزارة الثقافة الأردنية 2009م .

ويتكون الساق على الساق من أربعة كتب ، كل كتاب يتكون من عشرين فصلا ، ولكل فصل عنوانه المستقل .

وأول ما يلفت النظر في الكتاب عنوانه ، فهو يحمل عنوانين الأول " الساق على الساق في ما هو الفارياق " والثاني " أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام "

والغريب أنه فصل بينهما بحرف العطف أو ، فهو يخيرنا ما بين العنوان الأول والعنوان الثاني ، فكأنه يقول من أراد الكتاب سيرة ذاتية للفارياق ، فعليه بالعنوان الأول ، ومن أراده أخبار العرب والأعجام ، فعليه بالثاني ، وقد أشتهر الكتاب بالعنوان الأول . والفارياق اسم نحته الشدياق من الحروف الثلاثة الأولى من فارس ، والحروف الثلاثة الأخيرة من الشدياق .

وجاءت مقدمة الكتاب – على غير العادة – على شكل قصيدة شعرية يبدؤها بقوله:–

" هذا كتابي للظريف ظريفا طلق اللسان و السخيف سخيفا
أودعته كلما و ألفاظا حلت وحشوته نقطا زهت و حروفا
و بداهة و فكاهة و نزاهة و خلاعة و قناعة وعزوفا
كالجسم فيه غير عضو تعشق المستور منه و تحمد المكشوفا " [1] .

وحاول الشدياق في هذه القصيدة المقدمة المكونة من مئة بيت أن يبين محتوى وصفات كتابه والظروف التي ألف فيها الكتاب ، وفي بداية الكتاب ، الأول يعود الشدياق ليعرف

1) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق في ما هو الفارياق ، وزارة الثقافة عمان الأردن 2009 ،ص 69.

بكتابه نثرا ، ومن ذلك قوله" وإن قلتم إن بعضها، وهو السيئ، مفهوم ، وبعضها غير مفهوم قلت : لعل ما لم تفهموه هو من الحسنات التي تذهب السيئات ، فلا ينبغي لكم على أية حالة كانت أن تحرقوه . ولعمري لو لم يكن من شافع ، لقبوله ، وإجرائه عند الأدباء ، وعندكم أنتم أيضا مجرى كتب الأدب سوى سرد ألفاظ كثيرة من المترادف لكفى ، بل فيه من ذكر الجمال وأهله ، أدام الله عزهن ما يوجب أعظامه ، وتقريظ مؤلفه حيا ، ثم تأبينه بعد مفارقته إياهن برغم أنفه " [1].

وينتقل للحديث عن سيرته الذاتية فيبدأ بقوله : " كان مولد الفارياق في طالع نحس النحوس ، والعقرب شائلة بذنبها إلى الجدي أو التيس ، والسرطان ماش على قرن الثور ، وكان والداه من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح (مرحى مرحى) إلا أن دينهما كان أوسع دنياهما ، وصيتهما أكبر من كيسهما (برحى برحى) وكان لطبل ذكرهما دوي يسمع من بعيد . ولزوابع شأنهما عجاج ثناء يثور الجبال والبيد . ولتكرير العفاة عليهما ، واعتشآء الوفود لديهما. تعطلت سبل دخلهما.ونزحت بئر فضلهما، فلم يبق فيها إلا

نزازات يلقى فيها المخفق المحروم سدادا من عوز . فكانا يجودان به أيضا من عوز السداد (وه وه)، فلذلك لم يعد في طاقتهما أن يبعثاه إلى الكوفة أو البصرة ليتعلم العربية"[(2)] .

ورغم أن بعض النقاد عدوا الساق على الساق أول سيرة ذاتية ، إلا أنهم في الوقت نفسه عابوا عليه كثرة الاستطرادات إلى عناصر مختلفة " ولعل أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث هي " كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق " للشيخ أحمد فارس الشدياق ، وفيها حديث عن تنقلات الشدياق وبعض أحواله ، ولكن هذا كله غارق في غمار الاستطرادات والمترادفات اللغوية، وفي السخرية والمجون، وهما من أبرز خصائص الكتاب ، وما يميز الشدياق رحابة صدره لتلقي المدينة الحديثة ، ونظرته إلى المرأة ، وسخريته برجال الدين ، ونقده لبعض العادات عند الغربيين والشرقيين على السواء ، ولكن غرامه باللغة ، وانقياده لطبيعة المقامة ، وإسرافه في التورية والتلميحات الجنسية ، كل هذه قد تفسد عليه الاسترسال ، وتعرقل المتعة في السرد " [(3)] .

1) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق في ما هو الفارياق ، ص 78-79 .
2) المصدر السابق ، ص 83 .
3) عباس ، إحسان ، فن السيرة ص 130 ، 131.

وقد بين يحيى عبد الدايم أن شخصية الشدياق كانت أوضح من شخصية غيره من أصحاب السيرة الذاتية ، كرفاعة الطهطاوي في تخليص الإبريز ، وعلي مبارك في علم الدين " إذ كان الحديث يدور دائما حول نفسه ، ويطل علينا من خلال تنقلاته ، إلى مالطة وإنجلترا وفرنسا ، ليفصح عن أرائه وسخريته ، ونقده الاجتماعي اللاذع لكثير من عادات الشرق والغرب على سواء ، متحدثا في أغلب صفحات كتابه، عن أحداث حياته ، وأحوال نفسه . وهو بهذا قد تميز عليهما بأنه أمدنا بمعظم مراحل حياته ، منذ نشأته في قرية " عشقوت " لبنان ، إلى وقت كتابته كتابه، في العقد الخامس من عمره سنة 1855م " [(1)].

والاستطرادات الكثيرة التي خرج بها عن السيرة الذاتية ، كانت تدور حول قضايا ومواضيع مختلفة ، فتحدث عن التعليم وسلبياته ، وسوء التأليف ، والتخلف في الآداب والجهل ، ويتحدث عن الأحوال الاجتماعية والدينية والسياسية ، ويحمل رجال الدين والدنيا المسؤولية " والظاهر أن سادتنا رؤساء الدين والدنيا لا يريدون لرعيتهم المساكين أن يتفقهوا أو يتفقحوا ، بل يحاولون ما أمكن أن يغادروهم متسكعين في مهامه الجهل

والغباوة (أع أع) إذ لو شاؤوا غير ذلك ، لاجتهدوا في أن ينشئوا مطبعة تطبع فيها الكتب المفيدة سواء أكانت عربية أم معربة " [2] .

ومن القضايا التي شغلت الشدياق قضية المرأة ، فبين حال المرأة العربية ، وما هي عليه من الجهل وسوء التربية ، ويعد الشدياق – بعد ذلك – من أوائل من طرح قضية المرأة ، ودعا إلى ضرورة تعلم المرأة ، ومنحها حقوقها الاجتماعية ، وبذلك كان " رفاعة والشدياق " هما أسبق من " قاسم أمين " في العناية بقضية المرأة ، ولعلمهما في لفت نظره إلى القضية ." [3] .

1) يحيى ، عبد الدايم ، الترجمة الذاتية ، ص 70 .
2) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق ، ص 84.
3) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية ، ص 47.

اللغة والأسلوب

ذكر إحسان عباس أن من أبرز خصائص " الساق على الساق " التي أضعفتها كسيرة ذاتية ، هي غرقها " في غمار الاستطرادات والمترادفات اللغوية ، وفي السخرية والمجون " [1] .

وبين كذلك أن غرامه " باللغة ، وانقياده لطبيعة المقامة ، وإسرافه في التورية ، والتلميحات الجنسية ، كل هذه تفسد عليه الاسترسال، وتعرقل المتعة في السرد" [2] .

ورغم أن الشدياق أراد لكتابه أن يكون متحررا من الأساليب القديمة ، وحمل عليها " على أني أرجو أن في مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ما يغني عن تلك المحسنات استغناء الحسناء عن الحلي، ولذلك يقال لها غانية. وبعد فإني قد علمت بالتجربة أن هذه المحسنات البديعية التي يتهور فيها المؤلفون كثيرا ما تشغل القارئ بظاهر اللفظ عن النظر في باطن المعنى ." [3] .

وبالرغم من حملته هذه على الأساليب القديمة ، والزخارف الفنية ، إلا أنه كان يستخدمها، وذلك لإظهار مقدرته اللغوية والبيانية "[4].و " إذا ما أراد أحد أن يبرر للشدياق نهجه في بعض الأحيان نهج القدماء ، فإنه لا يجد إلا قولين ، الأول : أنه إنما أراد أن يثبت مقدرته مستعملا مقاييس عصره وأسلحته " [5] .

وكذلك كان الشدياق ضد كثرة استعمال الاستعارة والكناية ، ويرى محمد عبد الغني حسن أن الشدياق أثبت بلغته الجديدة التي أسعفنا فيها عن المحسنات أنه دقيق الوصف ، بارع التصوير والتمثيل [6] .

ومثل لذلك وصفه للدير والرهبان وحياته [7] ، ويرى المقدسي أنه في بحثه في أحوال الشعوب ، ووصفهم كان خبيرا مدققا , وله مساران ، الأول جاد، والثاني ساخر متهكم [8]

1) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 130 .
2) المرجع السابق ، ص 131.
3) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق ، ص 82.
4) فاخوري ، حنا ، تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البوليسية ، بيروت (د . ت) ص 1045 .
5) الضاوي ، أحمد عرفات ، أحمد فارس الشدياق وصورة الغرب فيه ، منشورات وزارة الثقافة ، ط 1 ، عمان 1994م ، ص 68.
6) عبد الغني حسن ، محمد ، أحمد فارس الشدياق ، الدار المصرية للطباعة ، القاهرة ، (د.ت) ص 76.
7) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق ، ص 135– 140 .
8) المقدسي ، أنيس ، الفنون الأدبية وأعلامها ، ص 164.

والشدياق دقيق الوصف ، ويقف على أدق الجزئيات ، فهو كما يرى محمد عبد الغني حسن ذو عين " فاحصة لاقطة لا تخطئ مشهدا ، ولا يفوتها ظل شيء تقع عليه " [1] .

ومما يميز الشدياق في الساق على الساق، قدرته على الجدل والحوار المدعم دائما بالحجة والبرهان، ومما يضفي على هذا الحوار الخفة وكسر الملل تطعيمه بالسخرية والدعابة الرشيقة والجميلة التي جعلته – بحسب رأي لويس عوض– حتى اليوم " أعظم ساخر في الأدب العربي قديمه وحديثه " [2].

أشرنا – سابقا – إلى أن كثيرا من النقاد عدوا " الساق على الساق " سيرة ذاتية ، بل إن بعضهم يرى أنه سار"على نهج يستوي معه كبار المؤلفين العالمين الذين ترجموا لذواتهم"[3] ومع هذا، فإن جل النقاد – أيضا – يرون أن الذي أضعف هذه السيرة الذاتية ، وجعلها قاصرة عن المفهوم الحديث للسيرة الذاتية، هو كثرة الاستطرادات وزج نفسه في مواضيع مختلفة وكثيرة ، فجاءت سيرته وأخباره غير متسقة .

ويرى كثير من النقاد والباحثين أن الشدياق في " الساق على الساق " يعد من أصحاب الريادة في فن القص، وعدوه " أكبر موهبة قصصية أهدرت في مطلع نهضتنا الأدبية، فقد دل كتابه " الساق على الساق " على أن عقليته القصصية ناضجة إلى حد كبير.وإن لم يستغلها في هذا الفن ، وكتابه هذا هو ترجمة لحياته ، كتبت بأسلوب قصصي فني طريف،وفي بعض الفصول يرتفع النبض القصصي إلى منزلة الآثار العالمية "[4] وقد مثل على ذلك بالفصل التاسع عشر من الكتاب الأول والذي عنوانه"الحس و الحركة "[5] .

ويرى محمد عبد الغني حسن أن" الساق على الساق "يعد نواة طيبة للقصة العربية في القرن التاسع عشر ولو استمر في هذا الطريق لكان فيها رائدا ومبدعا " [6] .

أما إبراهيم السعافين ، فيرى أن "الساق على الساق" و"مجمع البحرين" للشيخ اليازجي يعدان "أبرز عملين أدبيين يتصلان بالبدايات الأولى للرواية العربية في بلاد الشام ، فقد نحى الكاتبان منحى المقامة في الأغلب الأعم " [7] ولكنه يرى أن الشدياق اختلف عن

1) عبد الغني ، حسن ، محمد ، أحمد فارس الشدياق ، ص 97.
2) عوض ، لويس ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، دار الهلال ،القاهرة ،(د.ت)،ج2،ص68.
3) داغر ، يوسف أسعد ، مصادر الدراسة الأدبية ، جمعية أهل القلم ، بيروت 1955م ، ج2 ص 472.
4) نجم ، محمد يوسف،القصة في الأدب العربي الحديث ،دار الثقافة بيروت 1966 ص 245.
5) الشدياق ، الساق على الساق ، ص 181–186.
6) عبد الغني حسن ، محمد ، أحمد فارس الشدياق ، ص 129–132.
7) السعافين ، إبراهيم ، تطور الرواية العربية في بلاد الشام ، دار المناهل ط2 ، بيروت لبنان 1987م ص31.

اليازجي في أسلوب المعالجة " وإذا كان اليازجي قد اتخذ في مقامات " مجمع البحرين " شكل المقامة القديمة، وبالغ في عنايته بالغريب والسجع فإن معاصره الشدياق قد سار بالمقامة إلى مدى أرحب و أوثق صلة بالفن القصصي والروائي . ولعل لطبيعة حياته أثرا كبيرا في ذلك ، فقد اختلف عن اليازجي في هذا المجال ، حيث أتاحت له رحلاته وأسفاره أن يتعرف على الحياة و الناس عن كثب ، وأن يعاني الحياة الاجتماعية بعمق ، فينال من صنوف المتعة و الأذى، ما يعمق نظرته إلى ما حوله ، فقد جابه متاعب كثيرة في لبنان ، وغادرها يجوب عددا من الأقطار العربية والأجنبية ليثري فكره وخياله بما يشاهد ، وبمن يلتقي بهم من فئات مختلفة عن الناس ." [1]

ويعود السعافين لتأكيد موهبة الشدياق الروائية، فيقول :" ولعل الشدياق كان يستطيع أن يكتب الرواية بطريقة قريبة من الرواية الحديثة بشروطها النقدية المتعارف عليها،

فيكون بذلك البداية الموفقة لهذا اللون من أدبنا . وموهبة الشدياق الروائية ليست موضع جدل،وقد أسعفه تجواله في أقطار متعددة، ومشاهدته لأحوال اجتماعية وسياسة واقتصادية مختلفة في أن يضفي على الموضوعات التي يعالجها لمسات من دفء العاطفة، وسمو الخيال ، وقد أفاد من قراءته في الثقافة الغربية في تطويع أسلوبه للتعبير عن مشاعره ، وأفكاره ، بعيدا عن قيود السجع ورصف العبارات البيانية المنمقة." [2].

تحدث الباحث – في بداية هذا الباب – عن مرجعيات السيرة الذاتية العربية الحديثة ورأى أن السيرة الذاتية العربية الحديثة وخاصة في بدايتها، كانت متأثرة بالمرجعية التراثية والمرجعية الغربية ، ولعل اختيارنا " للساق على الساق" جاء من منطلق تأكيد ما ذهبنا إليه ، لأن الساق خير مثال على المرجعية التراثية والغربية معا .

ومن الاستعراض السابق "للساق على ساق" لاحظنا تأثر الشدياق بالتراث الأدبي القديم سواء على مستوى الشكل واللغة أو المضمون، فروح المقامة حاضر، وواضح كذلك ألف ليلة وليلة، وفكاهة وسخرية الجاحظ "ومن يتأمل كتاب " الساق على الساق " وما يضمه من أحاديث تجمع بين الجد والهزل، والرصانة والمجون يقطع بأنه قد تأثر ألف ليلة وليلة، الذي يثير جوا خاصا، يعبق بخيالات الجنس والغريزة المنطلقة من كل قيد " [3].

---

1) السعافين ، إبراهيم ، تطور الرواية العربية في بلاد الشام ، ص 37.
2) المرجع السابق ، ص 42.
3) المرجع السابق ، ص 40.

ولكن الشدياق لم يبق مقلدا أسيرا للتراث القديم ، بل كان مجددا حتى في أسلوب المقامة لذلك تعد مقاماته " تطورا في فن المقامة، فخرج بها عن التكلف اللغوي، والعبث البياني، إلى المقامة القصصية ، التي تعالج موضوعا اجتماعيا " [1] .

إذن فالمرجعية التراثية ، والمرجعية الغربية حاضرتان دائما في" الساق على الساق "، فعندما يستلهم الشدياق روح المقامة وأسلوبها في الوقت نفسه ، روح الغرب والتجديد حاضران " ظهرت رغبته في التجديد في الشكل والمضمون ، أما النثر فقد جدد وخرج على القديم خروجا جريئا ، كما جدد في الشكل الأدبي ، حتى أن الساق على الساق جاء كتابا موسوعيا فيه لغة ونقد ، وسيرة ذاتية ، وهو و إن كان يراوح بين القديم والحديث في أسلوبه ، إنما أراد إثبات قدرته في الاتجاهين ، بالإضافة إلى ابتكاره في مجال القصة

والأقصوصة ، مما يدفع إلى الاستغراب من إهمال الشدياق عند الحديث عن مراحل تطور القصة العربية ، إهمالا لا يوجد له مبرر ، في الكتب النقدية التي تتحدث عن هذا الموضوع " [2] .

لقد استطاع الشدياق من خلال كتابه الساق على الساق ، ومن خلال كتبه الأخرى أن يكون أسلوبا خاصا يعد فاتحة لبداية جديدة في الأدب على مستوى الأسلوب والشكل والمضامين، والشدياق رغم تأثره و إعجابه بالتراث العربي القديم إلا أنه لم يكن أسيرا له، وفي تأثره في الغرب لم ينبهر ، فكان متزنا يذكر الايجابيات وينتقد السلبيات ، واستطاع الشدياق بموهبته الفذة أن يكون من أصحاب الخطوات الأولى في التجديد في الأدب والفكر .

1) نجم، محمد يوسف، القصة في الأدب العربي الحديث، ص246.
2) الضاوي، أحمد عرفات، أحمد فارس الشدياق وصورة الغرب فيه، ص78.

" الأيام " طه حسين

الحديث عن " الأيام " حديث عن كتاب محير مثير للجدل كصاحبه. وما زال الجدل حول طه حسين، وحول كتاب الأيام إلى أيامنا هذه ، بل إننا لم نجد نصا في السيرة الذاتية اختلف فيه النقاد كاختلافهم حول " الأيام " ، وجاء الاختلاف على جميع المستويات ، وخاصة القضية الأجناسية .

فقد اختلف حول كون الأيام سيرة ذاتية أم رواية ، وتعدى الأمر حول نص الأيام نفسه ، فمن النقاد من حدد نص الأيام بالجزأين الأول والثاني ، ومنهم عده ثلاثة أجزاء مضيفا إليه " مذكرات طه حسين " ، ومنهم من تعدى هذا ، وجعلها أربعة أجزاء مضيفا إليها " أديب " ، فشوقي ضيف يرى أن الأيام جزآن وإن كان أشار إشارة عابرة إلى نشر

المذكرات "ونراه في سنة 1927 يحاول أن يكتب سيرته ، وقد نشر منها أولا جزءا خاصا بطفولته وصباه ، وكان " الأيام " ، وأتبعه بجزء ثان عن حياته في القاهرة بالأزهر والجامعة ، وأعطاه نفس العنوان ونشر ببعض المجلات أخيرا أيامه أو مذكراته عن رحلته إلى فرنسا والمدة التي قضاها فيها ، حتى عاد إلى وطنه " [1].

ولكن شوقي ضيف لم يتوقف في الدراسة إلا عند الجزأين الأول والثاني " ويبدو لنا أن هذه الإشارة السريعة لم تتعد الغاية منها ، الإعلان عن هذا الحدث الأدبي ، لأن شوقي ضيف اكتفى في استدلاله على اللحمة العضوية للكتاب بالجزأين الأول والثاني فقط ، مبينا أنهما متحدان ، في النهاية . " [2].

أما إحسان عباس فلم يشر إلى الجزء الثالث مطلقا، واكتفى بالحديث عن الجزأين الأول والثاني [3]. وعدم ذكر شوقي ضيف وإحسان عباس للجزء الثالث من الأيام أمر طبيعي لأن كتابيهما صدرا قبل صدوره بمدة طويلة . وأما محمد عبد الغني حسن فلم يحدد أجزاء الأيام ، ولم يدرسها ، واكتفى بذكرها كعنوان " ولن يفوتنا في ختام هذا الفصل أن نشير إلى حفنة من كتب التراجم كتبها أدباء وشعراء وأطباء من أهل عصرنا ، ومنها " الأيام " لطه حسين " [4].

1) ضيف ، شوقي ، الترجمة الشخصية ، ص 14.
2) الطريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 327.
3) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص 131- 134.
4) عبد الغني حسن ، محمد ، التراجم والسير ، ص 26 .

وقد تبع شوقي وعباس ، شكري المبخوت، فاعتبر الأيام جزأين ، وأشار إلى مذكرات طه حسين في الهامش قائلا:" وجل الدارسين يقصون هذا الكتاب من السيرة الذاتية ،ويرغبون في الحفاظ على عنوانه الأصلية ، لأنه مختلف من حيث فنياته عن الجزأين الأولين " [1].

ويرى ماهر حسن فهمي أن الأيام أجزاء ثلاثة " والأيام في الحقيقة ثلاثة أجزاء يتناول الجزء الأول حياة طه حسين في قريته،ويتناول الثاني حياته في القاهرة والأزهر، ويتناول الثالث – وقد طبع بعد وفاة طه حسين– حياته في بعثته بفرنسا" [2] ومن النقاد الذين رأوا أن " الأيام " ثلاثة أجزاء مضيفا إليه" مذكرات طه حسين " حسام الخطيب، وقد تميز رأي الخطيب عن غيره من القائلين بأن " الأيام " ثلاثة أجزاء " أنه كان يرى أن الجزء الثالث من" الأيام "رغم ارتباطه عضويا بمرحلة أساسية من حياة طه حسين، فإنه

لا يكاد يضيف جديدا بذكر إلى الحقائق المبسوطة في الجزأين السابقين عليه ، والسبب في ذلك أن طه حسين لم يتعمق في الجزء الثالث وقائع حياته الفرنسية الجديدة ، ولم يضف منظورا ثالثا إلى المنظورين الأساسيين اللذين قامت عليهما في نظر الناقد التجربة السير ذاتية في" الأيام".وهذان المنظوران هما:"النضال العام للإنسان من أجل البقاء والاستمرار " والنضال الخاص لإنسان مبتلى بعاهة أساسية متمثلة في فقدان البصر في حالة طه حسين " (3).

وهذا ما جعل حسام الخطيب يرى أن الجزء الثالث من الأيام لا " يزيد شيئا على هذين المنظورين ، ولا يعمقهما ، ولا يغنيهما بأفكار نوعية جديدة ، ولا يقفز منهما إلى معانيهما بل لا يهيئ القارئ تهيئة كافية إلى تجاوزهما إلى ما وراءهما ، ويشعر المرء أن هذين العنصرين استوفيا بمعناهما العام من خلال الجزأين الأولين ، وكانت نضارة التجربة ، وما رافقها من حرارة وما واكبها من عرض طازج ، كافية لأن تجعل من" الأيام " في الجزأين الأولين كتابا عظيما يشعر الإنسان بالاكتفاء ويرضي حاسة الاستكشاف , كما يرضي الذوق الفني " (4).

أما رشيدة مهران فقد جزمت بأن" الأيام ثلاثة أجزاء " كتب طه حسين " الأيام فجعلها

1) مبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين ، ص 48.
2) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، ص 280.
3) الطريطر، جليلة ،مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 329.
4) الخطيب ، حسام ، أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية ، مجلة المعرفة ، ع ،153، ديسمبر ، 1974، ص 71-72.

ثلاثة أجزاء. خص كل جزء منها بفترة معينة من فترات حياته. وأطلق اسم مذكرات "طه حسين ، على الجزء الثالث منها ، إلا أنه بالطبع الجزء الثالث من الأيام متمم لها"(1).

ويرى عبد العزيز شرف – إضافة لمن سبق – أن الأيام ثلاثة أجزاء " فلقد نشر " الأيام " في كتاب؛ الجزء الأول عام 1921، والثاني عام1940، والثالث قبل وفاته1972 ، وعلى مدى الأجزاء الثلاثة يشعرنا بمعاناته لهذا الظرف البصري ، وما يستتبعه من ألم "(2).

أما القائلون بأن الأيام أربعة أجزاء يضيفون إليه " أديب " ومصدر وصاحب هذا الابتكار – على حد تعبير جليلة طريطر – هو عبد المحسن طه بدر ، وتبعه في ذلك الرأي عبد الحميد يونس ، ويحيى عبد الدايم (3) ، فهو يرى أن طه حسين قدم لنا

" محاولته الثانية في كتاب " أديب "، ليكون حلقة الاتصال التي تربط بين الأيام في جزئها الأول الذي ظهر أثناء الحرب العالمية الثانية "(4) . وقد حاول به أن يبرر عده " أديب " جزءا من الأيام ، فيقول : " وإذا كان طه حسين قد تحدث لنا في الجزء الأول من " الأيام " عن حياته في الغربة وتعليمه في " الكتاب " ، ووعد في نهاية هذا الجزء بالحديث عن حياته في القاهرة والأزهر ، وحقق وعده هذا في الجزء الثاني من الأيام فيما بعد ؛ فإنه في " أديب " يحدثنا عن حياته في الجامعة التي انتهت بسفره في بعثته إلى باريس ، والكتاب لذلك ليس تحليلا لشخصية شاذة ولكنه في الواقع تصوير لمرحلة من مراحل حياة المؤلف نفسه " (5) .

وبعد تحليل عميق – كما يقول طه بدر – يخلص إلى القول: " وليس من التعسف بعد ذلك أن نقرر بعد ذلك أن رواية أديب، وإن اختلفت من حيث المظهر عن كتاب"الأيام" فإنها في جوهرها يمكن أن تعد الجزء الثالث منه، فهي تقدم لنا صورا من حياة طه حسين قبل أن تقدم لنا تحليلا لشخصية الأديب " (6) .

وهنا نتساءل كما تساءلت الطريطر " كيف يمكن لطه حسين أن يكتب الجزء الثالث من أيامه(الذي هو " أديب ") قبل الجزء الثاني بأربع سنوات كاملة، أليس هذا الافتراض

---

1) مهران ، رشيدة ، طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط1 الإسكندرية ، 1979، ص 251.
2) شرف ، عبد العزيز ، أدب السيرة الذاتية ، ص 66.
3) جليلة ، طريطر ، ص 330-331.
4) بدر، عبد المحسن طه، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، القاهرة، دار المعارف،1963م، ص 313.
5) المرجع السابق ، ص 313.
6) المرجع السابق ، ص 315.

مجافيا للصواب منافيا لطابع الكتابة السير ذاتية نفسها ؟ " (1) .

وقد رفضت رشيدة مهران فكرة القائلين بأن " أديب " جزء من الأيام ، ونقدت أقوالهم ، ورأت أن الكتاب يعكس شيئا من عنصر الذاتية في أدب طه حسين ، لكن لا يمكن عده ضمن التراجم الذاتية في أدبه (2) . وتخلص إلى القول : " هذا هو محتوى كتاب " أديب " أجد فيه بعض انعكاسات نفسية من أديبنا ، ولكني لا أستطيع أن أقول أنه ترجمة ذاتية له ، أو حتى أنه حلقة يجب أن تضاف إلى كتاب الأيام" (3) .

ويرى الباحث أن كتاب الأيام جزآن لا ثالث ولا رابع لهما ، أما كتاب " مذكرات طه حسين " فهو سيرة ذاتية وقد يكون متمما ومكملا للأيام ، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نستبدل عنوانه بالأيام ، لأن ذلك تدخل في رؤية المؤلف فقد يكون له هدف من هذه التسمية ، ولو أراد أن يسميه بالأيام لفعل ذلك دون استئذان ممن حوروا وغيروا بعده ، كما أن تغيير العنوان يفقده الدلالة والسيمياء .

وكما اختلف النقاد حول نص الأيام ، اختلفوا كذلك حول الجنس الأدبي،أهو رواية أم سيرة ذاتية ؟ . وقد رافق نشأة السيرة الذاتية العربية ، وكذلك نشأة الرواية ، خلط بين الجنسين ، واستمر هذا التداخل حتى وقتنا هذا ، فظهر مصطلح " الرواية السيرة " أو " السيرة الذاتية الروائية " أو" الرواية السيرة ذاتية " أو " رواية الترجمة الذاتية " وغيرها من المصطلحات القريبة . وسنتحدث عن هذا الأمر بشكل مفصل في الفصل القادم .

أما بالنسبة لكتاب الأيام ، فقد حار النقاد في جنسيته الأدبية ما بين الرواية والسيرة الذاتية ، ولعل مرد ذلك أن نص الأيام " نص مخادع ، مخاتل . فهو من النصوص التي لا تفصح عن وجوه الفن ، ولا عن مقاصدها إلا بعد معاشرة ومجاهدة " [4] .
وقد اعترف طه بدر بهذه الصعوبة التي تواجه وتحير الباحث " والواقع أن الباحث في الرواية يجد صعوبة شديدة وهو يواجه كتاب الأيام " [5] .

---

1) الطريطر ، جليلة ، ص333.
2) مهران ، رشيدة ، طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية ، ص 298.
3) المرجع السابق ، ص299.
4) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب وسيرة الآتي ، ص 45.
5) طه بدر ، عبد المحسن ، تطور الرواية العربية ، ص 297 .

وقد لاحظ شكري المبخوت أن مختلف المواقف من جنس الأيام يشترك في ثلاث نقاط أساسية : [1]

صعوبة الجزم بانتماء " الأيام " إلى جنس السيرة الذاتية , ولكن إخراج الأثر من هذا الجنس لم يقل به أي دارس لأن الجزم بأنه رواية يعسر قبوله . وهذا أمر مهم لأنه

يحصر القضية ضمنيا في جنس واحد هو السيرة الذاتية ولكنه يطرح إشكالا مداره على مدى تطابق" الأيام "مع قواعد هذا الجنس الأدبي .

1-تردد الدارسين بين الرواية والسيرة الذاتية لا يتركز في جل الأحيان على معايير صارمة تضبط الفوارق بين الجنسين الأدبيين . وقد أتخذ المبخوت بحث طه بدر أنموذجا على هذه النزعة .

2-جل الدراسات ظلت تحوم حول إشكالية الجنس الأدبي لسببين لم يبينهما جل النقاد بوضوح : أولهما غياب " عقد القراءة " أو " الميثاق السير ذاتي " وثانيهما كتابته بضمير الغائب .

ويرى الباحث أن حل هذه الخلافات يكمن في أن تعد " الأيام " من الراوية السيرة ، ولعل عدم وجود الميثاق أو التعاقد المباشر هو السبب المباشر وراء كل هذا الجدل حول جنس " الأيام " الأدبي ، فهل غموض الميثاق في " الأيام " جاء مقصودا أم أنه – كما ترى جليلة طريطر – خارج عن إرادة صاحبه " ولئن بدا نص " الأيام " في حقيقة أمره مجافيا للتعاقد الصريح متلفعا بالغموض، فالأسباب لا شأن لها بإرادة صاحبه ، بقدر ما هي راجعة إلى الظروف التي كتب فيها النص فقد أملى طه حسين أيامه في جزئه الأول دفعة واحدة ، انقطع خلالها لإملائه لفترة من الزمن لم تتجاوز الأسبوع الواحد ، وتم ذلك بصورة عفوية فقد " **دفعته الظروف القاسية** " على حد تعبيره التي مر بها إثر الضجة التي تسبب فيها كتابه " في الشعر الجاهلي " إلى إثارة ذكريات صباه وماضيه ، ونحن لا نشك البتة في أن هذه النشأة العفوية التي أكدها طه حسين في أكثر من حديث ، هي أهم سبب يمكن أن نفسر به غياب الميثاق السير ذاتي في صورته المباشرة في نص الأيام"[(2)].

ولكن كثيرا من النقاد يرون الميثاق في الأيام جاء خارجيا ومتأخرا مستخلصين

1) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص 33-34.
2) الطريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 345-346.

ذلك من تصريحات ولقاءات أجريت مع طه حسين[(1)] .

وقفات مع الأيام :

الدراسات التي قامت حول الأيام كثيرة وعديدة ، بحيث تجعل من يحاول اقتحام نص الأيام يضيع ويتوه وسط الزحام ، ولا يجد ما يقوله ويضيفه ، وقد حاول الباحث أن يسترق – من وسط هذا الزحام – و مضات و إضاءات تجلت على شكل وقفات :

الوقفة الأولى : العنوان

إن لعنوان " الأيام " دلالات عديدة ، فلفظ " الأيام " مفعم بالزمن ، وهو زمن غير محدد ، وإنما هي أيام مختارة ، فهل أراد طه حسين – ومن خلال العنوان – أن يبين لنا أنه لم يذكر سيرته كاملة ، وإنما هي أيام مختارة ومنتقاة ، وكذلك لتوحي بالتعميم ؟

الدلالة الثانية : مرتبطة بالظروف والدوافع التي كتبت في ظلها هذه السيرة ، فجل النقاد يرون أن " الأيام " جاء استجابة للمحنة التي تعرض لها طه حسين بسبب رأيه في انتحال الشعر الجاهلي ، فهل اختار " الأيام " عنوانا يوحي بأيام العرب بالجاهلية ، وما تحمل من معاني البطولة والإنتصاف من العدو ؟ وكأنه يقول لخصومه هذه أيامي ، فهو يرى في نفسه بطلا يستمد من ذاته قوته وإرادته وعزيمته ، وإذا ما علمنا أن الخطاب العام في الأيام " يقوم على إبراز فكرة أولى هي أن البطل صبي محروم عاجز ، وفكرة ثانية مفادها أنه رغم حرمانه وعجزه وصل إلى مبتغاه ، ونحت كيانه بفضل العلم والإرادة الصلبة . وأمام هاتين الفكرتين لا بد للقارئ من أن يستنتج ما قصد إليه طه حسين قصدا وهو : العلم والإصرار على التحصيل رغم العراقيل هما سبيل الرقي والتقدم . " [2] .

ولذلك رأينا أن الأيام جزءان ، واستبعدنا " مذكرات طه حسين " رغم أنها متممة له ، لأن تسميتها بالأيام تفقد العنوان دلالته ، لقد تخلى عن عنوان الأيام لسيرته الذاتية في الجزء الثالث ، وسماه " مذكرات طه حسين " وقد جاء بعد مدة زمنية تفصله عن الجزأين الأولين، وجاءت في فترة بعد ما تشكلت شخصية طه حسين ، وأصبحت الدوافع إلى الكتابة مختلفة ، وكذلك الفترة التي تتحدث عنها " مذكرات طه حسين " , فترة ذهبية ، تتحدث عن فترة الجامعة ، وعن فترة الدراسة في فرنسا ، فرغم ما فيها من مشقة جميلة

---

1) انظر ، الطريطر ، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 346-351 .
2) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص 127.

وكفاح لذيذ ، نتائجه تبعث على السعادة والافتخار ، وفترة " مذكرات طه حسين " هي فترة قطفت ثمار الكفاح المرير في فترتي " الأيام " ،لذلك اختار لها اسم " مذكرات طه

حسين " ، فخفت في " مذكرات طه حسين " ، وفي دلالة العنوان نبرة التحدي التي يوحي بها عنوان " الأيام " .

الوقفة الثانية : دلالة السياج

تطالعنا صورة السياج في " الأيام " منذ اللحظة الأولى " ، وإذا كان قد بقي ، له من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها ، فإنما هي ذكرى هذا السياج الذي كان يقوم أمامه من القصب، والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار . هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس . يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه. ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقتربا ، كأنما كان متلاصقا ، فلم يكن يستطيع أن ينسل في ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية ، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية قريبا ؛ فقد كانت تنتهي إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ، وكان لها في حياته – أو أقل في خياله – تأثير عظيم . يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرانب التي كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثبا من فوقه ، أو انسيابا بين قصبه ، إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر ، يذكر منه الكرنب خاصة . ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشى الناس ، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكرا مغرقا في التفكير ، حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر وقد جلس على مسافة من شماله، والتف حوله الناس ، وأخذ ينشدهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب ، أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارون ويختصمون ، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغطهم بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير ، ثم يذكر أنه لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرة لاذعة ؛ لأنه كان يقدر أن سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى ، فتخرج فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه ثمامة " [1] .

---

1) حسين ، طه ، الأيام ج1 ، دار المعارف ، ط41، مصر (د.ت) ، ص 4-6.

لم يلتفت الدارسون كثيرا إلى دلالة السياج في الأيام باستثناء شكري المبخوت ، فقد تنبه إلى الدلالات العميقة لصورة السياج، ورأى أن دلالة السياج تتعدى الدلالة المعجمية ،

ولهذا ألح الراوي على عبارة السياج " فبدت متضمنة لطاقة دلالية إضافية بما أنها مجمع معان متعاضدة متضافرة . فهي لا تخبر عن مكان حقيقي بسيط بقدر ما تنتج دلالات حافة لا بد من تجويد النظر فيها ." (1) .

وبعد أن جود النظر توصل إلى أن صورة السياج شكلت النواة الأصلية التي صرفها المؤلف في مختلف الفصول ، واستطاعت هذه الصورة بدلالتها العميقة أن تلخص تجربة البطل ، وتكسف عن سماته المميزة (2) .

ولهذا يرى المبخوت أن " السياج في ذهن المتذكر (البطل ؟ المؤلف ؟) يمثل فاصلا بين واقع مقيت يرفضه ويأباه ، ويسعى إلى الخروج منه وواقع جميل – هو أشبه بالحلم يسكن وجدانه وخياله وذاكرته يسعى إلى دخوله . " (3) .

إن صورة السياج ما هي إلا سياج نفسي بقيت ظلاله تطارد طه حسين منذ صغره ، وتشكل حواجز تمنعه من الانطلاق نحو الفضاء الأوسع فضاء الحرية والتغيير ، وهذا الحاجز النفسي انعكاس لحواجز مادية في حياة طه حسين ، فسياج الطفولة طوقه منذ البداية متمثلا بسياج الجهل الذي افقده بصره وأخته وأخاه، وامتد هذا السياج إلى الأزهر، ورغم أن طه حسين كان يتجاوز هذا السياج الحاجز إلا أن الحاجز أو السياج كان يتسع مداه ويظهر شبحه حتى في ذروة نجاح طه حسين ، فكان السياج الذي فجر الأيام ، وكان الدافع وراء كتابته ، وهو عند صدور كتابه في الشعر الجاهلي .

وإذا ما سمي أبو العلاء المعري برهين المحبسين ، فإننا نستطيع أن نطلق على طه حسين برهين السياجين سياج العمى وسياج المجتمع .

الوقفة الثالثة : المرجعية التراثية والغربية والإيديولوجية في الأيام

يرى يحيى عبد الدايم في " الأيام " أنموذجا لالتقاء الثقافتين الغربية والشرقية ، فكتاب الأيام صرخة احتجاج على الظلم والجهل وعلى كل من يحاولون الوقوف في وجه التغيير والتطور ، وطه حسين ، رغم أفكاره الغربية والتحررية إلا أنه يبقى ابن الأزهر

1) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب وسيرة الآتي ، ص 57.
2) المرجع السابق ، ص 59.
3) المرجع السابق ، ص 58.

فبقي على صلة مع التراث العربي القديم ، وعندما تحدثنا عن الظروف الحضارية سابقا رأينا كيف أن الأزهر لعب دورا إيجابيا تمثل بربط جيل النهضة بالتراث ، فرغم السلبيات

الكثيرة التي يمكن أن تسجل على الأزهر ، إلا أن المحافظة على التراث يبقى شيئا مضيئا في تاريخ الأزهر ، ولهذا تأثر طه حسين بالكتاب العرب القدامى في أسلوبه " ويسيطر على جو " الكتاب " كله طابع أسلوب المؤلف الذي لا يظهر في كتاب الأيام وحده ، ولكنه يظهر في أغلب كتبه الأخرى ، والذي يتميز بالأصالة ، والتأثر بأعمال الأئمة من كتاب العرب القدامى ، وخاصة بالجاحظ " [1] .

ويظهر تأثره بالجاحظ – في كتاب الأيام – من خلال أسلوب المحاججة والجدال ، أما علاقة طه حسين بالثقافة الغربية ، فأمر مفروغ منه ، فقد أطلع على الثقافة الغربية بشكل عام ، والفرنسية بشكل خاص من خلال دراسته وإقامته في فرنسا ، وقام جدل كبير حول علاقته بالغرب ، بل وصل الأمر أن عده كثير من الدارسين بوقا للغرب ويرى الأب كمال قلته أن الفكر الفرنسي ، بالنسبة إلى طه حسين " أكثر من مدرسة ومعين ، كان جزءا من حياته ، وجزءا من إنتاجه ، حتى تكاد تحسب من خلال قراءة ما كتبه عن فرنسا وعن أدباء فرنسا ، وعن تاريخ فرنسا ما يقنعك بأن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسيا فكرا وعقلا وثقافة وإحساسا ، فعلاقة طه حسين بالفكر الفرنسي ليست علاقة أخذ فقط ، أي لم يكن طه حسين منفعلا أمام هذا الفكر ، وإنما استطاع بقدرته الفائقة أن يكون فاعلا أيضا، إيجابيا منتجا ، يمكن أن تقارن ما كتبه ، بالفكر الفرنسي أدبا ونقدا وتاريخا ، بما كتبه كبار الأدباء والنقاد والمؤرخين الفرنسيين " [2] .

وقد عكس طه حسين في أيامه فكره وأيديولوجيته ، فبعد أن عايش المظاهر الغربية ولمسها ، ووقف على أسباب التقدم والرقي ، رفض كل مظاهر الجهل والتخلف ، ورفض الواقع المر الذي عايشه ، فضمن الأيام نقدا مرا يعتمد على السخرية والحجاج ، فنقد وسخر من رجال الدين ، ومن المؤسسات التعليمية ، ومن كل المجتمع ، وقد وصف طه حسين فكرة الداعي إلى التغيير والثورة والتقدم والسعي نحو الأفضل والأمثل عن طريق العلم والمعرفة " وهذا ما ينسجم مع فكر طه حسين في كتاباته الأخرى بما أنه صاحب

---

1) طه بدر ، تطور الرواية العربية ، ص 312.

2) الاستانبولي ، محمود مهدي ، طه حسين في ميزان العلماء والأدباء ، المكتبة الإسلامية ، ط1 ، بيروت 1983، ص 402.

مشروع في الحداثة العربية . ولكن " الأيام " تقول هذا بالإيحاء والتمثيل بعد أن قاله صاحبه بالإفصاح والمفاهيم . وليس غريبا أن يكون " الأيام " أشد تأثيرا في النفوس من " الشعر الجاهلي " أو " مستقبل الثقافة في مصر" فتعقيد المفاهيم مختلف عن إيصال الفكرة بالتمثيل. "[1] .

1) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص 130.

الفصل الثاني :

السيرة الذاتية والأجناس الأدبية

قضية تداخل الأجناس ليست مقصورة على الأجناس الأدبية فقط ، وإنما شملت أجناس الفن بشكل عام ، فهناك تداخل بين الفنون التشكيلية والفنون الأدبية والفنون الموسيقية وغيرها من الفنون ؛ ذلك أنها تفضي إلى بعضها بعضا ، وكذلك قد تشترك في الرؤية والفلسفة والهدف والغاية .

أما الأجناس الأدبية فتواصلت مع بعضها،واختلطت،بحيث وصلت إلى حد يصعب – في بعض الأحيان – التفريق بينها ، حتى وصل الأمر عند بعض النقاد أن لا أجناس أدبية ، وإنما هي جنس واحد .

وعند الحديث عن السيرة الذاتية ، فإن أول ما يقفز إلى الذهن قضية الأجناس الأدبية، فقد لاحظنا – في بداية الدراسة – حيرة النقاد في إيجاد تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية، مما أدى إلى عدم وضوح المفهوم، وكذلك عدم وضوح الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية والأجناس الأدبية الأخرى خاصة القريبة منها .

وتحاول الدراسة – في هذا الفصل– تبيان الأشكال الأدبية القريبة من السيرة الذاتية ، ومحاولة تمييزها عن بعض،فقد تداخلت السيرة الذاتية مع التاريخ والسيرة الغيرية والمذكرات ، واليوميات، والرواية، وهناك أجناس أخرى كثيرة كالرسائل والمفكرات والرحلات ، ولكن اخترنا أكثرها التباسا بالسيرة الذاتية .

السيرة الذاتية والتاريخ :

يرى جل النقاد أن السيرة الذاتية ، والسير بشكل عام ، نشأت في أحضان التاريخ " ففي أحضان التاريخ – إذن – نشأت السيرة وترعرعت، واتخذت سمتا واضحا، وتأثرت بمفهومات الناس على مر العصور " [1] .

وقد ظهر أثر التاريخ – كما لاحظنا في الباب الأول – على مستوى التعريف ، فلفظة التاريخ وردت في كثير من التعريفات .

وقد تقترب السيرة الذاتية من التاريخ ، وقد تبتعد ، ولكنها لا يمكن أن تكون – في أي حال من الأحوال – تاريخا محضا ، فلكل فلسفته وغايته " حتى إذا تغيرت النظرة إلى التاريخ ، وأصبحت له فلسفته الخاصة ، أخذ بعض الباحثين المحدثين يتساءل: أحقا أن السيرة جزء من التاريخ ؟ وقد أنكر الأستاذ كولنجود collingwood اعتبار السيرة كذلك، لأنها تفقد القاعدة الصحيحة التي يقوم التاريخ عليها ، فحدود السيرة هي الأحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته ، من طفولة ونضج وأمراض وغيرها ، فهي صورة للوجود الحيواني الجسماني ، وقد يرتبط بها كثير من العواطف الإنسانية ، ولكن هذا كله ليس تاريخا . وإلى مثل هذا يذهب توينبي toynbee أيضا ، فهو يخرج من دائرة التاريخ ما يتصل بالسير الذاتية كاعترافات القديس أوغسطين ، وروسو ، أو حياة الملكة فيكتوريا لستراتشي " [2] .

قد تتشابه السيرة الذاتية مع التاريخ في عملية التحري والصدق، وكذلك في الرجوع – أحيانا– إلى الوثائق والمدونات والرسائل، وكذلك في تسجيلها أحداثا ، وحديثها عن أشخاص، ولكن الفرق بينهما يكمن في درجة التركيز على الأحداث والشخوص " وكلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع ، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة ، أو منعكسة منها ، أو متأثرة ، فإن السيرة – في هذا الوضع – تحقق غاية تاريخية ؛ وكلما كانت السيرة تجتزئ بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى ، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة ، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة"[3] .

1) إحسان ، عباس ، فن السيرة ، ص **10–11**.

2) المرجع السابق ، ص **11** .
3) المرجع السابق ، ص 12 .

ومما يميز السيرة الذاتية عن التاريخ أن التاريخ يهتم بتوثيق الحقائق كما هي ، معتمدا على الوثائق والمدونات والمصادر العلمية ، أما كاتب السيرة الذاتية ، فرغم أنه قد يستعين ببعض مذكراته ووثائقه ، إلا أنه يعتمد على الذاكرة ، والذاكرة قد تخون أحيانا ، فتسقط أحداثا كثيرة ، وهنا يبرز الفرق الأساس بين السيرة الذاتية والتاريخ ، وهو أن السيرة الذاتية عملية أبداعية فنية تمزج بين الحقيقة والخيال .

" ومن المسلم به أن الذاكرة تنسى كثيرا مسببة لصاحبها الألم ، وتعي كثيرا مما يسبب له لذة التذكر . ومن المؤكد أن الذاكرة لا تنسى فقط ، ولكنها قد تخدع أيضا ، فتخلط الأسماء والأزمان والأماكن " (1) .

1) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة الذاتية تاريخ وفن ، ص 247.

السيرة الذاتية والمذكرات :

من الأجناس الأدبية التي تداخلت واختلطت مع السيرة الذاتية المذكرات وللتشابه الكبير بينهما كثيرا ما خلط المؤلفون،وكذلك النقاد بينهما،فكثيرا ما يكتب كاتب ما مذكراته أو حياته، ويطلق عليها سيرة ذاتية، أو يكتب سيرة ذاتية، ويطلق عليها مذكرات أو يوميات .

وقد تتبع جورج ماي الخلط بين الجنسين تاريخيا ، ووجد أنه " لما كان ظهور كلمة " مذكرات " في اللغة سابقا بقرون على ظهور كلمة " السيرة الذاتية ، فلا عجب أن تكون كلمة " المذكرات " قد أطلقت على مجموعة من التواليف أكثر بكثير من تلك التي أطلق عليها اسم " السيرة الذاتية " " (1) .

ويرى ماي أن كثيرا من المؤلفات لكبار الأدباء حملت عنوان المذكرات رغم الاختلاف بينهما " والحال أن ما بينهما من الاختلاف وتنوع الأهداف لم يمنعهم أن يستعملوا جميعا العنوان نفسه ، وهو المذكرات سواء أكان مجردا أم موصوفا بلفظ واحد أو مركب ، ومن ثمة ندرك كيف أن هذه الكلمة التي بلغت من الإغراء حدها ، ومن المرونة غايتها ، قد دعت بعض الكتاب إلى أن يفرطوا في استخدامها بدرجات من الدهاء متفاوتة ، وإلى أن يسبغوا عليها معاني جديدة غير مألوفة أحيانا " (2) .

إذن رغم الفرق بين المذكرات والسيرة الذاتية إلا أنهما استخدما كمرادفين لبعض ، وسواء أكان ذلك بوعي أو بغير وعي ، فإن في ذلك تجنيا على الجنسين .

وقد حاول النقاد التفريق بين الجنسين " المذكرات والسيرة الذاتية " من خلال رصد أوجه الاختلاف بينهما ، ولكنهم – رغم محاولاتهم هذه – يعترفون أنه غالبا ما يصعب بيان الحدود الفاصلة بشكل قاطع بين السيرة الذاتية والأشكال الأخرى وخاصة المذكرات . ونجد جل النقاد يتفقون على أن كاتب السيرة الذاتية يركز على تفاصيل حياته الشخصية ، وأما كاتب المذكرات ، فإنه يهتم بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهد العامة أكثر من اهتمامه بتصوير حياته الخاصة ، فتأتي حياته الخاصة جزءا من هذه البيئة،ولا تشكل المحور الأساسي، وبينما الاهتمام بالسيرة ينصب على أهم أحداث حياة الكاتب ،

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **125**.
2) المرجع السابق ، ص **125**.

وتتبع تكوين شخصيته ومسارها " والسيرة الذاتية ليست سيرة الأعمال والأحداث نفسها ، ولكنها سيرة إنسان يعمل. وعلى ذلك تكون الشخصية قبل الحدث،والشخصية في تطورها، وأثر الحدث الخارجي في تحريكها، فالأحداث رموز على مسار الشخصية ، رموز توحي إيحاء،ورموز تتجمع لتفتح لنا مغاليق الشخصية، وتشير إلى منعطفاتها مهما تباينت مناهج عرض الذات "[1].

قلنا في بداية الحديث إن النقاد اعترفوا بصعوبة تبيان الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية والمذكرات، ولعل هذا ما دفع جورج ماي إلى القول:" إننا كلما أوغلنا في البحث عن الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية والمذكرات ، ازددنا يقينا من أنها غائمة زئبقية قلب وهمية. فلئن جاز لنا أن نساير النقاد من حيث المبدأ في تأكيدهم قدرتهم على استشفاف السيرة الذاتية من خلال ما تختص به من " نبرة " ونوعية حضور و" تميز للصوت " ، فإنه لا مناص لنا من الإقرار بأن مقاييس كهذه ذاتية مفرطة في الذاتية إلى حد أنها تمنع حصول الإجماع بين القراء . ولما كانت السيرة الذاتية سليلة المذكرات ، فإنها لم تحظ في الواقع إلا باستقلال ذاتي هش لا يعدل ذلك الاستقلال الذي حظي به اسمها . إن تاريخ هذا الاسم هو بدون شك صورة لطبيعة السيرة الذاتية ، ولكنه مع ذلك لا يضبط لها حدودا ، ولا يجعل لها قيودا"[2]. وقد استطاع ماي في هذا الكلام تلخيص المشكلة بمختلف أبعادها.

ويبدو أن الخلط بين المذكرات والسيرة الذاتية لم ينته ، ولن ينتهي ، فقد صدر حديثا في عمان عن دار ورد سيرة ذاتية للإعلامية نهى بطشون تحت عنوان "راهبة بلا دير" وهي أقرب للمذكرات منها إلى السيرة الذاتية [3] .

1) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، ص **251**.
2) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **173**.
3)بطشون،نهى، راهبة بلا دير،عمان، دار ورد، ط1، 2010م .

السيرة الذاتية واليوميات :

عند الحديث عن السيرة الذاتية والمذكرات لاحظنا أن المذكرات أقدم وأعرق من السيرة الذاتية ، أما اليوميات فالسيرة الذاتية أقدم وأعرق منها " إن استطعنا أن نتفق على تاريخ لظهور طريقة من طرائق الكتابة ، أو تاريخ لظهور جنس أدبي مخصوص ، جاز لنا أن نعتبر أن السيرة الذاتية أعرق من اليوميات " (1) .

يتفق النقاد على أن اليوميات " سجل للتجربة اليومية، والحفاظ على عملية حياة المرء بالذات دون نظر إلى التطور الذي يحاكي نموذجا معينا، أو التواصل القصصي،أو الحركة الدرامية نحو ذروة ما " (2).

وللتفريق بينها وبين السيرة الذاتية رأى جورج ماي أن كلمة يوم تختلف عن كلمة حياة " ومن ثم فإن اليوميات مشتقة من كلمة يوم ، تكتب يوميا بانتظام ، ولا يدون فيها صاحبها كل مرة إلا ما وقع له في الفترة القصيرة التي تفصله عن التدوين السابق . أما السيرة الذاتية، أو إن شئت المذكرات السير ذاتية ، فإنها تشمل حياة المرء في مجموعها ، ومن ثم فإنها تكتب بعد أن يكون قد انقضى من تلك الحياة شطر كبير"(3). ولكن ماي يعود ليعترف أن " مقياس المدة الزمنية وحده لا يتيح لنا ضبط الحد الصحيح الفاصل بين السيرة الذاتية واليوميات الخاصة ، وإنما هو يبرز ما يجمع بينهما ، أعني التأمل في الماضي "(4) .

ولكن أوجه الاختلاف بين اليوميات والسيرة الذاتية – كما يرى ماي – تكمن في البون الزمني الفاصل بين الحدث وتدوينه ، فالفترة الفاصلة بين زمن التجربة وزمن تدوينها تكون في السيرة الذاتية أكبر منها في اليوميات ، ولهذا فإن السيرة الذاتية لا تسجل إلا ما صمد في الذاكرة في وجه الزمن ، وهو في العادة يكون عظيم الشأن وجوهريا " أو ليس أقرب إلى الحكمة أن نترك النسيان يفعل فعله، فيبقي على أمور، ويقطع دابر غيرها، ونعود فنذكر أننا لسنا هنا بصدد الموازنة بين ما للذكرى القريبة والذكرى البعيدة من صدق نسبي،وإنما همنا أن نبرز ما بينهما من اختلاف نوعي. فلنقر على كل حال بأنه لئن

---

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **155**.

2) شرف ، عبد العزيز ، أدب السيرة الذاتية ، ص **44**.
3) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **156**.
4) المرجع السابق ، ص **157**.

جاز القول إن ميزة اليوميات تتمثل في دقتها و صحتها ، فإن ميزة السيرة الذاتية تتمثل خلاف لذلك في تأخر كتابتها عن زمن التجربة . ومهما يكن من أمر فإن الفرق بينهما يبدو أظهر في هذه المسألة "[1] .

ولعل أهم أوجه الاختلاف –التي توصل إليها ماي – بين السيرة الذاتية واليوميات هي البناء المتماسك في السيرة الذاتية مستشهدا بقول " بياتريس ديديي": " إن المدة الفاصلة بين زمن القصة وزمن الحدث هي التي تمكن الكاتب من أن يصور مغامرته على نحو متماسك بعد أن يكون قد مر على حدوثها زمن، أما تدوين الأحداث يوما بيوم فلا يمكن أن تنتظمه بنية " [2] .

أما النقاد العرب فحديثهم عن اليوميات في سياق السيرة الذاتية فقد جاء مقتضبا وسريعا مركزين فيه على تعريف اليوميات والتفريق بينها وبين السيرة الذاتية بجمل مختصرة، فيحيى عبد الدايم يرى أن السيرة الذاتية ليست كاليوميات التي " تبدو فيها الأحداث على نحو متقطع غير رتيب " [3] .

وقد سبق يحيى عبد الدايم ماهر حسن فهمي في الحديث عن اليوميات ، وتوصل إلى أن الكثيرين " يكتبون اليوميات، ولكنهم يستعينون بها في كتابات أخرى كالرحلات والقصص وما إلى ذلك، لأنها أعجز من أن تقف وحدها على قدميها لضعف المادة ونضوب الحيوية " [4] .

ويرى شكري المبخوت أن الاختلاف بين السيرة الذاتية واليوميات أن اليوميات " تفتقر إلى المنظور الاستعادي في القص"[5] وقد تبعه في هذا الرأي تهاني شاكر[6] .

---

1) ماي ، جورج ، ص **162–163** .
2) المرجع السابق ، ص **163–164**.
3) عبد الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص **3**.

4) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، ص **270**.
5) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص**16** .
6) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 20.

السيرة الذاتية والسيرة الغيرية :

لقد لاحظنا في الباب الأول أن السيرة والسيرة الغيرية في الأدب العربي القديم أقدم في الظهور والاستعمال من السيرة الذاتية ، بل إن السيرة الذاتية بداياتها وإرهاصاتها في الأدب العربي القديم ارتبطت بكتب التراجم والسير، ولم تختلف السيرة الذاتية عن التراجم والسير الغيرية ، إلا في كون صاحبها يكتبها عن نفسه لا عن غيره، وجاءت – في أغلبها – ذيلا على كتب التراجم والتاريخ ، وحتى التي جاءت مستقلة ظلت لفترة طويلة مباشرة بالسير والتراجم ، وقد لاحظنا أن السيرة الغيرية ارتبطت بسيرة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومغازيه .

وعند محاولة التفريق بين السيرة الذاتية والغيرية نجد أن النقاد يرتكزون على قضية التطابق بين السارد والشخصية الرئيسة والمبدع في السيرة الذاتية ، وعدم التطابق في السيرة الغيرية،ولكن السمة الأساسية والمشتركة بينهما تكمن في المقصد وهو " طموحهما الأساسي إلى جعل حياة إنسانية حقيقية موضوع كتاب "[1] .

والدافع إلى هذا الطموح – كما يرى محمد عبد الغني حسن – تتدرج تحت عنوان عام " هو الإعجاب ، الإعجاب بالنفس في السيرة الذاتية ، والإعجاب بالغير في السيرة الغيرية، وإن كان هذا الإعجاب لا ينبغي أن يطغى، فيجعلنا نقف موقف المدافعين عن أنفسنا،أو عن غيرنا ، حتى لا ننحرف بعنصر أصيل هو عنصر المطلوب ، لأنه الأساس الذي تبنى عليه السيرة بنوعيها " [2] .

ونهاية الكلام السابق تعود بنا إلى فرق مهم بين السيرة الغيرية والذاتية والمتمثل بدرجة الذاتية والموضوعية في كل منها ، فالذاتية هي العنصر الأبرز في السيرة الذاتية ، أما السيرة الغيرية فالعنصر الأبرز فيها يقوم على الموضوعية ، وهذا لا يعني أن يتجرد كاتب السيرة الذاتية من الموضوعية،بل يجب أن يكون" موضوعيا أيضا في نظرته لنفسه، بمعنى أن يتجرد من التحيز لنفسه ، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث ، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلقها بذاتها ، وحبها لاعلاء شأنها ، وتنقصها من أقدار الآخرين " [3].

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **173**.
2) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة الذاتية تاريخ وفن ، ص **254**.
3) عباس ، إحسان ، فن السيرة ، ص **102**.

ومن الفروق بين السيرة الذاتية والغيرية أن كاتب الأولى ينقل نقلا مباشرا بينما كاتب الثانية يعتمد على الوثائق والمذكرات والرسائل والإنتاج الأدبي وغيرها ، وهذا لا يعني أن كاتب السيرة الذاتية لا يستعين أحيانا ببعض المذكرات والمفكرات و الرسائل ، ولكن هذه الاستعانة تأتي لتذكره بالحدث كي ينتزعه من أعماق ذاته ؛ ولهذا فإن " المواد التي يستخدمها كاتب السيرة ، شأنها شأن المواد التي يستخدمها المؤرخ ، خارجة عنه ، وبالتالي فإنه منفصل عنها انفصالا لا يمكنه من أن يخضعها للنقد الموضوعي الذي ينبغي أن يكون أساس" التاريخ القائم على المبادئ العقلانية " ، ... أما كاتب السيرة الذاتية فمدار عمله على مواد ذاتية أساسا وهي ذكرياته الخاصة . ومهما بذل من جهد ، فلا مناص له من أن يكون الخصم والحكم " [1] .

ونجد الاختلاف بين السيرة الذاتية والغيرية في كيفية تحليل الشخصية ورسمها من أجل كشف أعماقها " فكاتب السيرة الذاتية يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج بمعنى أنه يقدم الانفعالات ، ثم أثرها الخارجي أو بروزها في شكل أحداث ، أما كاتب السيرة الغيرية فليس أمامه إلا أحداث في أكثر الأحيان ،و منها يتعمق إلى الداخل أو يقدم الشخصية من الخارج إلى الداخل " [2] .

ومن الفروق بين السيرة الذاتية والغيرية قضية الزمن ، فمسار الزمن في السيرة الذاتية ينطلق عكسيا من الحاضر إلى الماضي " وهذا شرط لابد منه في جنس السيرة الذاتية ، إذ إن كاتبها ، حين يمسك بقلمه في الحاضر ، لا يجد منفذا إلى مصادره التي تقبع في تلافيف ذاكرته إلا بان يجدف عكس مجرى حياته "[3] .

أما كاتب السيرة الغيرية ، فالمنطقي أن ينهج الترتيب العادي للزمن متبعا جميع المراحل الزمنية لشخصيته حتى موته ، ولعل هذا ما جعل النقاد يقولون بنقص السيرة الذاتية ، وتكامل السيرة الغيرية [4] .

---

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **176**.

2)حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، ص **254**.
3) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص **177-178**.
4) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، ص **254**.

السيرة الذاتية والرواية:

لاحظنا في المحاور السابقة كيف أن السيرة الذاتية تتشابك وتتعالق وتتداخل مع أجناس أدبية كثيرة، بسبب اقتراضها من هذه الفنون الأدبية واستعارتها أعراف فنون مشتركة، وقد استطاع النقاد – رغم هذا التشابك والتعالق – أن يميزوا بين السيرة الذاتية وهذه الفنون القريبة، سواء بسهولة أم بصعوبة، ولكن الأمر يختلف عند الحديث عن السيرة الذاتية والرواية، لأن التشابك والتداخل والتعالق يعد أكثر تعقيدا، ونتيجة لذلك تصبح عملية التفريق والتمييز بين الجنسين أكثر صعوبة .

ولعل السؤال الذي يلح علينا – في هذا السياق – هو من الذي استعار من الآخر ونسج على منواله ؟ أهي الرواية أم السيرة الذاتية ؟.يرى نقاد السيرة الذاتية ومنظورها أن السيرة الذاتية هي التي استعارت من الرواية؛لأنه " لما كان نضج الرواية سابقا في الزمن على نضج السيرة الذاتية ، فليس لنا أن نستغرب من أن تكون السيرة الذاتية قد أخذت عند نشأتها الطرائق السردية التي سبق أن اعتمدت في كتابة الرواية " (1) .

ولهذا نجد السيرة قد اتخذت الرواية مثالا لها يحتذ ى في النشأة ؟ ، فهناك أجناس أدبية أقدم من الرواية ولم تتأثر بها السيرة الذاتية, ويرى جورج ماي أن السبب الرئيس لهذه العلاقة المتميزة بين الرواية والسيرة الذاتية يكمن في المقصد المشترك " ذلك أن أهم سبب في قيام علاقة مميزة بين (الرواية والسيرة الذاتية) إنما يتمثل بداهة في أن السيرة الذاتية قد جعلت لنفسها هدفا مماثلا لهدف فصيلة كاملة من الروايات، وهو أن تقص علينا حياة شخص"(2). إن تداخل السيرة الذاتية مع الرواية وتعالقهما في الأدب العربي الحديث جاء مبكرا فبدايات السيرة الذاتية، وكذلك بدايات الرواية،جاءت متداخلة مع بعضهما فالبداية الحقيقة للرواية العربية والمتمثلة بزينب عدها كثير من النقاد من روايات الترجمة الذاتية،والبداية الحقيقية للسيرة الذاتية والمتمثلة بالأيام،دار جدل واسع حول جنسها الأدبي هل هي رواية أم سيرة ذاتية ؟ وقد لاحظنا ذلك عند دراستنا للأيام في الفصل السابق،ولم يتوقف الأمر عند هذين العملين الأدبيين، بل تعداهما إلى معظم ما كتب من روايات في تلك الفترة ك " سارة " للعقاد، و" إبراهيم الكاتب" للمازني، و"عودة الروح " للحكيم .

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص 183.
2) المرجع السابق ، ص 189 .

فهل صحيح أن الروائي مجبر في روايته الأولى أن يكتب سيرته الذاتية،لأن تجربته الشخصية تسيطر عليه، وتجبره على توظيفها في عمله الروائي الأول ؟.

ولكن ما الذي يجعل كاتب السيرة الذاتية يلجأ إلى الرواية عند كتابة سيرته ؟ هل هو التخفي خوفا من المجتمع والسلطة وخوفا من الانفضاح ؟ أم هو محاولة تعويض ما تنساه الذاكرة ، وتجميله بالخيال؟ " فقد يحاول الكاتب أن يقص سيرته الذاتية ، ولكنه في نفس الوقت يرفض الاعتراف أمام الجمهور،لأن العقل يجد الاعتراف مخجلا،وهنا يرى الكاتب نفسه حائرة وفي موقف متناقض ، ولا حل لهذا التناقض، إلا أن يجد رموزا أو بدائل تكفل له السلامة ، فيلجأ إلى القصة ، ويتخير لها بطلا يمثله ، وأسماء مستعارة تمثل الشخصيات التي التقى بها في الواقع، وأحداثا ترمز إلى تجاربه الذاتية، وهذا هو التخفي . وعلي هذا فسيرته الذاتية هنا لن تكون تاريخا ، بل مجرد رموز ، فقد امتزجت في القصة المواد الخاصة والعامة لتؤلف شيئا جديدا ، .... وهكذا نجد التجارب الذاتية قد ذابت في الأخبار المروية وعمل الخيال عمله في الاختيار والربط والتركيب " [1] .

إذن ففي أدب السيرة الذاتية فضاء تنشط فيه الذاكرة الفردية ، يقوم الكاتب باسترجاع مكثف لتفاصيل حياته ، وأثناء عملية الاسترجاع قد تخونه الذاكرة ، أو قد تتشوه وتنتقض الصورة ، ولسد هذا النقص، وهذا الفراغ، يعمد كاتب السيرة الذاتية إلى ربط الواقع بالخيال، وذلك من خلال عملية الإبداع في رواية السيرة .

ولهذا تعكس رواية السيرة الذاتية واقعا ذاتيا غير مطلق ، وذلك من خلال الجمع بين الحقيقة والخيال ، ولكنه خيال لا يخل بمصداقية الواقع . ولهذا يجب ضبط الخيال في رواية السيرة الذاتية، حتى لا ينأى بصاحبه عن الواقع، ولا يوقعه في شرك الكذب والتخريف، الذي قد يهدم جسر التواصل والتعاطف مع القارئ القائم على الصدق والصراحة ." إن ما يميز موقفنا عند قراءة سيرة ذاتية عن موقفنا عند قراءة رواية ،ليس كون الأولى حقيقة، والثانية خيالية، وإنما كون الأولى تظهر لنا في لبوس الحقيقية والثانية في لبوس الخيال . إن الصلة التي يعقدها الكاتب بين تأثره ، وبين قارئ هذا الأثر تختلف اختلافا جوهريا في السيرة الذاتية عنها في الرواية " [2] .

1) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، 294-295 .
2) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص 192.

ولكن يجب أن نتنبه هنا إلى أن ضبط الخيال مسألة نسبية ، ولا تعني فرض القيود الصارمة على الخيال ؛ لأنه حتى في السيرة الذاتية المحضة لن تتحقق لها القيمة الفنية الإبداعية إذا تحررت من الخيال . وهنا نذكر ما أورده مترجم " خطاب الحكاية " لجرار جينيت عن رؤية "بروست " في" بحثا عن الزمن الضائع " إذ يقول :" تتبدى رؤية بروست الجمالية في المقاطع التي نشرها الناقد برنار فالوا سنة 1954 تحت عنوان " ضد سانت بوف " . وتقوم الرؤية في هذه السطور على ربط فعل الكتابة بفعل التذكر ، فمن رأي بروست أن الفنان يكشف جوهر الكائنات والموجودات والفضاءات والأزمنة ، انطلاقا من تذكر الأحداث ، ومن الأحاسيس المعيشة التي صارت في وعي الفنان مجرد ذكريات مبهمة . ومن ثم ليست مهمة العمل الفني عرض واقع معطى ، أو التعبير عن أفكار مسبقة ، وإنما إعادة خلق الواقع بنقله من صعيد الواقع ، ووضعه على صعيد الخيال والتعبير والأسلوب .

ذلك أن دلالة العمل الفني لا تتأسس إلا في الأبنية الملتفة ،والمعقدة، والأفعوانية المسبوكة من النسخ، والاسترجاعات، والتعارضات ،وتحريفات الواقع . وكما أن هدف العمل الفني لا يتحدد في " وصف الأشياء "، وفي محاكاة الواقع محاكاة كلية أو جزئية ، كذلك ليست الغاية ممارسة لعبة المرآة مع حياة المؤلف. وفي هذا الصدد نقول مع رولان بارط: " لقد أمد بروست الكتابة الحديثة بلحمتها : فبفضل انقلاب جذري تخلى بموجبه عن وضع حياته في أعماله كما يقال ، جعل من حياته نفسها عملا أدبيا كان كتابه نموذجا عنها" [(1)] .

وأمام هذه المعطيات ، وهذا التداخل والتعالق ما بين الرواية والسيرة الذاتية ،سنجد أنفسنا أمام كم هائل من الروايات التي يمكن لنا أن يكون انعكاسا – وإن كان بدرجة متفاوتة – لشخصية مبدعة ، والحال هذه لابد من ضوابط تضبط الأمر . لقد حاول نقاد السيرة الذاتية ، ومنظروها ، وعلى رأسهم فيليب لوجون ضبط الأمر، ولهذا اقترح علينا (لوجون) ما سمي بالميثاق السير ذاتي ، والذي اشترط فيه التطابق بين السارد والكاتب ، وأن يصرح الكاتب بأن ما يكتب سيرة ذاتية .

1) جينيت ، جرار ، خطاب الحكاية ، ص 8-9 .

ويرى(لوجون) أن " التطابق ليس هو التشابه ، فالتطابق حقل مدرك بشكل مباشر – مقبول أو مرفوض _على مستوى التلفظ ، والتشابه علاقة ، موضوع للمناقشات والفروق غير المحدودة المقامة انطلاقا من الملفوظ . يتحدد التطابق انطلاقا من ثلاثة مصطلحات :

المؤلف ، السارد ، والشخصية هما الصورتان اللتان تحيل إليهما ، داخل النص عن طريق أسمه ، هو إذن المرجع الذي تحيل إليه انطلاقا من ميثاق السيرة الذاتية ، ذات التلفظ، فما أن يتعلق الأمر بالمشابهة حتى يغدو إتمام مصطلح تماثلي من جهة الملفوظ ، مرجعا خارج نصي يمكن أن تسميه بالمثال المحتذى ، أو بطريقة أفضل النموذج . لقد دفعتني ملاحظاتي حول التطابق إلى تمييز رواية السيرة الذاتية عن السيرة الذاتية بالخصوص ، أما بالنسبة للتشابه ، فإن ما سيكون من الواجب تحديده هو التعارض مع السيرة . زد على ذلك أن مصدر الخطأ في كلتا الحالتين هو مصطلح ، فمصطلح " رواية السيرة الذاتية " قريب جدا من مصطلح السيرة الذاتية " [1] .

أعتقد أن هذه الضوابط التي وضعها فيليب لوجون والمتمثلة بالميثاق السير ذاتي ضرورية ؛ لأننا إذا أغفلنا مثل هذه الضوابط ، سنجد أنفسنا أمام كم هائل من الروايات التي يمكن قراءتها على أنها رواية سيرة ذاتية مجرد وجود تشابه بين شخصية البطل في الرواية وشخصية المؤلف، أو وجود أحداث نفسية لواقع بعض المحيطين بواقع المؤلف ، ولو أخذنا مثل هذه المقاييس لجاز لنا أن نعد كل النتاج الروائي رواية السيرة الذاتية ؛ لأن مبدع الرواية ، أو أي نص أدبي ، لابد أن يضفي على هذا النص تجاربه وواقعه ،بل يسكب روحه فيه ، وعندنا في الأردن كثير من الروايات عكست التجارب الشخصية لمؤلفها كروايات غالب هلسه وتيسير سبول ، وقد لاحظ الباحث ذلك عند دراسته لرواية " أنت منذ اليوم " وقد لاحظ ذلك كثير من النقاد ، أن بطل الرواية "عربي" يتشابه كثيرا مع شخصية تيسير سبول سواء على مستوى الأفكار أم على مستوى التصرفات ، فمحاولات "عربي" الانتحار في الرواية هي محاولات تيسير سبول في الواقع ،وإن لم يستطع "عربي " الانتحار في الرواية إلا أنه استطاع تيسير سبول ذلك على أرض الواقع [2] . ولكن هل

1) لوجون ، فيليب ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ ، ص 51-52.
2) بني عمر ، زياد ، آراء تيسير سبول النقدية ومدى اتساقها مع أدبه ، رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ، 2006 ، ص 122-123.

تعد مثل هذه الروايات رواية سيرة ذاتية ؟ ، هذا أمر فيه غلو شديد ، ولو أخذنا به لعددنا روايات نجيب محفوظ جميعها رواية سيرة ذاتية .

وقد شكل هذا الخلط مشكلة نقدية، إذ أصبح كثير من النقاد يقرؤون روايات كثيرة قراءة نقدية سير ذاتية ، رغم أن أصحابها استنكروا مثل تلك القراءات . وقد شكلت هذه القراءات ظاهرة متميزة في النقد السعودي ، وقد لفت ذلك نظر صالح الغامدي ، الذي عد ذلك جناية " إن المبالغة في ممارسة النقد السير ذاتي للرواية السعودية له – في اعتقادنا – آثار سلبية كثيرة على النص الروائي ومبدعه ، وربما كانت هذه الآثار السلبية معيقة لهما أحيانا . فالنقد السير ذاتي يسطح العمل الروائي ويفقره ، وذلك من خلال تركيزه على جانب واحد ضيق من جوانب النص هو الجانب الفكري المضموني ، وإهماله لتحليل التقنيات السردية والأبعاد التخيلية للنص"[1] وقد بين الغامدي الأثر السلبي الذي يلحقه هذا الفهم النقدي بالروائي أو المبدع " فإنه فيما يتعلق بالأثر السلبي الذي يلحقه هذا المنهج النقدي السير ذاتي بالروائي أو المبدع ، فإنه يكمن في الربط الحرفي ، بينه وبين أبطال رواياته ، وهو ربط كثيرا ما يوقع الكاتب في حرج شديد مع نفسه ومجتمعه ، ويحد من إبداعاته في رسم شخوص رواياته ، واختلاق أحداثها وبنياتها ، خاصة عندما يتحول هذا النقد السير ذاتي إلى محاكمة اجتماعية أو أخلاقية له . إن الأدباء عموما، والروائيين خصوصا، يعالجون في نصوصهم الإبداعية غالبا موضوعات شائكة ، ومسوكتا عنها، ويجسدونها في أحداث تقوم بها شخصيات مختلفة،تظهر في بعض الأحيان أكثر واقعية من الشخصيات الحقيقية ، فلا يعقل أن نربط هذه الشخصيات بكاتبها " [2] .

وقد لفت هذا الأمر نظر ماهر حسن فهمي عندما بحث وجوه التخفي لشخصية الكاتب في الرواية ، وتأثير التاريخ الشخصي للكاتب في أحداث الرواية ؛ وقد مثل على ذلك بروايات لأشهر كتاب الرواية في مصر، تتبع خلالها أوجه التشابه بين حياة الكاتب الشخصية،وشخوص رواياته ، ولكنه في النهاية خلص إلى التساؤل التالي " ترى إلى أي حد يمكن أن نعتبر هذه الروايات ، أو هذا اللون من التخفي سيرة ذاتية حقيقية ؟ الواقع أننا لا نستطيع الاعتماد عليها موضوعيا، بعد أن لمسنا فيها التشابك بين الحقيقة والخيال ،

1) الغامدي ، صالح ، سيرة ذاتية الرواية السعودية ، مجلة عالم الكتب ، دار تثقيف للنشر والتأليف ، المجلد الثامن والعشرون ، عدد مزدوج (الأول والثاني) ، 2006 ص 116.
2) المرجع السابق ، ص 116-117 .

فمثلها مثل روايات جورجى زيدان التاريخية بصفة عامة ، من حيث استبعاد الاعتماد عليها، أو اعتبارها من ألوان السيرة الغيرية ، لأن الخيال فيها قد خلق المواقف الغرامية ، واضطر أن يختلق شخصيات ثانوية تربط المواقف الحقيقية بالواقف المخترعة ، بل ربما عبرت الشخصيات نفسها عن تاريخ المؤلف ، مثلما نجد في روايات جورجى زيدان ، وفي مسرحيات شوقي التاريخية . " (1).

وقد أجاب جورج ماي عن تساؤل ماهر حسني فهمي ، إذ يقول:" وعلى هذا نقول إن تعبير الكاتب عن شخصيته ، وعن حقائقه الباطنية ، ليس مقصورا على الحالات التي يعتمد فيها إلى تدوين قصة حياته الحقيقية . فقد يكشف الكاتب عن حقيقة نفسه بدون عمد منه أكثر مما يكشف عنها متعمدا مصرحا بعزمه على ذلك . " (2).

1) ماي ، جورج ، السيرة الذاتية ، ص 195.
2) حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، ص 313.

الفصل الثالث

السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

دراسة فنية

" الرحلة الأصعب "

فدوى طوقان

و

" انثيال الذاكرة هذا ما حصل "

لفتحي البس

أنموذجا

أولا : "الرحلة الأصعب " فدوى طوقان (2003م)

كتبت فدوى طوقان سيرتها الذاتية في جزئين حمل الجزء الأول عنوان رحلة جبلية. رحلة صعبة وحمل الجزء الثاني عنوان "الرحلة الأصعب" وقد صدر الجزء الأول عام1985أما الجزء الثاني فصدر عن دار الشروق عام1993 .

ويرى معظم النقاد [1] الذين درسوا سيرة فدوى طوقان أن الكاتبة في الجزء الأول من سيرتها اهتمت بالأحداث الخاصة وكانت هي المهيمنة على الأحداث، إلا أنها في الجزء الثاني (الرحلة الأصعب) تسيطر على سيرتها الأحداث العامة .

ونستطيع القول أن سيرة فدوى طوقان " الرحلة الأصعب " هي السيرة الفكرية والأدبية والسياسية لفدوى طوقان فهي أرخت للأحداث الجسام التي تعرضت لها فلسطين في تلك الفترة، وكذلك أرخت للحياة الأدبية والفكرية لتلك المرحلة .

ولعل مرد ذلك أن الكاتبة تتحدث عن مرحلة النضج في حياتها وتجاوزت مرحلة إثبات الذات إلى مرحلة التفاعل مع الأحداث والانفتاح على الأخر .

ونتساءل هنا عن الواقع الذي جعل شاعرة كبيرة كفدوى طوقان تكتب سيرتها الذاتية ، ونذهب إلى ما ذهب إليه خليل الشيخ إذ " يؤكد أن الشعر لم يكن يكفي للتعبير عن أزمة الذات في مواجهة العالم، مثلما يوضح أن مسألة الكتابة الإبداعية بشكل عام، عند شاعرة مثل فدوى طوقان مسكونة بهاجسين متناقضين تماما هما : الرغبة في البوح الذي يشكل في تجلياته صورة الذات بهويتها المحددة، وأبعادها الفنية، والخوف من الصراحة الذي يجعل من الإقدام على الاعتراف بالتجربة وتصويرها لونا من ألوان التعرية للذات في إطار اجتماعي شديد الحساسية،وبخاصة تجاه كتابات المرأة "[2].

ويؤكد هذا الكلام أن الأعمال النثرية والسردية خاصة تعطي الكاتب مساحة أوسع في التعبير والتفصيل لما يريد قوله .

جاءت سيرة فدوى طوقان بمثابة وثيقة عن حياة الأديبات العربيات لتسجل ما حملته من معاناة، واستطعنا في النهاية الانتقال من عالم المرأة المضطهدة إلى فضاء الحرية الواسع " سيرة فدوى طوقان تبدو كأنها كانت منذورة منذ البداية لحمل رسالة أدبية

1) انظر:- الصكر ، حاتم ، الرحلة الأصعب ، مجلة الجديد ، ع6، عمان 1995 ، ص 16.
- صالح، فخري، فدوى طوقان في الرحلة الأصعب، جريدة الدستور، الأردن 7/16 / 1993،ص 10 .

2) الشيخ، خليل،السيرة والمتخيل، قراءات في نماذج عربية معاصرة،ط1، دار أزمنة، عمان 2005م ص108.

سياسية نسوية تعبر عن هموم جيلها وغير جيلها خير تعبير في المراحل المتلاحقة"[1].

وسيرة فدوى طوقان الرحلة الأصعب نص أدبي يعكس لنا ما حل بفلسطين من نكسات ونكبات ومعاناة في ظل الاحتلال، وكذلك يعكس لنا أزمة المثقفين والمبدعين، فقد أدرك المحتل خطورة الكلمة .

وقد استطاعت سيرة فدوى طوقان " الرحلة الأصعب " أن تبين لنا الظروف التي كتبت فيها فدوى طوقان أشعارها وقصائدها،وكشفت لنا حيثيات وملابسات وسياقات كثيرا من قصائدها، ولهذا " الرحلة الأصعب " تسعفنا في فهم كثير من أشعارها .

وتبدأ السيرة بتصوير ذلك اليوم المشئوم الذي ستعلن فيه حرب حزيران التي حققت فيها إسرائيل انتصارا ساحقا على العرب. وكانت لهذه الحرب آثار كبيرة وساحقة على نفسية فدوى طوقان وأسرتها، وعلى جميع الفلسطينيين .

وأشارت الكاتبة في سيرتها إلى ما كانت تستوجبه هذه الحرب من إعداد مسبق، وما تفرضه من قسوة المعايشة والبقاء والاضطرار إلى الهجرة والهروب والارتحال أو الصمود والمقاومة ضد العدو المتغطرس .

وتستحضر الكاتبة في بداية سيرتها صديقها الغريب الذي أخبرها بالاستعداد للحرب عن طريق التموين والهروب، ولكن فدوى اختارت الصمود والبقاء في أرضها وفي مدينتها نابلس مع رجالها ونسائها وأطفالها. وفي هذه الفترة كتبت قصيدتها " إلى الصديق الغريب " وتمنت لو كتبتها تحت عنوان " لو ". وفي تلك الفترة تضاربت الأنباء حول نتائج الحرب، ومن الظافر فيها؟! وأذيعت أخبار عسكرية عربية مبالغ فيها لتتكشف الهزيمة في اليوم الأخير.

وبعد ذلك،شدد الصهاينة الخناق على جميع المدن الفلسطينية وحوصرت الجبهات والحدود والممرات، وكان من الصعب الانتقال داخل الأرض المحتلة من مدينة إلى أخرى بدون مراقبة ومحاسبة وإذلال وتفتيش مخافة من رد الفعل العربي والفلسطيني. وعقب الهزيمة، ساد فلسطين السليبة حزن داخلي عميق وتآكل ذاتي وحالة هستيرية جنائزية

وتمزق مأساوي فظيع، ترتب عن ذلك مباشرة احتلال الضفة الغربية والمدن الأخرى قصد تهجير اليهود للاستيطان فيها مع طرد سكانها الأصليين خارج الأرض المحتلة نحو

1)العجلوني ، نايف ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، المجلد العاشر ، العدد الرابع 1995 ،ص 89 - 106.

الملاجئ ونفيهم خارج الحدود.

وقد نشرت إسرائيل الهلع بين السكان،وأثارت الرعب وارتكبت المجازر وجوبهت المقاومة بعنف وقتل وإرهاب شديد ضد رموز الصمود في كل أراضي فلسطين المحتلة . وعلى الرغم من هذا الحصار السياسي والعسكري الإسرائيلي، استطاعت فدوى طوقان أن تقيم نوعا من التواصل وترسي حبال المودة والصداقة مع مجموعة من الكتاب الفلسطينيين قصد إثراء حركة الشعر والأدب كما هو الحال مع القاص توفيق فياض والشاعرين محمود درويش وسميح القاسم. وقد أعجبت الشاعرة برموز المقاومة والهوية الفلسطينية وروح التضحية والاستبسال كما عند سالم جبران وتوفيق زياد. ومن ثم، أصبحت حرب حزيران شعلة لتوهج الشعر الفلسطيني وانطلاق شرارة أدب الكفاح والمقاومة الذي كان يدعو القارئ إلى التشبث بالأرض وعدم التفريط فيها مع اختيار سبيل المقاومة والنضال قصد تحرير فلسطين من قبضة العدو الصهيوني المستبد. وبدأت الصحف في الانتشار والذيوع .

وعادت جريدة " الاتحاد " ومجلتي " الجديد " و" الغد " إلى الصدور على الرغم من الحظر المضروب على هذه المطبوعات الصحفية. و تعرفت فدوى طوقان عبر صفحاتها مجموعة من الأدباء والمفكرين الفلسطينيين الذين يكتبون في مختلف الأجناس الأدبية .

وفي هذه الفترة بالذات، نشرت فدوى طوقان خمس قصائد ثورية في جريدة "الاتحاد" وهي: مدينتي الحزينة، والطاعون، وإلى صديق غريب، والطوفان والشجرة، وحي أبدا، و حررت هذه القصائد في هذه الجريدة بتاريخ22 أيلول 1967م. وتعرضت الشاعرة بعد ذلك أثناء تنقلاتها داخل الأرض المحتلة لكثير من المضايقات والمراقبة الشديدة والمحاسبة الصارمة، وأحست من جراء تلك المعاملة اللاإنسانية القاسية بالاغتراب الذاتي والمكاني . وفي هذا الموقف العصيب أبدعت قريحتها قصيدة " لن أبكي " للتعبير

عن صبرها وصمودها وتمسكها بجذور وطنها وعزمها على مقاومة العدو المحتل. كما نظمت الشاعرة قصيدتها " الفدائي والأرض " على إثر استشهاد البطل الفلسطيني مازن أبو غزالة في معركة طوباس، تلك المعركة التي قامت بين رجال المقاومة والجيش الإسرائيلي بعد مرور شهور قليلة على الاحتلال الصهيوني للوطن. وقد توطدت علاقة الشاعرة بشعراء الرفض وتكررت زياراتها لشعراء الهوية القومية كسميح القاسم ومحمود درويش على الرغم من المراقبة الشديدة والتسجيل يوميا لدى مركز الشرطة.

ولقد كان هذا التواصل بداية " التفاعل الحيوي المثمر الذي ظل محافظا على استمراريته من جراء التحام كتاب الضفة والقطاع بالكتاب والشعراء الفلسطينيين المقيمين في الجزء المحتل من فلسطين منذ العام 1948، بالرغم من حرص السلطات العسكرية على إقامة حواجز المنع وعرقلة نشوء أي تفاعل أدبي أو تلاحم فكري بين أبناء الشعب الواحد الذي شطرته المأساة سنة 1948. فكم من مرة، حين أدعى- تقول فدوى طوقان- إلى المشاركة في مناسبة أدبية وطنية في الناصرة أو القدس مثلا، كانت ولا تزال- توجه إلي الأوامر العسكرية بعدم مغادرة نابلس في ذلك اليوم بالذات"[1].

وقد ساهم الاحتلال مدة سنتين بعد الهزيمة في خلق فراغ ثقافي في الساحة الأدبية والنقدية في الضفة والقطاع بسبب الإرهاب الصهيوني العسكري وغياب الصحافة الوطنية والمجلات الصادرة عن البلاد العربية، ناهيك عن غياب المؤسسات الوطنية والكوادر الثقافية. وفي هذه الفترة ستنتشر الشاعرة سيرتها الأولى "رحلة صعبة- رحلة جبلية " في شكل حلقات متسلسلة في مجلة "الجديد" ما بين العامين1977و 1978م حين كان يرأس تحريرها الشاعر سميح القاسم. وكانت فدوى قد نشرتها سابقا في باب صفحات من مفكرة في مجلة "الجديد" الذي أصبح رئيس تحريرها الجديد الشاعر محمود درويش.

وقد عانى المثقفون الفلسطينيون من الحصار الثقافي منذ عام 1948م إذ كانت السلطات العسكرية تمارس مصادرة الكتب من المكتبات الخاصة والعامة مهما كانت طبيعة هذه الكتب. ومن هنا، صار الكتاب بمثابة عملة نادرة يصعب الحصول عليه أو استعارته أو رده إلى صاحبه. و توصلت فدوى طوقان إلى الحصول على مجلتي "الآداب" التي كان سهيل إدريس رئيس تحريرها، ومجلة "مواقف" التي كان يشرف عليها الشاعر أدونيس، بمشقة الأنفس وبمساعدة واحد من جماعة الكويكرز الأمريكيين أثناء زيارته

للشاعرة في نابلس حيث وعدها بأن يزودها بما تحتاجها من الكتب والمجلات والصحف بعد أن اشتكت إليه بما يمارسه المحتل من ضغوطات ومضايقات على المثقفين الفلسطينيين وحرمانهم من الاطلاع على انتاجات الآخرين وإبداعات المفكرين العرب.

1) طوقان ، فدوى ، الرحلة الأصعب ، ط2 ،دار الشروق ، الأردن 2007 ، ص 23 .

وقامت الشاعرة بزيارات إلى مصر حيث التقت برئيسها جمال عبد الناصر في القاهرة وصورت له معاناة الفلسطينيين ومايكابده المثقفون والمبدعون من ويلات الظلم والقهر من جراء الاحتلال الغاشم. وأثناء عودتها إلى وطنها، دافعت كثيرا عن محمود درويش الذي اتهم بمهادنته لإسرائيل وخيانته لمبادئ وطنه، كما جسدت ذلك رسالتها التي كتبتها إلى غسان كنفاني الذي نشر ذلك الهراء في جريدته "الأنوار" في بيروت دون أن يطلع على فحواها الإخباري.

وقد صورت فدوى في سيرتها الذاتية الأيام الكالحة بعد الهزيمة التي انتهت بتهويد القدس وضمها إلى الكيان الصهيوني، ومعاقبة الوطنيين، وتتبع المقاومين الشرفاء والضغط على المثقفين، وطرد العناصر الوطنية وإلقائهم وراء النهر إلى الضفة الشرقية ومصادرة الأراضي والإكثار من المعتقلات والتحقيق والتعذيب الرهيب، والزج بالمناضلين والأبرياء في الزنازين المخيفة، ونسف البيوت وهدمها على أصحابها. وكانت فدوى تتدخل مرارا وتكرارا لدى القيادة الإسرائيلية لإيقاف النسف أو الهدم أو إطلاق الأسرى والمعتقلين والمعتقلات الموجودين في سجون الاحتلال نظرا لمكانة الشاعرة لدى السلطات العليا وموقعها الثقافي في المجتمع الفلسطيني، وتأثيرها الكبير على إثارة مشاعر الانتفاض والمقاومة.

وشاركت الشاعرة في لقات شعرية سرية وعلنية في كثير من المدن الفلسطينية كالقدس ورام الله والبيرة وبيت لحم وغزة وبيت جالا؛ مما أهلها للاندماج بكل سرعة في المجتمع والاحتكاك بالجماهير الشعبية. كما كانت للشاعرة لقاءات مع موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي في عهد گولدا مائير حول أوضاع فلسطين ونابلس وحاجيات المثقفين وسبب كراهيتهم للإسرائيليين ،وكيفية البحث عن أحسن السبل للسلام الدائم بين الشعبين.

كما التقت الشاعرة أثناء نزولها في القاهرة بأنور السادات وقد صورت له معاناة الشعب الفلسطيني وما يعانيه في ظل الاحتلال مع التطرق إلى حلول التفاوض وإقامة

السلام العادل. وأصبحت فدوى سفيرة مفوضة بدون حقيبة بين الرؤساء والقيادات العليا وممثلي الشعب ومنتخبي السكان من أجل إيجاد صيغ التفاهم والتعايش والتوسط لإيجاد الحلول لكل المشاكل الفردية والجماعية، و البحث عن المخرج الحقيقي لتحقيق الحياة الكريمة والاستقلال المشرف للشعب الفلسطيني. وكم كانت فدوى حزينة لما سمعت بموت الكاتبة الفلسطينية المرموقة سميرة عزام أثناء انتقالها من عمان عبر دمشق مسرعة إلى مدينتها عكا لمعانقة الوطن السليب بعد غربة طويلة مشحونة بالشوق والحنين! وقد أثارت قصيدة فدوى "آهات أمام شباك التصاريح" ضجة كبيرة في إسرائيل وتناقلتها وسائل الإعلام والصحافة؛ لأن تلك القصيدة الثائرة تدعو إلى كراهية إسرائيل ومقاومتها بشراسة وحشية. بيد أن هذه القصيدة كتبتها فدوى أثناء الحصار المفروض على ممرات والحدود الفاصلة بين المدن الفلسطينية، والتي تظهر الإنسان الفلسطيني كأنه أجنبي مغترب في أرضه مجسدة إياه في صورة مذلولة مشوهة يسود فيها الانتظار الطويل لما يأتي ولا يأتي، والعذاب المحترق الذي يعيشه الإنسان الفلسطيني وهو مصطف مع إخوانه من أبناء فلسطين في طوابير تنتظر الإفراج والإذن بالمغادرة لرؤية أحبابهم وأسرهم وأهاليهم. ولم تكن الشاعرة بمعزل عن هذا العذاب ، وهذا ما دفعها لتكتب هذه القصيدة الشعرية التي تحرض فيها على الرفض والمقاومة والنضال ومقاتلة الأعداء الصهاينة . وعقدت الحكومة الإسرائيلية والصحافة الصهيونية لقاءات مع فدوى لمعرفة أسباب هذه الكراهية و مبررات الحقد العربي للإنسان الإسرائيلي، وقدمت فدوى كل الإجابات المنطقية المقنعة التي دفعتها للكتابة، وحملت الصهاينة المسؤولية في توليد هذا الحقد الدفين وإشعاله من فينة إلى أخرى. وربما يعود هذا الحقد الإسرائيلي الدفين إلى عهود مضت خاصة أن كثيرا من الشعراء الصهاينة كانوا يدعون شعوبهم إلى مقاتلة أعدائهم وأكل لحومهم كما فعل الشاعر اليهودي الحاقد مناحيم بيالك في قصيدته" أناشيد باركوخبا" الذي يدعو فيها اليهود إلى أن يكونوا حيوانات مفترسة للانقضاض على أعدائهم الأشرار.

و كانت لفدوى أيضا لقاءات واتصالات عن طريق المكاتبة والمراسلة مع مجموعة من اليهود الحاقدين أو المعتدلين لشرح وجهة نظرها وموقفها الرافض لكل احتلال لأرضها ورغبتها في التعايش الحميمي مع اليهود كما كان ذلك في السابق.

وعايشت فدوى عن كثب كثيرا من المشاهد الدامية والجرائم المروعة في الجبل كنسف بيوت المناضلين ونفي المجاهدين وقتل الوطنيين ومداهمة المنازل لتفتيشها، ولم ينج حتى بيت فدوى طوقان من هذه المداهمة للتأكد من وجود الأسلحة داخل بيتها.

وعلى الرغم من انتصار أكتوبر 1973 م الذي أعاد نوعا من التوازن العسكري في المنطقة العربية، كما أعاد الاعتبار للإنسان العربي، وأعاد نوعا من التفاؤل للأمة العربية، فمازالت إسرائيل تنشر الرعب وتعمل على الفتك بالأرواح ونفوس الضحايا وسفك دماء الفلسطينيين الأبرياء. وعاشت فدوى قبل حرب رمضان فترات مريرة يشوبها الحزن اليائس والبكاء الصاخب بعد وفاة جمال عبد الناصر واغتيال وائل عادل زعيتر ممثل حركة التحرير الفلسطينية في روما، تلك الحركة التي قررت خوض النضال العسكري ضد العدو المحتل بقيادة ياسر عرفات، وكانت لها مناوشات كثيرة مع العدو على مشارف الحدود وقد أقضت مضجع القادة الصهاينة بضرباتها المفاجئة ومباغتاتها المتكررة. وكانت الحركة ترفض أي تصالح مع العدو وأي تفاوض حول السلام على الرغم من محاولات فدوى لإخبار عرفات برسالة موشي ديان ونواياه في إقامة السلم وتوفير الأمن والاستقرار. وقد كتبت فدوى قصيدة لرثاء وائل زعيتر وتبيان صموده وتكذيب ادعاءات الصهاينة الذين اغتالوه ظلما وافتراء للتخلص منه ومن منظمة التحرير الفلسطينية. وقد اكتسبت القضية الفلسطينية بعد اغتيال وائل زعيتر من قبل مخابرات إسرائيل كثيرا من المؤيدين والمتعاونين والمتعاطفين مع الشعب الفلسطيني المناضل، ومن هؤلاء المتعاطفين مثقفو إيطاليا وخاصة الروائي الكبير ألبرتو مورافيا . كما ساهمت زيارة الفيلسوف الأمريكي الكبير هربرت ماركوز لفدوى طوقان في تعزيز القضية الفلسطينية وتأكيد مشروعية هذه القضية ودعم الفلسطينيين في المطالبة بحقهم العادل والصائب. وانتهت الزيارة بمراسلات ثنائية بين الشاعرة وماركوز، وبين الشاعرة وزوجته حول حيثيات الصراع الفلسطيني/الإسرائيلي.

وتستحضر فدوى طوقان في سيرتها كذلك مساهمة المرأة الفلسطينية في حركة المقاومة والنضال والكفاح من أحل الحرية منذ انطلاق هذه الحركة بعد سنة 1967م مع استشهاد الشاعرة شادية أبو غزالة وصمود رندة النابلسي التي دفعت الشاعرة إلى نظم قصيدة شعرية في حقها.

وقد حصلت فدوى طوقان على جائزة "الزيتونة الفضية " التي كانت تمنحها اللجنة الثقافية الإيطالية لعدد من الشعراء والكتاب من إيطاليا ومن بلدان البحر الأبيض المتوسط. ومن المثقفين العرب الذين حصلوا على هذه الحائزة توفيق الحكيم ونزار قباني وعيسى الناعوري وفدوى طوقان على أساس (شاعرة لها قضية). وبعد ما أن تداول مفهوم الأرض في كتابات المبدعين والمثقفين الفلسطينيين، تدخل كلمة الانتفاضة إلى القاموس الثقافي الفلسطيني لتشير إلى المقاومة والثورة الشعبية، بعد أن تغطرست إسرائيل كثيرا وعاثت في البلد فسادا ونشرت الرعب والهلع بطائراتها ودباباتها المصفحة واستخدام قوتها المتجبرة الظالمة. ولكن الحكومة المعتدية لم تنجح في إسكات الانتفاضة التي دامت سنوات عدة والتي أعطت كثيرا من الشهداء والأبرياء، وهذا مادفع فدوى طوقان لتنظم كثيرا من القصائد في رثاء الشهداء وتحريض الشعب الفلسطيني على المقاومة والنضال المستميت حتى الحصول على الحرية وطرد المستعمر الغاشم.

وينتهي مؤتمر مدريد بخيبة الأمل وتمادي العدو في الاحتلال، ويقدم المفكر اليهودي الإنساني ديفيد كروسمان في كتابه "الهواء الأصفر" الحل الإنساني اعتمادا على آراء فيلسوف الوجودية المبدع ألبير كامو.

وفي الأخير، كانت لفدوى مجموعة من اللقاءات مع أسماء ذائعة الصيت في مجال الفكر والثقافة والنضال السياسي كالشاعر الكبير محمود درويش الذي أقام مهرجانات شعرية كثيرة في الدول العربية للتعريف بمعاناة الإنسان الفلسطيني، والتعريف بالقضية الفلسطينية، والدعوة إلى مقاومة العدو الغاشم كما في قصيدته المشهورة "عابرون في كلام عابر"،والكاتبة الفلسطينية المناضلة باسمة حلاوة التي اهتمت كثيرا بالقضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية، وقضت حياتها في القاهرة تناضل وتكافح فخرجت بعمل فكري وأدبي وجدت صعوبة كبرى في طبعه ونشره إلى أن توفيت وأعيدت إلى بلدها لتدفن في مدينتها نابلس. وكان للشاعرة لقاء آخر مع داليا ربيكوفيتش التي كتبت كثيرا عن مسار حياة فدوى طوقان في مجال الأدب والنضال السياسي مشيدة بعلاقتها معها باعتبارها شاعرة فلسطينية محبوبة في العالم العربي تسكن مدينة نابلس وهي من أسرة مثقفة محترمة غادرت مدينتها للدراسة بأكسفورد لمدة سنتين لتعود إلى وطنها لمتابعة الكفاح ضد الاحتلال عبر كتابة الشعر والتحريض السياسي.

ويتبين لنا من خلال هذه المفكرة أن فدوى كانت تؤرخ للمقاومة الفلسطينية وحركية النضال والمواجهة منذ1948م إلى غاية1978م مشيرة إلى عواقب النكبات والنكسات والحروب العربية الإسرائيلية وخاصة حرب حزيران1967م وحرب أكتوبر 1973م وما تبعهما من انتفاضات جماهيرية ومظاهرات شعبية ومقاومات وطنية وعسكرية وخاصة مقاومة منظمة التحرير الفلسطينية وتضحيات شهداء فلسطين ومثقفيها المناضلين الأشاوس الغيورين على البلاد.

وتعتبر سيرة فدوى طوقان خير وثيقة مرجعية نعود إليها لمعرفة تاريخ نضال المرأة الفلسطينية،وانطلاق الحركة الثقافية والإبداعية في الساحة الفلسطينية، ولاسيما بعد هزيمة 1967م، وطبيعة هذه الحركة وإسهاماتها الفكرية، وذكر أنشطتها ومساهماتها في إثراء الساحة الثقافية والنقدية. كما أن هذه السيرة تؤرخ لرجال الفكر وتوثق قصائد فدوى طوقان وسياقاتها وخلفياتها لفهمها جيدا في أبعادها التاريخية والإحالية. ومن هنا، يمكن القول: إن سيرة فدوى طوقان سيرة الأدب والشعر والمقاومة والصمود والكفاح في وجه العدو المحتل للأراضي الفلسطينية.

ومن اللافت للنظر – في سيرة فدوى طوقان – حديثها عن لقاءات مع عدد من الشخصيات اليهودية وخاصة اللقاء مع موشي ديان ، وقد أسهبت في الحديث عنه ، وقد جرت هذه الجرأة – في ذكر تلك اللقاءات في سيرتها الذاتية – عليها بعض الانتقادات ، ورأى بعضهم [1] في ذلك تشويها للصورة المرسومة في أذهان الناس عن فدوى طوقان كشاعرة تعد رمزا للنضال ومقاومة المحتل .

1) السمان ، غادة ، إسرائيليات بأقلام عربية ، ط1 ، دار الهادي ، بيروت ، 2001 ، ف 1 .

اللغة

عندما يتحدث النقاد عن اللغة في " الرحلة الأصعب "، فإنهم غالبا ما يعقدون مقارنة بينها وبين الجزء الأول "رحلة جبلية. رحلة صعبة "، فقد جاءت اللغة في" الرحلة الأصعب " مختلفة عنها في " رحلة جبلية . رحلة صعبة " .

تراوح فدوى طوقان في "الرحلة الأصعب" بين استخدام الفعل الماضي والمضارع ويتحقق "بصيغة المضارع إيهام القارئ بالحضور، والفورية"[1]. ومن أمثلة هذه المراوحة وهي كثيرة قولها: "وقفت بشباك بيتي المطل على بيت حمزة في سفح جرزيم،وقفت لأشاهد أقبح لوحة ممكن أن ترسمها بأصابع شيطان. الشرفات مفتحة على مصاريعها،أثاث البيت يلقى به من الشرفات، الأمور تجري على استعجال قبل لحظة التفجير، حمزة يطل من إحدى الشرفات ويهتف بصوت امتزجت فيه الكبرياء بدموع الانكسار :

الله اكبر الله اكبر الله اكبر

تعروني رعشة شديدة، تنهمر دموعي ، تمر دقائق .. يغشى المنطقة المحيطة صمت مأساوي لا يلبث أن يتبعه صوت انفجار ، يتبع الانفجار غمامة كثيفة من الغبار تنتشر في الجو وتحتفي في الدار من الوجود ." [2] .

ومع هذه المراوحة في الاستخدام بين الماضي والمضارع إلا أن الفعل الماضي يبقى هو المسيطر، وهذا أمر طبيعي في السيرة الذاتية إذ الحديث ينطلق من الحاضر إلى الماضي.

تعتمد فدوى طوقان في"الرحلة لأصعب" على ضمير المتكلم كما فعلت في "رحلة جبلية "، ولكن " الفرق بينهما أنها كانت في رحلة جبلية تعتمد اعتمادا كاملا على ضمير المتكلم للمفرد ، مما حعل حضورها مركزيا في السيرة ، أما في الرحلة الأصعب

فنستطيع أن نلاحظ حضورا لضمير جماعة المتكلمين"(3). ويبقى ضمير المتكلم حاضـــرا باعتباره الضمير الرئيسي والمتحكم في الضمائر الأخرى والموجه لها .

يتسم أسلوب فدوى طوقان في الرحلة الأصعب بالمزج بين السرد والحوار، وقد

---

1) شاكر تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 177.

2) طوقان ، فدوى ، الرحلة الأصعب ، ص 113 .

3) شاكر تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 177.

أضفى ذلك على سيرتها حيوية وخفف من رتابة السرد، خاصة وأن الكاتبة كانت تــراوح في الاستخدام بين الأسلوب التقريري المباشر في نقل الأحداث التاريخية والصحفية،وبين الأسلوب الأدبي الشاعري المفعم بالوصف الموضوعي عند الحديث عن الشعر ومناسبات القصائد، وقد يبرز الأسلوب التقريري المعتمد على الحوار والجدل والإقناع ،وهذا مبــرر إذا ما اتفقنا على أن "الرحلة الأصعب" هي السيرة الذهنية والفكرية لفدوى طوقان وهــذا التعدد في الأساليب اللغوية، وتوظيفها في مستويات مختلفة وسياقات متعددة ســواء فـــي الجزء الأول من السيرة أو الجزء الثاني "يكشف في واقع الأمر عن مرونة واضحة فـــي تطويع أدوات الكتابة النثرية لإنشاء خطاب نقدي يسعى إلى رصد التفاصيل الدقيقة لتشابك الشخصي مع الاجتماعي والسياسي . فالكاتبة تصطنع أحيانا أسلوبا تحليليـــا قريبـــا مـــن أسلوب الناقد الأدبي،أو الدارس الاجتماعي،أو المحلل النفسي،على حين يـــصبح أســـلوبها أحيانا أخرى أسلوبا أدبيا خالصا بما ينطوي عليه من كثافة وإشـــعاع ورمزيـــة وشـــفافية باهرة "(1) .

ومن أمثلة الأسلوب التقريري قولها:" كانت الساحة الأدبية في الضفة والقطاع قـــد شهدت في السنتين الأولى والثانية من الاحتلال فراغا أدبيا وثقافيا رهيبـــا بفعـــل غيـــاب المؤسسات الوطنية والكوادر الثقافية ، ناهيك عن غياب الـــصحافة المحليـــة والمجـــلات الصادرة عن البلاد العربية، لكن هذا الفراغ لم يلبث – برغم كل الضغوط التي تمارســـها السلطات العسكرية – أن بدأ يمتلئ شيئا فشيئا مع نشوء التفاعل والتواصل الحيوي بـــين الجيل الجديد من الأدباء اليافعين، وبين الرموز الأدبيـــة والوطنيـــة والقيـــادات الفكريـــة العربية، التي بقيت مزروعة في أرضها بعد السقوط في العام 1948."(2) .

أما الأسلوب المفعم بالشاعرية فأمثلته عديدة منه قولها " تعذر علي النوم إلا بعض غفوات متقطعة، كنت أصحو بعدها وفي قلبي شعور غامر بالحنان والشجن، وفي عينـــي

صورة تلك البقعة الموحشة وذلك الشاهد الأبيض المغروس في تراب حفرة الشهيد الفتي"[3] .

عمدت فدوى طوقان على تخصيب نصها،وإعطاءه دلالات عميقة ومتعددة وذلك من خلال

1) العجلوني ، نايف ، مجلة مؤتة ، ص 101 .
2) طوقان ، فدوى ، الرحلة الأصعب ، ص 25 .
3) المصدر السابق ، ص 169.

تضمينه مجموعة من القصائد والأشعار والرسائل والحوارات الصحفية وكذلك توظف فدوى طوقان شخصية تراثية وهي شخصية هند بنت عتبة رضي الله عنها " وبفعل تداعي الخواطر مر بذهني هند بنت عتبة في موقعة "أحد" حين قتل في تلك الموقعة حمزة عم النبي، فانتزعت هند كبده ولاكتها بين أسنانها تشفيا وانتقاما "[1] .

وتتكئ الكاتبة على الرمز الأسطوري والمتمثل بصخرة سيزيف، ويأتي هذا الاتكاء لتعميق الدلالة المفعمة بالرمز الموحي" كيف الخلاص من صخرة سيزيف الرابضة فوق ظهورنا؟ والى أية هوة نحن سائرون عبر هذا الواقع المتأزم في زمن اختل فيه التوازن"[2] .

وهذا التوظيف للأسطورة والشخصيات التراثية أمر متوقع من شاعرة كبيرة ضمنت كثيرا من قصائدها بالرموز الأسطورية، والشخصيات التراثية خاصة النسائية، فهي هنا وظفت شخصية هند بنت عتبة رضي الله عنها، وفي قصيدة " كواليس الليل والنهار وظفت شخصية عبلة "[3] ،وأشعارها تمتلئ بمثل هذا.

1) طوقان ، فدوى ، الرحلة الأصعب ، ص68 .
2) المصدر السابق ، ص 171 .
3) طوقان ، فدوى ، على قمة الدنيا وحيدا ، دار الآداب ، بيروت 1973 ، ص 21-24 .

الزمن والمكان في " الرحلة الأصعب "

دلالة العنوان في سيرة فدوى طوقان مفعمة بالزمان والمكـــان، فالرحلـــة تـــوحي بالحركة والانتقال عبر الزمان والمكان، وقد التفت إلى هذه الدلالة خليل الشيخ عند بحثـه عن جديلة الشعر والسيرة عند فدوى طوقان حيث يقول"غير أن المقارنـــة بـــين عنـــوان السيرة،وعنوانات الدواوين البارزة في تجربة فدوى الشعرية، تكشف عن فرق نوعي فيما يخص التجربة وطبيعة التعبير عنها، فإذا كانت عنوانات تلك الدواوين تشير إلى لون من الوحدة والثبات المكاني،فإن عنوان السيرة يؤكد مفهوم الحركة من خلال إبراز مـــصطلح الرحلة، وليس مهما بعد ذلك أن تكون الرحلة جبلية أو صعبة أو أصعب،لأن القدرة على الارتحال، ستضل شرطا أساسيا من شروط تحقيق الذات "[1] .

بقيت فدوى طوقان في سيرتها تعيش تحت سطوة الزمان والمكان فهي في صراع مع الزمن المرتبط بأحداث جسام ومتلاحقة، ومع ذلك روحها المتوثبـــة والتواقـــة نحـــو الانفلات من قبضة الزمن بقيت تتوق نحو الترحال، وكذلك الإنعتاق من ســـجن المكـــان، ولكنها رغم كل المحاولات بقيت أسيرة الأحداث وسجينة المكان، فرغم الترحـــال الحـــالم عادت للتمسك طواعية بالمكان والمتمثل في بيتها القديم في نابلس رغم أنها كانـــت تـــراه وتصفه سجنا في الجزء الأول من سيرتها " في هذا البيت وبين جدرانه العالية التي تحجب كل العالم الخارجي عن "جماعة الحريم" المؤودة فيه، انسحقت طفـــولتي وصـــباي،وجزء غير قليل من شبابي "[2] .

رغم أن الكاتبة تلتزم بالترتيب الزمني لأحداث في سيرتها إلا أن هناك أزمنـــة اســـتعادية تعود إلى الماضي،وأحيانا تعمد إلى التكثيف أو التطويل الزمني،وقد تتعدى ذلك " فتلجـــأ إلى تعطيل السرد،عندما تتوقف عند حدث معين من خلال الـــسرد المـــشهدي،أو الوقفـــة الوصفية"[3] .

بالنسبة للمكان في " الرحلة الأصعب " قد أتفق مع بعض الباحثين[4] أن وصف المكان قد قل في"الرحلة الأصعب"عنه " رحلة جبلية.رحلة صعبة"، فلم تعد الكاتبة تهتم كثيرا بوصفه

1) الشيخ، خليل،السيرة والمتخيل ، ص 108 .
2) طوقان ، فدوى ، رحلة جبلية . رحلة صعبة ، ط2 ، دار الشروق ، عمان 1985 ، ص 40 .
3) شاكر ، تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص 175.
4) المرجع السابق ، ص 175-176 .

الأصعب " ، وإن لم تتوقف كثيرا بوصفه إلا أن مجرد ذكر المكان يبقى مفعما بالدلالـــة ، فهي في " الرحلة الأصعب " تركز على الأحداث ، والأحداث جميعها تعكس الصراع على المكان وهو فلسطين ، والكاتبة كانت تصف المكان عندما تشعر أن هذا الوصف ســيؤدي رسالة، ويحقق غاية مثال ذلك وصفها لبيت الرئيس عبد الناصر" فـــي بيتــه البــسيط ، المتواضع ، وفي غرفة الاستقبال الخالية من أي مظهر من مظاهر الفخفخة، جلست انتظر تائقة متطلعة "[1] ، فهي تريد أن توصل رسالة أن عبد الناصر كان إنسانا عاديا بسيطا في عيشه .

1) طوقان ، فدوى ، الرحلة الأصعب ، ص 50 .

ثانيا : " انثيال الذاكرة هذا ما حصل " لفتحي البس

عرض وتحليل

انثيال الذاكرة سيرة ذاتية كتبها فتحي البس ، ونشرتها دار الشروق التي يملكها عام 2008 م ، إلا أنها لم تر النور إلا في عام 2009 م ؛ حيث لم توافق دائرة المطبوعات والنشر على توزيعها ، إلا أن المحكمة أنصفت البس وسيرته ، وأصدرت قرارا بعدم المسؤولية ، وتم الإفراج عنها .

تبدأ سيرة البس " انثيال الذاكرة هذا ما حصل " بمقدمة عنونها بعبارة قالتها له حبيبته الأولى في بيروت لحظة انفصالها ، وهي " الماضي المبعثر قطعة من مستقبلنا " . ويذكر في المقدمة سبب انثيال الذاكرة ؛ إذ جاءته رسالة من أحد رفاق الكفاح القدامى في بيروت ؛ فكانت هذه الرسالة – التي لم يتذكر صاحبها – الشعلة التي أذكت ذاكرته ، فانثالت الذكريات ، التي يبدو من المقدمة – أن أكثرها ازدحاما واهتماما فترة الدراسة والكفاح في بيروت – ، ويبدو أنها كانت تضغط على ذاكرة البس ، فبدأ بقصها ، في المقدمة وكأنه يريد أن يبدأ بها ، رغم أنها ستأتي لاحقا في سيرته " وصلت بيروت صيف 1968م ، في منحة دراسية إلى " " الإنترناشيونال كولدج " " ، لأكمل الدراسة الثانوية والجامعية لاحقا .

خلال أشهر، تكيفت مع الوضع،وأصبح لدينا في المدرسة التي يدرس فيها أبناء علية القوم من كل الدول العربية،وبعض الدول الأجنبية،تنظيم طلابي لحركة فتح،وبدأت مسيرة حياة، فيها الحب والحرب والنجاح والفشل، والحزن والأمل. ويستمر انثيال الذاكرة حية ، ففيها الأشخاص والأحداث، وفيها أبناء فتح الأصلية، كما وصفها أبو جورج، وبالنسبة لي، فقد فارقت أنا وأبو جورج فتح من سنوات طويلة ، لكن فتح تظل في القلب حركة تحرر وطني ، أصيلة ، نتفق معها أو نختلف ، لكنها تظل عمودا للنضال الوطني .

كانت الأيام الأولى للتنظيم السري . وكان المكتب الثاني اللبناني ، وكانت الخطوات الأولى لشاب في السادسة عشرة من عمره . " [1] .

وبعد ذلك تنثال الذاكرة بتسع وستين لوحة ، تبدأ اللوحة الأولى بـــ" الفوار والعروب وعقبة جبر " وتنتهي باللوحة التاسعة والستين " قهرتني الأيام ، لكنها لم تهزمني بعد " .

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ط1 ، دار الشروق ، عمان 2008م ، ص 10.

في اللوحة الأولى ، وقبل أن يبدأ البس بسرد سيرته ، يعطينا معلومة غاية في الأهمية ، تنم عن وعي لماهية السيرة الذاتية ، وطبيعتها الإبداعية ، وعلاقتها بالواقع والخيال ، ومدى الصدق والكذب ، وقد أثرنا جميع هذه القضايا في محاور الفصول السابقة ، وسواء أكان ذلك عن وعي ، أم عدم وعي ، فلابد أن البس أحس – وهو يكتب عن فترة معظم من عايشها أحياء – أن بعضهم قد يحتج عليه في بعض الأحداث ، وقد يقولون لم تحصل هذه الحادثة هكذا . يقول البس :" عندما تنثال الذاكرة ، تأخذ أشكالا ثلاثة: صور وأحداث واضحة وجلية , وصور وأحداث ملتبسة تحتاج إلى تدقيق ، وفرز للاقتراب من الحقيقة ، وصور وأحداث تستدعيها الذاكرة , حسب ما تمنى الإنسان أن تكون ، وليس كما كانت ، وبالتالي ، تعكس أماني الإنسان وأحلامه وقت وقوع تلك الأحداث , ولا تخلو ذاكرتي المنثالة من كل هذه الأشكال . " [1] .

لقد أصاب البس في هذا الكلام ، فأي سيرة ذاتية لن تخرج عن هذه الأشكال الثلاثة التي ذكرها ، فهناك أحداث واضحة جلية محفورة في الذاكرة ، لا يمكن للإنسان أن ينساها ، وعندما يذكرها أو يرويها يحس وكأنه يعايشها ، وكأنها تحصل الآن ، وتضغط على صاحبها وترهقه نفسيا ، ولعل مثل هذه الأحداث والمواقف هي الدافع الأكبر نحو كتابة السيرة الذاتية ؛ لأن صاحبها يتعبه الاحتفاظ بها ، وتلح عليه فكرة البوح بها كي يرتاح و يهدأ، ولذلك لا يملك إلا أن يرويها كما هي بحلوها ومرها دون تغيير أو تحوير؛ لأنها دبوس يشك قلبه .

أما النوع الثاني فأحداث ملتبسة تخون الكاتب فيها الذاكرة بفعل الزمن ، خاصة إذا ما كانت الفترة الزمنية لهذه الأحداث مزدحمة بالأمور ، وفي هذه الحالة يلجأ الكاتب إلى التسديد والمقاربة ، لعله يرقع ما أخرقه الزمن ، وأتلفته الذاكرة .

أما النوع الثالث ، وهو الذي يبقى يعاودنا ، ولكثرة ما نحلم به ، نحس أنه واقع ، أو نوهم أنفسنا بأنه واقع ، خاصة في ظل خيبات الأمل المتكررة ، والواقع المرير ، فنرفض ما هو كائن ، ونحلم بما يكون ، ولعل هذا أحد الأسباب ، بل أقوى الأسباب التي تضفي على السيرة الذاتية أدبيتها ؛ لأن الأدب في مستوى راق من مستوياته هو وجهة نظر نحو الكون والحياة والإنسان .

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص11.

ولهذا يجب أن ننتبه إلى أن السيرة الذاتية لا يمكن أن تعد من التاريخ ، كما اشرنا سابقا في الفصل السابق، ولهذا لا أستغرب على بعض من لا يعون مفهوم السيرة الذاتية ، أن يتجنوا على فتحي البس ، ويتهموه بتغيير بعض الحقائق وتشويهها .

لهذا كله وقفت عند هذه الفقرة السابقة ؛ لأنها بمثابة ميثاق يعقده البس مع قرائه منذ اللحظة الأولى حتى لا يتقول عليه القوالون .

بعد هذا الميثاق بدأ البس الحديث عن مولده في خيمة في مخيم الفوار، ثم انتقلت عائلته إلى مخيم العروب،وفي العروب تمر العائلة بظروف مريرة تنتهي بالرحيل القسري إلى مخيم عقبة جبر، وتبدأ فيه ذكريات الطفولة لفتحي البس ، وهي طفولة شقاء ملابسه من (بقج)، واضطر للعمل مبكرا لمساعدة والده الإقطاعي السابق ، وتزداد المشقة بعد التحاقه بالمدرسة ، وتبدأ شقاوة الأطفال والمراهقة وقصص الحب البريئة. ويدخل وأطفال المخيم بواكير العمل السياسي مبكرا بتوزيع المنشورات السرية ، وتضطرهم الظروف إلى أن يكبروا سريعا ، فيشاركون في المظاهرات ، وبخاصة مظاهرات الاحتجاج على أحداث السموع ، وتأتي حرب 1967 وتبدأ مرحلة التشرد إلى مخيمات الضفة الشرقية .

اللوحة الثانية : أريحا قبل النزوح

بين البس في هذه اللوحة أهمية أريحا ، فهي عاصمة المخيمات المجاورة ، وتمثل الحياة والحضارة بالنسبة لأبناء المخيمات المجاورة ، ويؤمونها بحثا عن الرزق والتجارة والتعليم والترفيه .

يصف البس عملية التوسعة ، وبناء بيت من الطين والتبن والبوص ، ويبدو أن الذاكرة خانته ، فبيوت الطين لا تبنى بالطين الأحمر بل بالطين الأبيض(المعلج) ، وتكثر في هذه اللوحة الجميلة الأسماء والمصطلحات التي تلامس قلوبنا نحن القرويين ، كاللوكس ، واللمبة نمرة أربعة (4) ، وخم الدجاج والزريبة ، والعنزة الشامية كما يذكرنا بالألعاب الشعبية الغماية ، والكرة المصنوعة من الجرابين ، وبيع الفلافل ، والأسكمو . وطقوس الحمام الطشت والليفة وفلقة الصابون الصفراء وبابور الكاز . ورغم كل الشقاء إلا أن لياليهم لا تخلو من سماع أم كلثوم ، وعبد الحليم حافظ ، ومحمد عبد المطلب ، ويدخلون السينما ويستمعون لخطب عبد الناصر، ويقرؤون الروايات، وتبقى الحياة ما قبل الحرب ، شقية متوترة ، لكنها سرعت في نضج البس قبل أوانه .

اللوحة الثالثة : في الطريق إلى الضفة الشرقية ... إلى التشرد من جديد

في خضم مثابرة فتحي البس في الدراسة ، من أجل الحصول على المرتبة الأولى في امتحان الثالث الإعدادي ،بدأت حرب 1967 ،وتجددت الآمال بالنصر والعودة ، وتحولت الآمال إلى اليقين بالنصر في ظل خطابات عبد الناصر والإعلام العربي، وتعدى الأمر إلى كيف سيتعاملون مع اليهود ، وهل ستأخذهم بهم الرحمة أم لا ؟! ولكن سرعان ما تتكشف الحقيقة ، ويرى الناس الهزيمة عيانا ، وتبدأ رحلة التشرد مع حياة مريرة وكئيبة وقاسية في رحلة البس إلى مخيمات الضفة الشرقية ، ولكن بدت له بارقة أمل شكلت منعطفا في حياته حين رأى طلائع الفدائيين تعبر النهر .

اللوحة الرابعة : من الوحدات إلى غور نمرين مخيم الكرك : وقفة على الطريق

بعد وصولهم إلى مخيم الوحدات ، ومشاركة أحد أقاربهم بيته ،الذي ضاق بهم ، انتقلوا إلى إحدى المدارس ، ثم تم نقلهم إلى مخيم قريب من الكرك وسط الصحراء والرمال ، وتعود رحلة العذاب لفتحي وأسرته ، ويتم ابتكار طرق جديدة للعيش والتجارة، ويعمل البس أعمالا شاقة ليساعد أسرته ، وفجأة يتم نقلهم إلى مخيم جديد هو مخيم غور نمرين ، ويتأكد فقدان الأمل في العودة إلى عقبة جبر ، وفي غور نمرين يتلقى إعلان الحكومة بنجاح جميع طلاب الثالث إعدادي وترفيعهم إلى الأول ثانوي ، ويتعرف لأول مرة على الفدائيين .

اللوحة الخامسة : غور نمرين : مقهى وغضب والفدائيون

بين البس أن مخيم غور نمرين كان أكثر تنظيما وترتيبا ونظافة ، فأحس بكل هذا بأن الإقامة طويلة ، ولهذا أصبح فيه أسواق ،ويفتح فيه والده مقهى ، مما أتاح له سماع أحاديث الناس ، وحوارهم حول أسباب الهزيمة ، كما أنه فتح له المجال للدراسة ، فقد التحق بمدرسة ثانوية في الشونة الجنوبية ، وقد استطاع البس , وبأسلوب ذكي وغير مباشر أن يحدثنا عن بعض تاريخ أسرته وأسرة والدته . وفي غور نمرين يتعرف على الفدائيين ، وأهدافهم ، وأسلوب عملهم عن طريق المصادفة ،إذ يمر عليه في المقهى ثلاثة من الفدائيين في طريقهم إلى عملية في عمق الضفة ، وفي النهاية يفر أهل مخيم غور نمرين بعد معركة الكرامة ، ويتجهون نحو مخيم البقعة .

اللوحة السادسة : مخيم البقعة : ضيق وصقعة

وتشتد رحلة العذاب، وقسوة الحياة والطبيعة، ولكن الناس يتأقلمون مع كل الظروف، وتبدأ تظهر علانية فصائل الفدائيين ، وأصبح لهم مكاتب ومراكز للتدريب، وينخرط البس فيها، وبدأت في المخيم تظهر العيادات والمدارس ، ولكن للمرحلة الابتدائية والإعدادية ، و يتوجه البس إلى صويلح للدراسة ، ولا تخلو تلك الفترة من ذكريات المراهقة الجميلة ، ويتفوق البس، ويحصل على المرتبة الأولى في صفه، ويفوز بمنحة دراسية تشكل منعطفا كبيرا في حياته .

اللوحة السابعة : في الطريق إلى بيروت

يحصل البس على البعثة للدراسة في "الإنترناشيونال كولدج "، ويستطيع تدبير أمر السفر ، وشراء ملابس جديدة بفرق سعر التذاكر، ويصف حزن أهله عندما علموا بأنه سيسافر، ويتذكر حبه الأول في عقبة جبر ابتسام ، التي بدأ يلقاها قبل حصوله على المنحة بأيام،ولم يعلم معسكر التدريب،وبين أن الكلام في المعسكر كان أكثر من التدريب،ويصف لحظة الوداع ، ودموع والده العزيز ، والدينار الذي دسه في جيبه ، والذي لم يكن يملك غيره ، والذي بقي محتفظا به مدة طويلة .

اللوحة الثامنة : بيروت – " " الإنترناشيونال كولدج " "

نقلة نوعية ، بل صدمة حضارية تصيب فتحي البس ، من مخيم البقعة إلى بيروت عاصمة المال والسياسة والثقافة والحياة، وأوضح البس أن صدمة الانتقال يكتب عنها روايات ، ويذكر بعض طرائفها وحيرته كيف يستحم (بالدوش)، فهو اعتاد(الطشت) والتسخين وكوب الماء .

ويبقى عقل البس معلقا مع أهله ، ويستطيع توفير بعض المال من أثمان بعض الملابس التي صرفت له، ويرسله مع رسالته إلى أهله في مخيم البقعة، ويلتحق البس ببرنامج التقوية الصيفي، ويصدمه الفارق في المستوى في اللغة الإنجليزية بينه وبين زملائه، ولكن يصدمه أكثر لبس الفتيات والمني جيب، وتبدأ مشاكسات البس المبكرة ، وقيادته الاحتجاج على عقوبة طالب الابتدائي بالحمام البارد وتستجيب الإدارة لمطالب الطلاب ، وهذه الحادثة كرست البس قائدا في عيون الطلاب .

اللوحة التاسعة : محاولة التكيف

يشرح البس في هذه اللوحة محاولة التكيف والتأقلم مع الظروف الجديدة ، فكل شيء بدا أجمل وأروع ، أسرة أنيقة ، وطعام شهي ، ودفء بيروت في " الإنترناشيونال كولدج "، أنساه جوع مخيم البقعة وبرده، وأنساه تحيته للفتيات عن بعد بوضع يده في شعره، فأصبح يصافحهن، ويجلسن بجانبه بملابسهن الفاتنة، ويتذكر حبيبته ابتسام،ويرسل لها رسالتين ينتهي الأمر بزواجها المبكر, ويركز البس في هذه اللوحة على وصف المكان والبنايات في " الإنترناشيونال كولدج " ، ومع محاولاته التأقلم مع الناس والمكان تجري محاولات حثيثة للتأقلم مع المنهاج الجديد واللغة الإنجليزية .

اللوحة العاشرة : فتح

تابع البس الحديث عن محاولاته تثقيف نفسه، والتقوية في اللغة الإنجليزية ، ويبقى المكان يبهره، ويركز على وصفه، وخاصة مرافق بناية الجامعة الأميركية ، وتبقى الحسرة تلازمه على واقع أهله وأبناء شعبه في المخيمات، وتسحره بيروت بأحيائها ومرافقها ، وشوارعها العامرة بالحياة .

وفجأة تظهر فتح في طريقه ، ويتم تجنيده بسرعة ، لأن الرغبة والإعجاب بفتح والفدائيين كانت تسكن قلبه من قبل ، وفي تلك اللحظة تنهي ابتسام العلاقة معه بعد اكتشاف أمرهما .

اللوحة العاشرة : حياة جديدة

بين البس في هذه اللوحة الزهو الذي أصابه بعضوية في فتح ، فأحس أنه ساهم في صنع التاريخ ، ويحصل على المرتبة الثانية في إلقاء الشعر في المدرسة ، وتتوالى أخبار المقاومة الفلسطينية ، ويبدأ بتوزيع البيانات ، ويلتقي بالقيادات الطلابية لفتح ، ويتم تأسس نادي فلسطين للدراسات في المدرسة ، وتغير الطائرات الإسرائيلية على مطار بيروت ، وتم التظاهر والإضراب من قبل طلاب لبنان في الثانوية ، ويشتعل حرم الجامعة الأميركية بالمظاهرات والإضراب ، وتستقيل حكومة اليافي ، ويتولى رشيد كرامي رئاسة الحكومة ، ويصبح البس مسئول خلية ، ثم يصبح العمل أكثر تنظيما ، وبدأ الخروج من إطار المدرسة والمشاركة بمهرجانات ونشاطات كثيرة خارجها . وتم اختيار البس في لجنة لقيادة العمل في الثانويات ، وتم تنسيق العمل على مستوى مدارس لبنان كلها ، وبدأ

الإطلاع والاحتكاك مع باقي القيادات والنظراء في الجامعات ، ويقف البس على البؤس والفقر الذي تعيشه المخيمات ، ولهذا يتم تشكيل لجان جمع التبرعات والمساعدات لأهل المخيمات . وأثناء ذلك ينفجر غضب جماهيري على اعتداء قوات الجيش على مجموعات فدائية في منطقة مجدل سالم في الجنوب .

مظاهرات ضخمة تهتف باسم الثورة ، وتتصدى قوات الأمن ، ويسقط قرابة ثلاثين شهيدا وعشرات الجرحى ، ويحصل احتكاك مع طلاب مناوئين دافعوا عن الجيش والسلطة، وهم الرابطة اللبنانية المعادية للفدائيين والمتخوفة على لبنان من الوجود الفلسطيني. وإثر هذه الأحداث ، وسقوط هذا العدد من الشهداء ، تستقيل حكومة رشيد كرامي ، ويرسل عبد الناصر مندوبا يحضر عرفات من الأردن لوقف التوتر بين الفدائيين والجيش اللبناني ، ويبقى التوتر حتى إبرام اتفاق القاهرة برعاية عبد الناصر . وفي هذه الفترة تقترب الامتحانات ، ويبذل البس جهودا مضنية في الدراسة ، ورغم الظروف والأحداث يحصل على علامات تقرب من الخمس والثمانين ، وتفوز فتح بأغلبية مقاعد مجلس الطلبة في الجامعة الأمريكية ، تحدث مناظرات أسبوعية في ما "سبيكرز كورنر" شبيهة بـــ" الهايدبارك" في لندن يتحدثون فيها بما يشاؤون .

اللوحة الثانية عشرة : أبو علي إياد

يبدأ هذه اللوحة بتذكر أهله في البقعة ، وتصله رسالة تخبره بقدوم مولود جديد وهو نبيل ، وأن أخته دلال قد كبرت ، وسعدية ستنهي التوجيهي في السنة المقبلة ، ووالده مازال يعمل في تجارة المواشي والخيام تحولت إلى(براكيات)، ويفكر بزيارة أهله ، ألا أن العطلة قصيرة ، وكذلك مسؤوليته التنظيمية تمنعه ويذهب البس ورفاقه لدورة تدريبية في الجنوب .

ويرسل لنا البس في هذه اللوحة بعض نسائم الحب لتلطف الجو ، كما لطفت قلبه البائس ، ويصور لنا لقاءه عايدة ، وهدية عيد ميلادها ، واعترافه لها بالحب ؛ ثم ينتقل إلى القسوة والتدريب في معسكرات التدريب ، واللقاء الأول مع أبي علي إياد الذي كان قاسيا معهم ، ويظهر البس صلابة أعجبت أبا علي إياد .

اللوحة الثالثة عشر : اصطفاف ضدنا

يستعرض في هذه اللوحة الخبرات الجديدة التي اكتسبها في الجنوب ، وتعرف على حياة المقاتلين ، وشكل صيف 1969م ، تحولا نوعيا في حياته ، فالكفاح من أجل فلسطين يصطدم بكيفية التعامل مع الواقع اللبناني الرافض لاتفاق القاهرة .

وتسلم الرئاسة سليمان فرنجية بعد فوزه على سركيس ، ويسيل الدم اللبناني والفلسطيني في عهده، ويجد رفض الجبهة اللبنانية صداه داخل الجامعة الأميركية.

في الصيف يملأ الحب كيان البس ، حبه لفلسطين ولشعبه ولأهله ولعائدة ، وهذا كله دفعه للعمل بلا حدود ، تنظيم ، وبيانات ، وزيارات للمخيمات الفلسطينية في لبنان ، وسط هذا كله يبقى حبه لعايدة يعطيه استقرارا وأمانا ودفعة للأمام .

مع بداية عام 1970/1969م يأتي زلزال مشروع روجرز ، وفي الجامعة اشتباك واسع بين فتح وأنصارها،وطلاب الرابطة اللبنانية، وتغلق الجامعة لأيام ، ويمتد الصراع إلى المدرسة ، وتقام المظاهرات والاجتماعات .

اللوحة الرابعة عشر : عودة إلى الأردن

تبدأ هذه اللوحة بالحديث عن النقاش والتنظيم داخل طلاب" الإنترناشيونال كولدج"، وعن دورهم في تحرير فلسطين ، ووضع الخطط والبرامج ، وحصر مهمته في الجانب الإعلامي، ومشاركة طلاب الجامعة الأمريكية، وتخلل هذا الحديث جلسة شاعرية مع عائدة، والحلم بالعودة ، ويتحدث عن مواصلة التدريب في مناطق مختلفة ، ويتحدث عن امتحان البكالوريا اللبنانية ، ولم يعد لديه طموح بالمرتبة الأولى بسبب الانشغال ، وبعد الانتهاء من الانتخابات ينقسم أعضاء التنظيم إلى قسمين: قسم توجه إلى سورية ، وقسم إلى الأردن ، ومنهم البس ، للتعرف على القواعد في الأردن ، وللتحضير لندوة شباب فلسطين العالمية .

اللوحة الخامسة عشر : نذر أيلول

يتحدث عن طريق العودة إلى عمان، ويحكي قصة شاب ذهب لشم الهوا وعاد مفلسا ؛ ليعكس أن في بيروت كل المتناقضات ، وعند وصوله إلى البقعة تصدمه الحالة ، براكيات وقذارة وفقر مع ألم وأمل بانتظار العودة ، ويصف فرح والدته وأهله بعودته ، ويعود هو إلى (اللجن) والليفة, والصابون ، (وبابور الكاز) ، وأوعية التبريد والتسخين،

ويتحدث عن أهله وأقاربه بشكل سريع ، وكأن أحداث بيروت المتسارعة اشغلته عن الحديث عن أهله وأقاربه ، ويقدم نفسه لأبي القاسم مسئول فتح في المنطقة ، ويتلقى إيجازا عن الوضع في الأردن ، والذي بدا متوترا، ويبدو أن هناك جهات خفية تعمل على تأزيم الموقف .

وتنعقد الندوة العالمية ، وتحدث فيها اشتباكات حول مشروع روجرز، ويلقي مندوب الجزائر حذاءه في وجه مندوب مصر، وتنتهي الندوة . وبدأت نذر أيلول الأسود تطل برأسها ، ويلغي البس عودته إلى بيروت ، ويبقى مع أهله .

اللوحة السادسة عشر : أيلول الأسود

يتلقى سلام ابتسام ، وأنها لن تراه ؛ لأنها ستتزوج ، وتمنى لها التوفيق ، أما قلبه فخفق لعائدة عصفورة بيروت . يبدو أن البس يحاول أن يخفف من وطأة لوحة أيلول الأسود ، فيضع لها إطارا من الحب ، فهل يريد أن يقول ذهب أيلول الأسود وأيلول الرمادي وأيلول الأحمر وأيلول الأصفر وأيلول بكل ألوانه ، وبقي الحب .

يلغى زيارة القواعد للقادمين من بيروت ؛ بسبب الأوضاع ويعودون أدراجهم ، ويلتحق البس بتنظيم المخيم ، ومظاهرات ومسيرات تندد بعبد الناصر لقبوله مشروع روجرز .

يزداد التوتر ، و تتلبد الغيوم ، وإعلان عن محاولتين لاغتيال الملك حسين ، ويتم تبادل الاتهامات بين الجيش والمنظمات ، كل يحمل المسؤولية للآخر ، ويتحدث عن خطف لأربع طائرات ، وتحط ثلاثة منها في الصحراء الأردنية قرب الزرقاء ، وتنتهي بتفجيرها ، وبعد ذلك استقالت حكومة عبد المنعم الرفاعي ، وتشكل حكومة عسكرية ، وفرض الأحكام العرفية ، وفي 16 أيلول يبدأ الصدام ، ويتم قصف مواقع الثوار من الجيش ، ويتوقف القتال بعد عشرة أيام ، ويتم الاتفاق على إخلاء الفدائيين والتجمع في أحراش جرش وعجلون ، ويموت عبد الناصر ، ويودع البس عائلته عائدا إلى بيروت بقلب يقطر دما .

اللوحة السابعة عشرة : المكتب الطلابي

يضيف البس في هذه اللوحة عودته إلى بيروت ، وتوافد زملائه الأعضاء في التنظيم والأصدقاء لتهنئته بالسلامة ، وأسئلة كثيرة حول ما حصل ، واستقبلته عائدة

بالأحضان يرددون أشعار أحمد فؤاد نجم ، وتجتمع اللجان لتقييم الأمر والموقف بعد أيلول . وأصبح واضحا أن لبنان ساحة لا يجوز التفريط بها ، ولكن قيادة إقليم لبنان قررت منع المهزومين في أيلول من دخول لبنان ، ويتضح أن هناك صراعا خفيا لا يعرف الكثير أبعاده ، ومظاهرات في كل لبنان تدين أيلول والأنظمة العربية ، وتهاجم ليلى خالد النظام الأردني والأنظمة العربية ، وطلاب أردنيون يرفضون التطاول على النظام الأردني ، ولن يسمحوا بالتمادي وشكلوا " التنظيم الأردني " تساندهم الرابطة اللبنانية ، وكل من يعادي الوجود الفلسطيني في لبنان .

وتم اختيار البس عضوا في المكتب الطلابي ، ويدور نقاش حول تدفق مقاتلي فتح إلى لبنان .

اللوحة الثامنة عشرة : في مهب الريح

نتائج أيلول تفرض نفسها ، وخلافات حول انتقال قيادة المنظمة إلى لبنان، أو دمشق ، ورأي يرى أن قادة أيلول لا يحق لهم استغلال ما أنجز في لبنان .

ينظم المكتب الطلابي محاضرات لقادة مختلفين مثل د . محجوب عمر،والمحامي إبراهيم بكر ، تستمر الخلافات والاشتباكات ، وفي ظل هذه الخلافات ، وضغط الدراسة ، يتلقى البس نبأ وفاة أخيه محمد في حادث سيارة في السعودية ، يطوي حزنه ، ويتابع العمل في نشاطات التنظيم ، ويسهر الليالي تحضيرا للامتحانات . ينشط التنظيم الأردني ، ويدعو البس إلى العقلانية وعدم الصراع ، وإضراب في الجامعة الأمريكية احتجاجا على زيادة الأقساط على الطلاب ، ويلتقي لأول مرة كل المختلفين .

وسط زحمة الأحداث يقدم امتحان البكالوريا ، وينجح بدرجة مشرفة ، ولكن لنشاطه السياسي يصبح مستقبله الجامعي في مهب التاريخ ، فهناك قرار بإنهاء منحته الدراسية مع نهاية الصيف .

اللوحة التاسعة عشرة : اختطاف

يتخرج البس من الثانوية ، وحفلة راقصة مع عائدة احتفالا بالتخرج ، يذهب إلى العراق لدراسة الطب ، ويتفاجأ بأن المطلوب أن يكون ، في حزب البعث يرفض ويعود إلى بيروت يبحث عن عمل ، يعمل مدرسا خصوصيا ، ويعود لممارسة مسؤولياته في حركة فتح ، ويتقبل فكرة عدم دخول الجامعة ، ولكنه يحس في أعماقه أن شيئا سيحدث .

صدام مع التنظيم الأردني، وخطف زعيمه عبد الكريم الكباريتي وعرفات يعد بالإفراج عنه . وعلى أثر ذلك حل مجلس الطلبة ، وطرد اثنان وعشرين طالبا منهم أعضاء المجلس . تعلن الجامعة أسماء المقبولين ، ولم يكن البس منهم .

اللوحة العشرون : مفاجأة

تأتي المفاجأة ويقبل – بعد سجال – في الجامعة الأميركية ، وينطلق إلى الحياة بجد وثقة،ويكتمل التغير والتكيف مع الواقع الجديد،حتى الحب أصبح مختلفا، وأسطورة الفدائي صار جزءا منها,ولكن بتغير المفاهيم ، وينعقد مؤتمر فتح الثالث في سوريا، وتجري فيه مراجعات لمسيرة فتح،وترتيب الأوضاع ، وخطة عمل للمستقبل،للساحة اللبنانية مساحة كبيرة ، ويتم إقرار النظام واللائحة الداخلية ، ويتم تشكيل لجنة تحضيرية

لمؤتمر الجامعة البس أحد أعضائها ، والدكتور نبيل شعث المشرف عليها .

اللوحة الحادية والعشرون : ثلاثة أصوات

ينعقد المؤتمر برئاسة الدكتور نبيل شعث ، وتجري انتخابات يتنافس فيها ثلاث قوائم، ولا يحصل البس إلا على ثلاثة أصوات منها صوته نتيجة لملابسات معينة ، ويعود لقيادة خلية من خمسة أفراد ؛ ويعطيه هذا فرصة للدراسة ، ويتعرف على جميع الأطياف وحركات التحرر في الجامعة . ويزداد الإيمان بالشعب وقدرته على التحرير .

اللوحة الثانية والعشرون : موضع اهتمام

يحسم الصراع بين لجنة الإقليم لصالح اللجنة المركزية القادمة من الأردن ، ويستقر الوضع ، ويتولى قيادة ساحة لبنان أبو يوسف النجار، وكمال عدوان ، وأبو الهول .

ويتم احتلال بناية وست هول بقيادة محمد الدجاني، وطالبت بعودة الطلاب المفصولين، ولأن المطالب مشروعة، سارعت قيادة فتح بمساندة هذا الإجراء، ودعت أحزابا تساندهم ، وتم تعليق الدراسة ، هدد المحتلون بتفجير البناية إذا حاول أحد اقتحام البناية ، تتم الاستجابة للمطالب ، ويقرر إعادة المطرودين ومجلس الطلبة . خلاف حول مجلس الطلبة في الجامعة والمطالبة باتحاد مستقل عن الجامعة . أما الجهة اللبنانية فقد أصبحت ساخنة جدا ، وتنطلق العمليات ضد إسرائيل ، فتوالت الأحداث بسرعة فائقة ، وأعلنت منظمة أيلول الأسود بزعامة أبي إياد عن عملية ميونيخ ، وعن اغتيال وصفي التل ، واغتالت إسرائيل غسان كنفاني وقادة فلسطين في أوروبا ، وتبدأ حرب استخبارات

غير متكافئة مع الموساد .تتوسع في تلك الفترة دائرة علاقات البس، ويتقرب من الدكتور كمال الصليبي ، ولأول مرة يتحدث البس على " سبيكرز كورنر" فيلفت الأنظار .

اللوحة الثالثة والعشرون : منحة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

أصبح متحدثا دائما في " سبيكرز كورنر" ، وتتكثف حواراته مع اده ، ويتعرف على ناجي علوش الذي رافقه مدة طويلة ، وتعلم منه الكثير ، وبدأ هم المصاريف ورسوم الفصل الثاني .

أعاد اده التشكيل ، وأصبح البس مسئولا لجناح يتكون من عدة خلايا .

وفجأة يأتي الفرج بمنحة من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان تشمل الرسوم ومصروفا شهريا ، وثمن الكتب .

وقفنا عند اللوحات السابقة بشكل مفصل ومنفرد ؛ لأن معظمها شكل منعطفات مهمة في سيرة فتحي البس الذاتية ، أما اللوحات التالية ، فتوقفنا عليها سيكون عاما – خاصة اللوحات التي تتحدث عن فترة بيروت – ، وإذا ما صادفنا لوحة تشكل منعطفا وأهمية سنذكرها محددة .

في اللوحات التالية للوحة السابقة ، تبقى الحياة تسير في الجامعة ولبنان كعادتها ، اجتماعات وأحزاب ومظاهرات وصدامات ، يزامن ذلك محاولة من البس تثقيف نفسه من خلال الإطلاع على كتب وثقافات مختلفة ، مع احتراس من القضايا الدينية ، وتذكر قليل لأهله في البقعة ، وحضور دائم للحب ، فليس غيره يساعد على تحمل كل تلك الصعاب ، وهذا الحب يمر بمنعطفات وتغيرات شبيهة بالتغيرات والتحولات التي تطرأ على العمل الثوري . وتأتي الصدمة في نيسان عام 1977م عندما اغتالت فرقة كوماندوز إسرائيلية الشهداء كمال عدوان ، وأبا يوسف النجار وكمال ناصر , بعد ذلك بدأت نذر أيار تلوح في الأفق ، لتبدأ حرب جديدة قيل إن بعض تنظيمات الثورة كانت سببها ، وتبدأ مناوشات مع الجيش اللبناني ، وتنبري السرية الطلابية ، والتي أحد أعضائها البس ، للدفاع والمقاومة ، وتنتهي الحرب بالعودة إلى أتفاق القاهرة ، وعاد الجيش إلى ثكناته ، ويلوح في الأفق أمل جديد بالنصر مع حرب 73،ولكن الذي يحصل هو وجع النصر المنقوص .

بقيت المسيرة الدراسية للجامعة الأمريكية تسير حتى جاء القرار برفع الرسوم الجامعية اعتبارا من العام الدراسي75/74 ، فبدأت مواجهات ومظاهرات عمت أرجاء بيروت قوبلت بالقمع من القوات الأمنية ، وجاءت هذه المواجهة مع الجامعة وسط تلبد لغيوم السياسة لدى فتح وباقي المنظمات الثورية ، عندما رفضت الجامعة مطالب مجلس الطلبة حصل الإضراب ، وانطلقت المظاهرات داخل حرم الجامعة ، وتم احتلال البنايات داخل الجامعة ، وكان البس المنسق لهذه العمليات ، وينتهي الإضراب باقتحام للجامعة ، ويتم الاعتقال ، ومن ثم تم طرد 103 طلاب من بينهم البس ، ويدخل مرة أخرى في دوامة القلق والضياع ، وتجري محاولات للعودة إلى الجامعة إلا أنها تبوء بالفشل ، ويتم الترحيل إلى القاهرة ، وإقامته القصيرة في القاهرة أعطته فرصة التعرف على أشخاص جدد، ويتم ترحيله ويعود إلى بيروت .

ومحاولات العودة إلى الجامعة ، كل ذلك في ظروف سياسية صعبة ، وحالة تأزم على الساحة اللبنانية ، وبدأت نذر الحرب تلوح بالأفق .

وبدأت الاشتباكات المسلحة في بيروت ، وكانت الافتتاحية بمجزرة عين الرمانة ، التي أرتكبها الكتائبيون ضد الفلسطينيين ، لتبدأ حرب أهلية طال أمدها ، وتتورط منظمة التحرير في حرب وسط قناعة من الكثير أن الخاسر الأكبر فيها الفلسطينيون " استمرت الحرب قذرة ودموية ، تحول بعض البشر فيها إلى وحوش كاسرة " [(1)] .

يعمل البس في هذه الفترة – بتكليف من أبي جهاد– رئيسا لتحرير مجلة" فلسطين المحتلة "، ويتحول إلى حب جديد ، ويبدو أن قصص الحب عند فتحي البس تتحول وتتبدل وتنتهي مع كل تحول وتبدل منعطف من منعطفات حياته ، فهل الحب كالحياة ؟؟

تتم العودة إلى الجامعة بعد أن قام نجم أحد الطلبة المفصولين بقتل أستاذين جامعيين، وخطف رئيس الجامعة وبعض صحبه، ويكاد يتورط البس في القضية لولا مساعدة أبي إياد، وتستمر الحرب الأهلية، وتدخل القوات السورية لبنان، وبعد ذلك تتشكل قوات الردع العربية ، ويظهر العميل سعد حداد ، وتتحول الكتيبة الطلابية إلى كتيبة الجرمق ، ويعود البس لينهي الفصل الأخير في الجامعة ، وينتهي صمود مخيم تل الزعتر بمجزرة بشعة .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 244.

ينهي البس دراسته ، ويتخرج في الجامعة ، ويبدأ صراع ، هل يعود إلى مخيم البقعة ويساعد أهله ؟ أم يبقى في الكفاح المسلح ، ويحسم الأمر في النهاية بالعودة إلى الأردن إلى مخيم البقعة ، وتنتهي بذلك مرحلة بيروت من سيرته الذاتية ، والتي كان لها نصيب الأسد في هذه السيرة الذاتية , ولقد أخذت مرحلة بيروت نصيب الأسد في سيرة البس الذاتية إذ شكلت مائتين وست وأربعين صفحة من أصل ثلاثمائة وخمسين ، وشكلت مرحلة ما قبل بيروت أربعين صفحة ، بينما شكلت ما بعد بيروت أربعا وأربعين صفحة ، وزد على ذلك أن فترة بيروت بقيت حاضرة عند الحديث عن الفترات التي بعدها ، ولعل الذي جعل فترة بيروت تشغل هذا الحيز ، أن بيروت كانت فيها سنوات التكوين " جئتك فتى في سنوات التكوين، وأغادرك وقد امتلأت حبا لك . عرفت فيك الحياة بكل أشكالها . تغيرت ، واكتملت شخصيتي روحيا وفكريا وتجربة لم أكن لأحصل عليها في أي مكان آخر في العالم . كنت حنونة وقاسية . تناقضك الدائم علمني أن الحياة مثلك متناقضة ، يقترن فيها الحزن بالفرح، اليأس بالأمل، الخوف بالأمن، المعرفة بالجهل، القلق بالسكينة، ودائما الإصرار على أن الحياة جميلة مهما كانت أيامها قاسية وجارحة ومؤلمة ." (1) .

يعود إلى مخيم البقعة وسط فرح أمه ووالده وزغاريد أخته فتحية ، و ينهال الناس والأقارب للمباركة ، بعد ذلك يقوم بأول محاولات التغيير من البيت في توسعته ، وإضافة حمام مناسب ، ثم يفتتح صيدلية الكرامة ، ويتحدث عن طرائق المهنة ، التي تعكس بساطة الناس وسذاجتهم ، ويتحدث عن والده وهو يجلس أمام الصيدلية مفتخرا بأنه صاحبها .

بدأ البس يضيق بالجلوس في الصيدلية ، ويحاول السفر مع شركة ألمانية ، إلا أن الجواز محجوز لدى المخابرات العامة , ثم يسمح له بالسفر إلى ليبيا بعد أن تعاقد مع شركة " روش " ، ولكنه ما إن يصل حتى يتعارك مع أحد الموظفين الليبيين ، ويعود على جناح السرعة إلى عمان .

وتبدأ نقطة تحول في حياة البس مع تأسيس دار الشروق عام 1979 م .

ويتعرف في عمان على عدد من الأدباء والشعراء والمثقفين ، ويبدأ يحس بازدواجية فهو

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 287.

يعيش حياتين ، حياة ابن المخيم وظروفها القاسية ، وحياة المثقف الذي يقضي الأمسيات الثقافية والحوارات الفكرية .

يزور البس بيروت بعد مدة ، فتتأجج الذكريات ، فلكل مكان قصة وذكرى بكل ما فيها من حزن وألم وفرح وأمل .

يعطي البس قصة أسلمت العمل الثوري والقضية أهمية كبيرة ، وبين موقفه الرافض لذلك مؤكدا لرؤيته ، أن الدين لله والوطن للجميع .

يبقى البس يتابع الأحداث في لبنان ، واجتياح إسرائيل وغزوها لبنان ، ويقتله الأسى وهو يشاهد عملية خروج المقاتلين على ظهر السفن إلى المنافي .

يقص علينا البس أخيرا حياته الخاصة ، ويحدثنا عن قصة زواجه وتعلقه بفتاة مصرية ، وكالعادة في قصص حبه تنتهي في أوجها إلى الصداقة ، وتظهر ابنة عمه ضياء ، ورغم فارق السن إلا أنها تبدي نضجا يجعلها أكبر من عمرها ، وتستطيع في النهاية أن توقع هذا الثوري المتمرد في الأسر ؛ لتضع ضياء حدا لهذا الضياع ، ويتحدث بعجالة عن أسرته وأبنائه .

ثم يتحدث عن دراسته للفلسفة في الدبلوم العالي ،وتعثره في الماجستير لظروف قاهرة ، ثم يتحدث عن مشاركته في تأسيس اتحاد الناشرين الأردنيين واختياره نائبا ورئيسا له لدورات عديدة , وكذلك اختياره نائبا لرئيس اتحاد الناشرين العرب .

يستعرض البس الأحداث الجسيمة ، ويتحدث عن الانتفاضة الأولى التي أعادت الاعتبار للشعب الفلسطيني ، ثم غزو العراق للكويت ، والتحالف ضد العراق ، أحداث جسيمة أوصلتنا إلى أوسلو ، يعكس البس معاناته في قبول أوسلو أو رفضها ، ويخلص إلا أنه " لا بأس في أن نقبل بجزء من الحلم يتحقق " [1].

يعود البس إلى فلسطين لإنشاء فرع لدار الشروق ، وهو على مقربة من الفالوجة ،يبكي ويتذكر أحاديث الأبطال والتضحيات،ثم يستذكر حديث والده ووالدته عن الفالوجة ، ويختم سيرته بقوله : " قهرتني الأيام ، لكنها لم تهزمني بعد ! "[2].

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 333.
2) المصدر السابق ،ص 350.

الدراسة الفنية :

ملاحظات حول " انثيال الذاكرة " :

بعد وقوفنا على أهم أحداث ومفاصل ونقاط التحول في سيرة فتحي البس " انثيال الذاكرة هذا ما حصل " نخرج بالملاحظات التالية :-

أولا : يمكن تقسيم أحداث هذه السيرة الذاتية إلى ثلاث مراحل : الأولى ما قبل بيروت ، والثانية مرحلة بيروت ، والثالثة ما بعد بيروت ؛ لأن مرحلة بيروت شكلت المحور الأساسي لأحداث السيرة ، وهي حاضرة في سائر أرجاء السيرة ، وقد أشرت إلى ذلك عند العرض .

ثانيا : يراعي البس في سيرته الترتيب الزمني للأحداث , وإن كان يخل في بعض الأحيان بهذا الترتيب من خلال السرد التذكاري , أو الارتداد الخيالي , وسنتناول ذلك مفصلا عند الحديث عن الزمن في هذه السيرة الذاتية .

ثالثا : يبدو أن الدافع إلى كتابة البس سيرته الذاتية ، والذي جعل ذاكرته تنثال ، هو فترة إقامته في بيروت ، وعمله الثوري ، وواضح اعتزازه وإعجابه بتلك الفترة التي شكلت شخصيته ، بل يبدو أن أكثر فترات حياته رضا عن النفس هي فترة بيروت ، وبقيت تعشش في ذاكرته و وجدانه حتى انثالت . فترة بيروت كانت تمثل للبس الحياة بكل تناقضاتها وأبعادها ، ففيها الفرح والحزن والحب والهجر والفشل والنجاح واليأس والأمل والخوف والأمان والموت والحياة .

رابعا : تعكس سيرة البس الذاتية معاناة جيل بأكمله ، بل أجيال ولدوا في ظروف أجبرتهم على النضوج في سن مبكرة ، وأن يعيشوا المعاناة والمأساة بكل أبعادها ، ولهذا كانوا قادرين على تحمل المسؤولية ، والتأقلم مع ظروف الحياة بجميع مراحلها وتحولاتها القاسية ، بل هم قادرون أيضا على مجاراة التطورات الحضارية ، وليس التطورات فحسب ، بل القفزات الحضارية ، فها هو البس يتكيف مع القفزة الحضارية والمتمثلة بانتقاله المفاجئ ، من قسوة الحياة وبؤسها في مخيم البقعة ، إلى نعيم الحياة والحضارة في بيروت ، وأين في بيروت ؟ في " الإنترناشيونال كولدج ". ما هي إلا أشهر ، ولا نبالغ إذا ما قلنا أياما ، وينسجم مع أبناء علية القوم، ومع الحياة الجديدة، والأهم من هذا وذاك ، انه بقي منسجما مع ذاته ، فلم يشعر بعقدة النقص ، كونه ابن مخيم وبائع فلافل سابق ، بل

زاده ذلك إصرارا وتحديا ، وربما نفسر انخراطه وكثير من أبناء جيله، في صفوف فتح والعمل الثوري, على أنه محاولة لإثبات الذات ، وإبرازها ، والشعور بالتميز , ولا يمكن أن نغفل الجانب الوطني في هذا السياق .

خامسا : ينتاب القارئ لسيرة البس، خاصة في ما يخص فترة بيروت ، وتحديدا انخراطه في صفوف فتح والثورة ، أن البس رغم رضاه عن الدور الذي قام به ، ورغم توليه مواقع قيادية إلا أنه كان يشعر أنه لم يأخذ المكانة التي يستحق , صحيح أن البس حاول مرات عديدة أن يبين للقارئ أنه لا يلتفت إلى مثل هذه الأمور، فهو يؤدي دوره في أي موقع كان، فالهدف أسمى من كل شيء ، إلا أنني كقارئ انتابني شعور أن في نفس البس شيئا ، قد أكون مصيبا، وقد أكون مخطئا،يقول البس : " ضمتني القيادة الجديدة إلى خلية من خمسة أفراد ، اعتبرتهم عناصر غير ملتزمة، بحاجة إلى تأهيل ، أو رقابة، أو كليهما. كانت خلية منبوذة . عيرني بعض الأعضاء بأنني عدت من المكتب الطلابي إلى عضو خلية .

لم أعر بالا لذلك ، رفضت الانضمام إلى تنظيم بدا موازيا للتنظيم الشرعي ، يتصل مباشرة بأعضاء في اللجنة المركزية أو الإقليم .

واظبت على القيام بواجباتي داخل خليتي ، مؤمنا بأن لا قيمة للموقع ، بل للعمل ، والإخلاص فيه "(1). وقد وضح لي الكاتب في لقاء معه * ،عند مناقشة هذه القضية ، أن عدم الرضا ناجم عن رفضه استغلال بعض القيادات لأشخاص ، وإيصالهم لمراكز متقدمة لخدمة مصالحهم .

سادسا: قصص الحب في حياة البس جاءت تناسب كل مرحلة من مراحل حياته أو تعبر عن منعطف من منعطفاتها ، فالحب في عقبة جبر يعبر عن مرحلة المراهقة ، وكذلك حبه في مخيم البقعة، وقصص الحب في بيروت جاءت تعكس تحولات نفسية في حياة البس،سواء على مستوى الدراسة أم على مستوى العمل التنظيمي،ولهذا كان يشعر القارئ أن مصير هذا الحب، حتى وهو في أوجه، هو الفشل ، و أظنه كان في أعماق نفسه يتمنى أن تنتهي كل قصة حب عندما يشعر أنها لم تعد تناسبه، ولكن لأنه وفي ويكره الخيانة لم

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ،ص 112.

*) تم هذا اللقاء مع الأستاذ فتحي البس يوم الاثنين الموافق 2010/5/10 في مكتبه في دار الشروق.

يبادر إلى إنهاء علاقاته بنفسه، بل تركها للظروف؛ لذلك عندما أخبرته ابتسام بانتهاء علاقتهما حزن لكنه لم يغضب" رفضت ابتسام التنفيذ. سلمت الأخت الكبيرة الرسائل للوالد . كانت النتيجة استدعاء ابن عمها ، وكتب كتابها لتتزوج فور إنهاء التوجيهي . أبلغتني بإنهاء العلاقة ، لأنها أصبحت على ذمة رجل آخر .

اختلطت مشاعري ، حزنت دون غضب . كانت مشاعر أخرى تنمو بالتدريج " [1] .

وانتهاء قصة حبه لعائدة ، جاءت في ظروف وتحولات جديدة ؛ لذلك كان سعيدا لانتهاء هذه العلاقة بأقل الخسائر " ذابت حياتي الشخصية في خضم هذه العلاقات الجديدة الواسعة . تكرست قطيعة العلاقة مع عائدة ، وظلت العلاقة التنظيمية والصداقة .

لم يكن الوضع مريحا لأي منا ، لكنه مر بأقل الخسائر النفسية , أو الجراح أو الحقد . لا شك أن كلا منا احتفظ للآخر بأنبل المشاعر ، وأظنها ما زالت ." [2] .

وتنتهي قصة حبه لفاتن بنفس سيناريو إنهاء قصة حب عائدة " على البلكونة حيث أعلنت فاتن حبها لي منذ قرابة سنتين ، أعلنت أنها لم تعد تراني حبيبا ، بل صديقا ورفيق درب . قبلت جبينها . قلت : ستظلين في القلب موضع التقدير والاحترام . ستبقى صداقتنا مثالا لجمال النفس وسموها . اكتوينا بنار الحرب بدل الحب .

حضنت فاتن مودعا حالة الحب ، أقبل بداية صداقة تمتد حتى الآن ." [3]

وكذلك الحال مع سما " جاءت سما بجوابها النهائي : إن ارتبطت بي لن تذهب إلى الأردن ، وإنه في كل الأحوال، تعارض عائلتها زواجها بفلسطيني لا يعرفون مصيره . بدأت أستعد للعودة ، وفي قلبي جراح اللايقين بالمستقبل . " [4] .

وقصة حبه في مصر رغم أنها كادت تنتهي بالزواج . إلا أنه كان يشعرك بأنها ستفشل ؛ لأن حياته رغم أنها كانت تميل إلى الاستقرار إلا أنها لم تستقر بعد " انتهى اللقاء بقرار صعب : أن نظل أصدقاء ." [5] ، ولهذا الحب الذي توج بالزواج هو حبه لضياء .

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 56.
2) المرجع السابق ، ص 145 .
3) المصدر السابق ، ص 286.
4) المصدر السابق ، ص 324 .
5) المصدر السابق ، ص27 .

سابعا : شخوص السيرة

شخصية فتحي البس هي الشخصية الرئيسية والمحورية في انثيال الذاكرة ، وهذا أمر طبيعي ، بل وأساسي وأحد مقومات السيرة الذاتية ، والملاحظ أن فتحي البس يقف على أدق تفاصيل حياته ، ويصف شخصيته بأبعادها المختلفة النفسية والفكرية ، ويتتبع تطوراتها بجميع أبعادها ، ويصفها وصفا دقيقا يعكس التحولات التي تطرأ عليها ، لكنه رغم ذلك أغفل أو تجاهل الوصف الخارجي لشخصيته ، فلم يقدم لنا أي وصف أو صورة لشكله الخارجي ، فانتهت السيرة ، ولم نعرف أهو طويل أم قصير ، أسمر أم أبيض ، سمين أم ضعيف ، وسيم أم غير ذلك ؛ وربما مرد ذلك أن الذي كان يسيطر على البس هو وصف شخصيته النفسية والفكرية،وعلى العكس من ذلك نجده عند وصف الشخصيات الأخرى في السيرة من أصدقاء أو صديقات أو حبيبات أو أقارب ، تجده يقدم لك وصفا خارجيا دقيقا، وإن كان مختصرا لهذه الشخصية أو تلك، وحتى هذه الأوصاف المختصرة والسريعة تكاد تخلو منها فترة ما قبل بيروت حتى محبوبته ابتسام انتهت علاقته ، ولم يصفها لنا .

شخصية الأهل والأقارب والرفاق

لم يقف البس في سيرته الذاتية عند شخصية الأهل والأقارب ، خاصة والده ووالدته وأخوته بالشكل الذي كنا نتوقع ، وإنما حديثه عنهما كان يأتي على شكل ومضات هنا وهناك من خلال تجميعها ، يمكن لنا أن نخرج بتصور معين عن تلك الشخصيات ، فشخصية الأم مثلا،والتي يجب أن تشغل حيزا واسعا في السيرة رسم لنا شخصيتها ببضع كلمات " تحتضن والدتي تلك الفلاحة البسيطة، واسعة الحيلة ، الصبورة ، أبناءها بحنان ، وفي كل الظروف ، تحرص على ترتيب الخيمة ونظافة محيطها " [1] .

والحديث عن والده جاء على لسان والدته " قالت إن جدي كان غنيا ، وكان والدي يملك عام 1948 سيارتين للنقل . كان مدللا، فهو الابن الأكبر لفلاح غني . كان يسهر في يافا ، ويتباهى في سوق " الخميس " المعروف في الفالوجة ، بأنه لا حاجة له بأن يقف في السوق ، فهو مالك " الخان " " [2] .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 27 .
2) المصدر السابق ، ص 30.

وما يثير الاستغراب والاستهجان أن الحديث عن وفاتهما جاء عرضا ، وكأنه مجرد خبر،فلم يصف لنا مشهد الوفاة ، ولا أثره في نفسيته ، بل إن حديثه عن وفاة والده جاء عرضا، وهو يتحدث عن استشهاد بعض رفاقه " كان أبو حسن وحمدي ثنائيا استثنائيا لا يعرفان الخوف ولا التعب, يحبهما كل من اقترب منهما. قضيت سنوات لا أعرف عنهما شيئا عدا اسميهما الحركيين. شعرت بالأرض تميد تحت أقدامي عندما تمكن عملاء الموساد من اغتيالهما في قبرص مع أخيهما مروان الكيالي عام 1988 . زاد في وجعي أني لم أكن في الأردن عند تشيعيهما. زرت قبريهما ونحن نواري والدي الثرى في المقبرة نفسها بعد أشهر قليلة. قيل لي لاحقا أنهما من أسس سرايا الجهاد وأشرفا على تنفيذ عمليات موجعة للمحتلين, سارا على هدي أفكارهما وإيمانهما. يظلان حاضرين في وجدان المناضلين الفلسطينيين، سواء من اتفق معهما أو اختلف, كانا أشبه بالأنبياء في الصدق والتفاني والإيثار وبساطة الحياة والقدرة على التحمل " [1] .

نلاحظ مدى تأثره لوفاة رفيقين كان يختلف معهما في الرأي ، ولنرى معا موقفا آخر كيف استرسل في وصف وفاة (أبو الراتب) ، بل خصص له لوحة كاملة ، وجاء الوصف دقيقا وعميقا يفيض حزنا وشاعرية، ويبدو لشدة انفعاله، وهو يكتب هذه اللوحة أنه وقع في بعض الأخطاء اللغوية " الشعب الذي أنبت أبو الراتب ، وقبله أبو علي إياد ، وعبد القادر الحسيني ، وحماد ، وأبو الطيب ، سينبت المئات بل الآلاف مثل أبو الراتب .

وترتج سيارة الإسعاف بنا ، وهي تهبط طرقات الجبل الوعرة ، وعلى مدى أربع ساعات كاملة ، نتحدث عن أبي الراتب ، عن عطائه دماثة أخلاقه وصلابته ، بطولته في البرجاوي والطبية، في الدامور والسعديات، في عينطورة ، والجبل ، وقبلها في فلسطين . شعاب فلسطين ودروبها تعرفه جيدا، سنوات عطائه لا يستطيع الحديث أن يغطيها. وتتحدث الأختان عن أبي الراتب خلال تدريبه لهما مع المجموعة ، عن سعة صدره ، عن طيبته ، عن حديثه وعن صرامته . لقد كان الوحيد الذي يمكن أن ينجح في تدريب مجموعاتنا .

وتكشف اليد المرتعشة عن وجه أبو الراتب ، ننظر إليه , تمتد يداي لإغلاق عينيه . ولكنه يفتحهما من جديد . أحس بخليط غريب من الأحاسيس والمشاعر ، أنفذ عبر النظر

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص315 .

إلى عيونه الخضراء إلى سهول فلسطين ، إلى قريته الخضر ، وأرى في عيونه صورة حماد وأبو الطيب وقبلهما عدنان وعزمي ومجاهد . وأتوقف عن محاولة إغلاق عينيه ، فهو يصر أن يرى مسيرة الدم والدموع نحو النصر " [1] .

قلت سابقا أنه في مرحلة بيروت يصف بعض أصدقائه ورفاقه وصفا خارجيا ، ويأتي هذا الوصف ليعكس لنا الصورة التي رسمها البس لذلك الشخص، وليعكس نفسيته ، فها هو يصف أبا علي إياد قائلا " قامة عالية ، عين من زجاج ، وعرج في القدم نتيجة إصابة في مكان ما ، وقسوة لم نعهدها " [2] .

ويصف شخصا آخر فيقول" جاء أحدهم، ويدعى روكس، أشقر ، أزرق العينين ، طويلا ، بدا لنا عملاقا " [3] .

ويصف عليا أبا طوق بعبارات مختصرة أيضا فيقول"ظهر علي أبو طوق ؟ رحمه الله، شاب قصير القامة بلحية كثة ، جاء من الأردن إثر معارك الأحراش ، وزامل معين وناجي ومنير وأعضاء آخرين من إقليم سوريا ، دائم الحركة ، ينهي العلاقات مع الناس بكل طيبة واحترام وتواضع . يعمل ليلا ونهارا ، وتصادفه في كل المواقع والدورات" [4].

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 261-262.

2) المصدر السابق ، ص68.
3) المصدر السابق ، ص 69.
4) المصدر السابق ، ص 139.

وفي الحديث مع الكاتب – في اللقاء الذي ذكرته سابقا – حول إغفاله الحديث عن قضايا تتعلق بأهله ، كموت والده ووالدته ، ابتسم ابتسامة ممزوجة بالأسى والحزن ،وقال : " إن هذه القضية أقلقتني والجواب في هذه المقالة ، التي نشرتها في مجلة الحياة الجديدة هذا اليوم 2010/5/10 " .

وللمصادفة كان هذا اليوم اليوم الذي ألتقيته فيه ، وسأورد هذه المقالة كما هي لأن فيها الجواب الشافي "

" **مع الحياة–أحزان مشتركة**

كلما خطف الموت واحدا من عائلتي وآخرهم ابن شقيقي الشاب عماد، ينفطر قلبي حزنا، واردد دائما ان الفراق صعب وان للقلب ان يحزن وللعين ان تدمع.لأنتصر على احزاني الخاصة التي تعيد الى ذاكرتي فورا صورا متتابعة للشهداء الذين عشت معهم لفترات ربما تكون أطول من فترة عيشي مع الكثيرين من أقربائي، ولعائلات ابناء شعبي الذين فقدوا احبتهم في مسيرة كفاح طويلة، وللعائلات التي قد تفقد ابناءها على الدرب الطويل الذي يسعى عموم ابناء الشعب لبلوغ نهايته بالتحرر والخلاص من الاحتلال وجبروته وبطشه .

لا أعرف أحدا ممن استشهد في معركة مخيم جنين، لكن صورا متخيلة لهم تدافعت لتحتل الصدارة، كم كانوا أبطالا، أعطوا مثالا حيّا لشموخ أبناء شعبنا، لصموده وتحديه وقدرته الفائقة على مواجهة آلة الحرب العنصرية المجنونة.بدأت صورة البطل يوسف ريحان قبها «ابو جندل» ، قائد معركة المخيم ، تتمركز في مقدمة الذاكرة، ولكوني لا أعرفه، ظلت صورة عباس النوري، أطال الله في عمره، الذي أدى دور أبي جندل في مسلسل الاجتياح، هي الملّحة، ووسط تعازي المحبين، أردد» شكر الله سعيكم»، وأضيع فيمن أتلقى العزاء، بابن أخي الشاب أم بذاك البطل الذي أعدموه بخسة ونذالة إثر أسره، بعد أن نفذت ذخيرته .

عندما يتشارك الانسان أحزانه مع أحزان شعبه، تهون عليه، ويبقى من الألم وميض

أمل بأن الحياة ستبتسم لنا في يوم من الأيام .

هل هناك تفسير علمي لما يحدث ، لماذا تتقدم صور على أخرى ، لماذا تتداخل الرؤى ، لماذا تقطع الأحزان شغاف القلب فيظن الانسان انه لن يشفى وأنه سيظل اسيرا لحالة الأسى ؟

وهل هناك تفسير علمي لمقولة ان كل المسائل تبدأ صغيرة وتكبر، الا الموت او المصيبة، تبدأ كبيرة وتصغر؟

الجواب الذي يخطر على بالي ودون الغوص في التفسير العلمي، ان الاحزان المشتركة تتقسم وتتلاشى بفعل محبة الناس والاصرار على الحياة، فتسود مقولة الحي ابقى من الميت، وان الحياة تستمر، فيعود الناس الى حياتهم الطبيعية، يتراجع الالم وينتصر الامل.

رحم الله عماد.رحم الله ابو جندل ورفاقه، رحم الله كل شهدائنا وموتانا. " [1] .

1) البس ، فتحي ، مع الحياة – أحزان مشتركة – ، ممجلة الحياة الجديدة ، العدد 5217 ، الاثنين 10 أيار (26 جمادى الأولى) 2010 م .

اللغة في انثيال الذاكرة :

اللغة التي يستخدمها البس في سيرته الذاتية، لغة فصيحة، وفي الوقت نفسه سهلة وبسيطة ، وتنساب انسيابا دون تعقيد أو توعر، وأظنه أختار هذه اللغة لتصل إلى الجميع، وهذا ليس غريبا على البس ، وهو الذي أختار حتى في أيديولوجية " خط الجماهير خط الشعب"، ومع هذا لا تخلو سيرته أحيانا من اللغة الأدبية الشاعرية الراقية , خاصة عندما يكون سرده مفعما بالوصف . ومن أكثر اللوحات التي استخدم فيها لغة شاعرية ومؤثرة عند وصفه موت أبي الراتب "تغرورق العيون الخضر بالدموع ، ويحتقن الوجه الأشقر بالدم الأحمر، ويختلط الصوت الحزين بالدموع الساخنة،ويتكرر الصوت : إنه أبو الراتب، من سيدرب الأخوات، من سيقود المعسكر ، من سيكون عل رأس الدورية القادمة إلى فلسطين، من سيقود عمليات الاقتحام الفذة ...وتكشف اليد المرتعشة عن وجه أبو الراتب ، ننظر إليه,تمتد يداي لإغلاق عينيه. ولكنه يفتحهما من جديد. أحس بخليط غريب من الأحاسيس والمشاعر، أنفذ عبر النظر إلى عيونه الخضراء إلى سهول فلسطين، إلى قريته الخضر، وأرى في عيونه صورة حماد وأبو الطيب وقبلهما عدنان وعزمي ومجاهد . وأتوقف عن محاولة إغلاق عينيه، فهو يصر أن يرى مسيرة الدم والدموع نحو النصر"[(1)] واستمع إليه وهو يناجي بيروت " جئتك فتى في سنوات التكوين ، وأغادرك وقد امتلأت حبا لك . عرفت فيك الحياة بكل أشكالها . تغيرت ، واكتملت شخصيتي روحيا وفكريا ، وتجربة لم أكن لأحصل عليها في أي مكان آخر في العالم . كنت حنونة وقاسية . تناقضك الدائم علمني أن الحياة مثلك متناقضة ، يقترن فيها الحزن بالفرح ، اليأس بالأمل ، الخوف بالأمن ، المعرفة بالجهل ، القلق بالسكينة ، ودائما الإصرار على أن الحياة جميلة مهما كانت أيامها قاسية وجارحة ومؤلمة ." [(2)] .

فعند الوصف ترتقي لغته إلى حد ما خاصة عند وصفه للمكان , كما لاحظنا في الاقتباس السابق , أنظر إليه وهو يراقب أمواج غزة " راقبت الموج يرتد عن صخر شاطئها ، فيرتد إلى صدري سيف الاحتلال ، وقهر الزمن ، وضياع الأمل أن تعود يافا عربية ، وتسطع أنوار تل أبيب ، فتظلم نفسي حسرة وغيظا ، وأسئلة بلا جواب عن مستقبلنا في

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 261-262.
2) المصدر السابق ، ص 287.

مهب ريح التسوية " (1) .

قلنا أن البس اعتمد على السرد ، وجاء السرد بضمير المتكلم , وكان يسترسل في سرده ويضعنا في خضم الأحداث، إذ كانت تأتي متلاحقة ، وفي رتابة قد تشعرنا بالملل ، ولكن كان يقطع هذه الرتابة ببعض الوصف ، والذي علقنا عليه قبل قليل ، وكذلك بعض الحوارات القصيرة " قلت لوالدتي محتجا ، لماذا " القهوة " ؟ نحن نخسر ما لدينا من مال قليل . أجابت إن والدي لا يتقن أي مهنة ، وهو يتذكر ما كان لنا في الفالوجة .

إن جدي كان غنيا ، وكان والدي يملك عام 1948 سيارتين للنقل . كان مدللا ، فهو الابن الأكبر لفلاح غني ." (2) .

وحواره مع مدير مدرسته وهو أطول من سابقه " صبيحة أحد الأيام ، كنت أقف في الدور بانتظار الباص سمعت صوت مدير مدرستي ينادي علي . عندما واجهته غاضبا : المدرسة خلصت خير ؟ قال لي: يا غبي ، أين أنت ، نبحث عنك. هناك منحة مدرسية لأوائل المملكة .أرسلنا اسمك لتقديم امتحان المنافسة ، ولم نعرف كيف نتصل بك. خسرت المنحة .

سألته ، لماذا خسرتها ؟ أجاب : الامتحان اليوم ، الساعة العاشرة في مركز التطوير التربوي التابع لوكالة الغوث في النزهة . سألته عن الوقت كان حوالي الثامنة . طلبت منه أن عيرني قلم " البيك " الذي يحمله ، وعشرة قروش سأردها له لاحقا .

سألني هل ستذهب وأنت في هذه الحالة ، بجزمة عمال البناء ، وبهذا المظهر المهلهل ، وبملابس لا تليق بمتقدم لامتحان، أجبته : أنت خائف على العشرة قروش والقلم. ضحك ، أعطاني ما طلبت ، ركبت " السرفيس " . وصلت إلى المركز قبل الامتحان بدقائق"(3) .

والحوارات كثيرة يطول تتبعها ، إلا أن السمة العامة لها، أنها جاءت قصيرة " انضمت إلي فاتن . حدثتها عن أحلامي وآمالي وأحزاني . استمعت إلى النهاية . أذكر أن حديثي كان وجدا وغضبا وحسرة .

علقت : أنا مكتئب لما حصل !

قلت : نحن لا نعرف الاكتئاب .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص347.
2) المصدر السابق ، ص30.
3) المصدر السابق ، ص 38 .

إنه مرض ، نحن نحزن أو نفرح أو نغضب ، وأنا في قمة الغضب .

اقترحت أن نذهب إلى " الديوك أوف ويلينتجتون " ، مقهى وبار يلتقي فيه طلبت الجامعة وأساتذتها . " [1] .

إن أهم ما يميز سيرة البس كثرة الأشعار والأزجال والأغاني الشعبية ، وبعض الأمثال والتي أضفت على سيرته حيوية ، وأفعمت لغته بالدلالات والإيحاءات ، فلا تكاد تخلو لوحة من لوحات سيرته من قصيدة ، أو أغنية أو زجلية ، ولو استخلصنا هذه الأشعار والأغاني الشعبية والأزجال لشكلت ديوانا للثورة ، وقد جاءت هذه الأشعار والأغاني والأزجال لتعمق معنى الدلالة ، وتختزل الأحداث، وتقطع رتابة السرد ، وكثيرا ما كانت تأتي للهروب من وقع المأساة ومرارة الأحداث ، لتروح عن النفس وإعادة التوازن ؛ لكي تستطيع الشخصية الاستمرار في سرد الأحداث؛ لذلك خلت المرحلة الأولى من الأشعار ، فلم يستشهد حتى الصفحة السابعة والخمسين إلا بيتين من الشعر القديم وهما :

" نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول

كم من منزل في الأرض يألفه الفتى   و حنينه أبدا لأول منزل " [2] .

ومع بداية الحياة الجديدة بدأت تنهال الأشعار والأزجال بقصيدة محمود درويش

" يحكون في بلادنا يحكون في شجن
عن صاحبي الذي مضى وعاد في كفن .
ما قال حين زغردت خطاه خلف الباب
لأمه الوداع
ما قال للأحباب .... للأصحاب
موعدنا غدا " [3] .

أورد البس في سيرته أشعارا لعدد كبير من الشعراء المعاصرين مثل محمود درويش ، ومعين بسيسو ،وأدونيس ،وإبراهيم نصر الله ،وعبد الرحيم مسعود ،وعبد الكريم الكرمي أبو سلمى ،وأحمد فؤاد نجم ،وناظم حكمت ،ومنير شفيق ،وأورد نشيد الثورة أكثر من مرة .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص180.
2) المصدر السابق ، ص43.
3) المصدر السابق ، ص 57 .

ومن الشعر القديم أورد بيتين للمتنبي،وبيتين لأبي تمام ومقطعا من قصيدة "يا ليل الصب".

أما الأشعار والأغاني الشعبية والزجل ، فقد أوردها كثيرا تجاوزت العشر مرات .

أما الأمثال ، فلم يستشهد إلا بمثل واحد هو " ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل " [1] أما الأقوال فأورد أربعة ، اثنين منها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما " اللهم أرزقني إيمانا كإيمان العجائز " و " والله إني أعرف أنك لحجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك " [2] .

و المقولة الثالثة هي لعبد الناصر " ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة " [3] .

والرابعة لياسر عرفات " يريدونني أسيرا أو طريدا أو قتيلا ، وأنا أقول شهيدا شهيدا شهيدا " [4] .

أما الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فلم يذكر منها شيئا ، وهذا ليس بمستغرب من رجل جعل شعاره " الدين لله والوطن للجميع " ولهذا مرت سيرته الطويلة دون أن يصف أو يذكر طقسا دينيا سوى مرة واحدة ليلة سفره لأول مرة إلى بيروت" توضأت وصليت ، وكذلك فعل والدي " [5] .

استخدامه للألفاظ العامية قليل جدا ، ويكون غالبا على لسان غيره ، ويضعها بين قوسين مثال ذلك : " قلت " شو يعني "[6] .

" جاءت نهاية العام وحصلت على الدرجة الأولى وطلبت من والدي " بكيت سجاير كمال " هديه لمعلم الصف ، كما هي العادة ، رد والدي بحزم :" روح قله يحطك الطش .. مين قلك تطلع الأول " حللت المشكلة ببيع الفلافل لساعات إضافية " [7] .

ولعل من أكثر الأمور التي جعلت سيرة البس تعبق برائحة الأصالة والتراث ، استخدامه لأسماء الأدوات الشعبية التي كانت في تلك الفترة جزءا من حياة الناس ، وربما تلاشى استخدام كثير منها الآن ، وأصبحت حبيسة معاجم الألفاظ الشعبية ، والقارئ الذي عايش هذه الألفاظ والأدوات عندما يقرؤها في سيرة البس تحيله إلى ذكريات جميلة ، ولها

---

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 123.
2) المصدر السابق ، ص132.
3) المصدر السابق ، ص174.

4) المصدر السابق ، ص 348.
5) المصدر السابق ، ص 42.
6) المصدر السابق ، ص 12 .
7) المصدر السابق ، ص 13.

وقعها في النفس، ومن هذه الألفاظ: اللوكس، واللمبة نمرة 4، والخم ، والزريبة ،والبقج ، ولعبة الغماية والأسكمو ، الرشتة بالعدس ، الحمصيص ، المجدره ، بابور الكاز واللجن ، كيس خط أحمر .

وكم كان جميلا استدعاء التاريخ المفعم بالدلالات الرمزية،والذي جعل التاريخ يعيد نفسه ، وذلك عندما استدعى " صلح الرملة " الذي وقعه صلاح الدين مع الصليبيين عام 1192 ، وذلك عند حديثه عن اتفاقية " أوسلو " ، وقد حاول من خلال هذا الاستدعاء التاريخي أن يجد مبررا لقبول اتفاق (أسلو) " ووجدت نفسي أقرأ من جديد سيرة صلاح الدين الأيوبي . علمونا في المدرسة أنه حرر القدس ، ولكن لم يتوقفوا أمام " صلح الرملة " الذي عقده صلاح الدين مع الصليبيين عام 1192 م ، وهو أشبه ما يكون باتفاقية أوسلو . اضطر صلاح الدين لتوقيع الصلح عندما تخاذل قادته وأصروا عليه أن ينهوا الحرب ، فوافق على اقتسام البلاد " [(1)] .

هناك بعض الأخطاء اللغوية وإن كانت قليلة ، ويبدو أن البس لديه مشكلة مع الأسماء الخمس فهو يرفع كلمة " أبو " كيفما وردت سواء أكانت منصوبة أم مجرورة ، ولم يذكرها بشكل صحيح إلا إذا كانت مجرورة بحرف جر .

" الشعب الذي أنبت أبو الراتب ، وقبله أبو علي إياد ، وعبد القادر الحسيني ، وحماد ، وأبو الطيب ، سينبت المئات بل الآلاف مثل أبو الراتب . وترتج سيارة الإسعاف بنا وهي تهبط طرقات الجبل الوعرة ، وعلى مدى أربع ساعات كاملة ، نتحدث عن أبي الراتب ، عن عطائه دماثة أخلاقه وصلابته، بطولته في البرجاوي الطبية، في الدامور والسعديات ، في عينطورة ، والجبل ، وقبلها في فلسطين .

شعاب فلسطين ودروبها تعرفه جيدا ، سنوات عطائه لا يستطيع الحديث أن يغطيها. وتتحدث الأختان عن أبي الراتب خلال تدريبه لهما مع المجموعة ، عن سعة صدره ، عن طيبته ، عن حديثه وعن صرامته .لقد كان الوحيد الذي يمكن أن ينجح في تدريب مجموعاتنا . وتكشف اليد المرتعشة عن وجه أبو الراتب ، ننظر إليه , تمتد يداي لإغلاق عينيه . ولكنه يفتحهما من جديد . أحس بخليط غريب من الأحاسيس والمشاعر ، أنفذ عبر النظر إلى عيونه الخضراء إلى سهول فلسطين ، إلى قريته الخضر ، وأرى في

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ،ص333.

عيونه صورة حماد وأبو الطيب " (1) .

ووقع مثل ذلك الخطأ في اللوحة الأولى فرفع ما حقه النصب "عندما تنثال الذاكرة ، تأخذ أشكالا ثلاثة : صور وأحداث واضحة وجلية , وصور وأحداث ملتبسة تحتاج إلى تدقيق ، وفرز للاقتراب من الحقيقة ، وصور وأحداث تستدعيها الذاكرة " (2) .

الغالب في السير الذاتية أن يسرد صاحبها حياته بضمير المتكلم ، وإن كان بعضهم قد يراوح في استخدام الضمائر، وفتحي البس اختار ضمير المتكلم لسرد سيرته ، قدم نفسه بنفسه ، وقدم كذلك باقي الشخصيات ، واختار ضمير المتكلم " يجعل الحكاية المسرودة ،أو الأحدوثة المروية، مندمجة مع روح المؤلف ؛ فيذوب ذلك الحاجز الزمني ، ويجعل ضمير المتكلم المتلقي يلتصق بالعمل السردي، وتتعلق به أكثر " (3) .

يلحظ القارئ أن البس يقع أحيانا ، أثناء سرده ، في مصيدة التكرار الممل ، وأحيانا أخرى يقع في فخ الإيجاز المخل ، مثال ذلك حديثه عن فترة ترحيله ، وإقامته في مصر كان بإمكانه أن يفصل أكثر ، ويبين سبب عدم الانسجام وسبب الاختلاف الذي انتهى بإبعاد مؤدب من معتمد فتح في القاهرة . إضافة لذلك ما ذكرت سابقا من إهماله الحديث المفصل عن أحداث تتعلق بأسرته .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ،ص 261 .
2) المصدر السابق ، ص 11.
3) مرتاض ، عبد الملك ، في نظرية الرواية ، ص 184.

الزمان والمكان في " انثيال الذاكرة هذا ما حصل "

الزمان في" انثيال الذاكرة هذا ما حصل "

ذكرنا سابقا أن البس يراعي في سرد سيرته الذاتية التسلسل الزمني من مولده حتى لحظة السرد ، وهذا الترتيب الزمني فرض على البس نظام ترتيب الأحداث ، أو المقاطع الزمنية وفق تتابع هذه الأحداث ، والزمن دائما يأتي مرتبطا بحدث ومكان ، ولكي يسيطر البس على الترتيب الزمني وتسلسله ، قسم سيرته إلى لوحات ، ارتبطت في معظم الأحيان بحدث أو مكان، فجاءت عناوين هذه اللوحات تحمل اسم حدث أو مكان، وأحيانا قليلة اسم شخص ، وحتى اسم الشخص جاء مرتبطا بحدث ، فالإحساس بالزمن عميق عند البس ؛ لأنه مرتبط بحدث ومكان ، وبقيت وطأة الزمن تلح على ذاكرة البس حتى انثالت ، لأن الزمن " نسج ، ينشأ عنه سحر ، ينشأ عنه عالم , ينشأ عنه وجود ، ينشأ عنه جمالية سحرية , أو سحرية جمالية ... فهو لحمة الحدث ، وملح السرد ، وصنو الحيز ، وقوام الشخصية " [1] .

ورغم التزام البس بالتسلسل الزمني إلا أن هذا لم يمنعه أحيانا من كسر هذا التسلسل، من خلال بعض الاسترجاعات والتذكرات ، والتي تحيلنا إلى زمن سابق أو لاحق، بل تحيلنا إلى زمن سابق على فترة سيرته الذاتية، مثال ذلك " وأتذكر حديث الشيخ محمد صالح البس" أبو علاوي "، ابن عم والدي عن معركة مركز عراق سويدان . كنت آنس إلى مجالسته ، يحدثني عن تجاربه في الثورة . انضم أبو علاوي إلى الثورة منذ عام 1936. كان أحد مجاهدي الجنوب، يردد دائما قصيدة الشهيد عبد الرحيم محمود، الذي تعرف عليه خلال الثورة :

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى

أخلى البريطانيون يوم 15 أيار 1948 مخفر عراق سويدان ذي المركز الاستراتيجي الهام الذي يتحكم بالطريق من بيت جبرين إلى المجدل .

قاد أبو علاوي مجموعة من سبعة ثوار .تمركزوا في المخفر فور إخلائه , هاجمتهم عصابات الاحتلال بشراسة سيطر الغزاة على البلدة ، لكنهم عجزوا عن احتلال المركز ،

1) مرتاض ، عبد الملك ، في نظرية الرواية ، ص 207.

فأخلوا البلدة . دافع عنه المجاهدون بضراوة ، بما يملكون من بنادق وعتاد جمعوه بشق الأنفس . ردوا كل الهجمات عليه حتى جاء الجيش المصري ، وتمركز فيه . انسحب المجاهدون إلى داخل الفالوجة لينضموا إلى المدافعين عنها . صمد المخفر ستة أشهر . أخلاه المصريون بعد هجوم واسع بالطائرات والدبابات . أبقى الإسرائيليون إحدى دباباتهم المدمرة في المعركة على باب المخفر تمجيدا لانتصارهم المكلف ، أو اعترافا بضراوة المقاومة " (1) .

ويظهر ذلك أيضا عندما يتذكر أحاديث والده وأبي علاوي (2) ، وكذلك عندما يتذكر ما فاضت به ذاكرة أمه " فاضت ذاكرتها في وصف سوق الخميس ، حيث يلتقي البدو والفلاحون وأهل المدينة لتبادل البضائع والغلال . تضحك وهي تروي بعض طرائف أهل الفالوجة في السوق . " (3) .

ويظهر قفز الزمن عند حديثه عن اختطاف الكباريتي أيام كان في الجامعة الأميركية (4) ، ثم يقفز بك إلى لقائه بعد سنوات طويلة ، وبعدما أصبح رئيس وزراء الأردن , ثم يعود للفترة الزمنية الحقيقية .

أما الزمن النفسي فإن أحداث سيرة البس المتلاحقة والضاغطة على نفسه جعلته يعيش تحت وطأة الزمن ، ولمحاولة الإفلات من هذا الزمن الضاغط حاول تسريع الأحداث في البداية ، فالحديث عن الطفولة جاء سريعا ومكثفا ، وإن كانت طفولة البس هي في الأصل قصيرة ، وقد ذكرت سابقا أنه يمثل جيلا فرضت عليه الحياة بقسوتها النضج المبكر وتحمل المسؤولية قبل الأوان .

نتيجة لهذا الزمن الضاغط وجدناه يقع في إرباك أحيانا ، فيسهب أحيانا ، ويختصر ما حقه التفصيل .

لقد كان البس في سباق مع الزمن , فهو يريد الدراسة والتفوق ، ويريد المشاركة مع التنظيمات الثورية ، ويريد أن يشارك في القتال , ويريد أن يعمل ، ويريد أن يحب ؛ ولهذا كانت معظم لوحاته تأتي الأحداث فيها متلاحقة وسريعة ، تعكس هذا القلق ، كان

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 341.
2) المصدر السابق ، ص 342.
3)المصدر السابق ، ص 343.
4) المصدر السابق ، ص 103-104.

البس طوال حياته يصارع الزمن ، ففي عقبة جبر صارع الزمن من أجل التفوق على مستوى المملكة في امتحان الثالث الإعدادي ، إلا أن الزمن يقطع عليه ، ويفرض الضياع والتشتت في مخيمات الأردن ، والحصول على المنحة إلى " " الإنترناشيونال كولدج " " كان في سباق مع الزمن ؛ لذلك لم يعلم به إلا في الساعات الأخيرة قبل الامتحان ، فيسابق الزمن ليلحق بالامتحان في اللحظات الأخيرة ، وكأنه مشهد درامي ، وفي " " الإنترناشيونال كولدج " " يظل يصارع الزمن كي يتأقلم مع الوضع الجديد الحضاري والتعليمي ، وفي الجامعة الأميركية يلاحقه القلق قبل دخولها وبعد دخولها ، فلحظات الانتظار والترقب والقلق النفسي جعلت الزمن يبدو طويلا وثقيلا ، وهو يسابق الزمن من أجل التخرج لمساعدة أهله في مخيم البقعة ، لكن الزمن يعود ليظهر ، ويقطع عليه الطريق ، فيطرد من الجامعة لمدة سنتين ، ويعود ليصارع الزمن من أجل العودة ، ولهذا كله تأتي العبارة الأخيرة في هذه السيرة " قهرتني الأيام ولكنها لم تهزمني بعد " [1] .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 350.

المكان في" انثيال الذاكرة هذا ما حصل "

المكان لا يمكن أن يوجد خارج الزمان , ولهذا تنشأ علاقة متبادلة ما بين الزمان والمكان ، ولذلك أوجد بعض النقاد مصطلح " الزمكان " فالتداخل والاندماج بين الزمان والمكان يجعلنا نكشف الزمان من خلال المكان ، وندرك المكان من خلال الزمان . والارتباط بالمكان يكون وثيقا وأكثر التصاقا لأنه شيء مادي محسوس .

قد يختلف المكان في الرواية عن المكان في السيرة الذاتية ، فالمكان في الرواية على الأغلب متخيل ، بينما المكان في السيرة الذاتية واقعي ومعروف ، والمكان سواء أكان في الرواية أم في السيرة الذاتية ، واقعيته لا تعني صورة فوتوغرافية مطابقة ، فالكاتب مهما حاول أن ينقل ويصف المكان كما هو ، إلا أنه ورغما عنه سيضفي عليه من خياله ومن روحه ما قد يضفي عليه جماليات عديدة ورؤية جديدة ، فهو يعيد تشكيل المكان بما يخدم رؤيته وفلسفته وأمانيه و تطلعاته وأحلامه ، وعلى الأقل قد ينظر الكاتب والمبدع إلى المكان من زاوية غير تلك الزاوية التي تنظر منها، فيبدو المشهد المرسوم للمكان مختلفا . فهذا المكان الموجود في العمل الأدبي يكون مستلا من أعماق روح المبدع .

يقول بوتور " وليس الآخرون ما رأيناه فيهم بأعيننا وحسب ، بل هم إلى ذلك ما أخبرونا به عن أنفسهم ، أو ما أخبرنا به غيرهم عنهم ، وليسوا كذلك أولئك الذين عرفناهم ، بل كل الذين ترامت إلينا أخبارهم . وهذا لا ينطبق على الناس وحدهم ، بل ينطبق كذلك حتى على الأشياء والأماكن ، كالأماكن التي لم أذهب إليها قبلا ، ولكنها وصفت لي " (1) .

قلنا إن إحساس البس بالزمن كان عميقا ، وهذا الإحساس العميق بالزمن ناتج عن إحساس أكثر عمقا بالمكان ، وقد أتضح لنا قبل قليل مجرى التداخل والاندماج بين الزمان والمكان ، وسيرة البس ما هي إلا سيرة البحث عن المكان المفقود، سيرة البحث عن الجذور ، فهو إنسان ولد في خيمة في مخيم بقي مجهولا بالنسبة له، ولهذا بقيت ذاكرة البس وهي تنثال ، تتشبث بالمكان أي مكان كان يعتقد أنه سيوصله إلى المكان المفقود ، ولهذا طغى وصف المكان على الشخوص، كما أنه ورد في عناوين لوحاته أكثر من

1) بوتور ، ميشال ، بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيس ، منشورات عويدات ، ط2 ،بيروت 1982م ،ص5 .

عشرين عنوانا تحمل اسم مكان ، ناهيك عن أن معظم العناوين الأخرى كانت مفعمة بدلالات المكان .

حديثه عن مخيم عقبة جبر جاء سريعا ، رغم أنه قضى فيه طفولته الأولى ، ولكن الوصف المفصل جاء لبيتهم في عقبة جبر ، لأن البيت بالنسبة للبس يبدو أنه يحمل دلالات الاستقلال والاستغناء " وفي ساحة البيت ، خم الدجاج ، والزريبة ، حيث كان والدي يضع فيها بعض الأغنام ، أثناء تجارته بالمواشي ، وبقرة وعنزتين شاميتين كانت تشكل ثروة ، وبالتالي ، توفر لنا الحليب والبيض ، فاستغنيت عن البيضة الأسبوعية التي كانت توزعها وكالة الغوث في مطعمها على طلاب المدارس . إضافة إلى " بيت خلا " أي مرحاض عربي ، فاستغنينا عن المراحيض العامة شديدة القذارة ، التي بنتها وكالة الغوث للسكان ، وظلت مشكلة الماء الذي كانت تنقله والدتي وأخواتي من العمال .

زينا البيت بالورد الجوري ، والريحان ، وبعض الأشجار دائمة الخضرة كالمجنونة والسجادة وأهمها ، السدرة ، شجرة الدوم في وسط الساحة " [1] .

وعندما تحدث عن أريحا وصفها ووصف شوارعها وأسواقها ومرافقها ومدارسها.[2]

في مرحلة بيروت يبرز وصف المكان ، يكاد لا يمر على مكان إلا ويصفه حتى وإن كان وصفا سريعا وما ذلك ، إلا لأن هذه الأماكن ارتبطت بأحداث وتحولات في حياة البس كان لها الأثر الكبير في حياته ، فعند وصوله للإنترناشيونال كولدج يبهره المكان والتحول من مخيم البقعة إلى الحضارة ، بيروت "سكن داخلي جميل ، فيه رفاهية زائدة : سرير أنيق بدل فرشة الإسفنج ، أغطية نظيفة تتبدل بانتظام ، بدل بطانيات الوكالة ، دفء يفوق طاقتي على التحمل بعد سنوات البرد الشديد في خيام المخيمات المختلفة ، طعام ، يفوق قيمته الغذائية و تنوعه علب السردين واللحمة وقوالب الجبنة والفسيخ ، وصديقي العدس بأشكاله المختلفة . بنايات مدرسية ، رائعة ، صفوف فسيحة ، وأنيقة " (3) .

وكان ، وهو يصف المكان ، يعقد مقارنات بين البيئة السابقة والبيئة الجديدة " يمتد حرم الجامعة الأميركية على مساحة واسعة على طول شارع بلس ، ويطل على البحر .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 16.
2) المصدر السابق ، ص 15.
3) المصدر السابق ، ص 49 .

يفصل البنايات عن البحر ملعب أخضر جميل ، تمارس فيه كل أنواع الرياضة ، وتنتشر مقاعد خشبية تطل عليه ، وعلى البحر ، في منظر خلاب ، يؤجج عواطف الجالسين عليها ومشاعرهم .

كنت أجلس أتأمل وأقارن ، أحزن على أهلي وأبناء شعبي في المخيمات ، وأتمتع بفرصتي في تذوق جمال افتقدته سنوات طفولتي .

تجولت في رأس بيروت ، وشارع الحمراء : مقاه ودور سينما ومطاعم ، وشوارع فرعية مليئة بنواد ليلية ، تقف على أبوابها بائعات الهوى لا يتركن فرصة تلوح لهن للاصطياد . لا يعرف شارع الحمراء الهدوء ، يضج بالحركة ليلا ونهارا . مقصد الناس من كل أنحاء لبنان ، ووجهة السائحين . تحيطه ثلاث مؤسسات جامعية : الأمريكية ، وكلية بيروت للبنات ، وكلية هايكزيان ، إضافة إلى عدة مدارس خاصة وحكومية. ينفتح على أماكن أكثر فقرا :حي الرمل الظريف ، وعائشة بكار ، والبسطة ، والخندق العميق ، وبعيدا عنه بقية الأماكن التي يسكنها فقراء جاءوا من الأرياف طلبا للرزق .

يبدأ صعودا من ساحة الشهداء ، وينتهي بحي (أبو طالب) المنحدر باتجاه البحر حيث المنارة ، والحمام العسكري ، ومقهى الروضة ، وصعودا من هناك إلى الروشة ، صخرة الانتحار ، وأجمل المقاهي . يقود كورنيش البحر إلى كورنيش المزرعة ، والطريق الجديدة ، ودوار الكولا ، والجامعة العربية ، والفاكهاني ، وصولا إلى مخيمي صبرا وشاتيلا . وعلى امتداد البحر باتجاه المطار مخيم برج البراجنة ، يليه الأوزاعي ، وضاحية بيروت الجنوبية . تزدحم أرصفته في كل الأوقات ، وخصوصا بعد الظهر ، بأناس لا يملكون المال للجلوس في مقاهيه الفاخرة ، يتمتعون بالمشي ، ذهابا وإيابا . حياة الحمراء ، ثقافة ومتعة . " (1) .

كان البس يرى أن بيروت هي الطريق إلى فلسطين ؛ لذلك كان صعبا عليه أن يفارقها ، فعندما ذهب إلى بغداد من أجل الدراسة لم يستطع البقاء ، وفسر البس ذلك بأنه طلب منه أن يكون في حزب البعث هذا سبب ، ولكن حتى ولو لم يطلب منه ذلك ، اعتقد أنه كان سيعود ؛ لأنه لم ير في بغداد طريقا نحو فلسطين ، وهذا ما حصل معه أيضا عندما ذهب إلى القاهرة .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 53-54.

ولحظات الصراع لاتخاذ القرار بالعودة أو البقاء في بيروت ، كان القرار الحكيم بالعودة إلى الأردن ، والسبب الظاهري للعودة من أجل أهله في البقعة ، ولكن السبب الحقيقي – فيما أظن– أنه لم يعد يرى في بيروت الطريق نحو فلسطين بعد التحولات التي حصلت،ولكن كل هذا لم يمنع تعلقه ببيروت والتي بقيت– كما ذكرت سابقا – حاضرة في جميع مراحل سيرته . ولهذا كان فراقها صعبا وأليما ، واستمع إليه ، وهو يناجيها ساكبا روحه في الكلمات في الأماكن مودعا لها " يصعب فراقك يا بيروت . تجولت في مباني " " الإنترناشيونال كولدج " " والجامعة الأميركية . جلست طويلا على مقاعدها الخشبية الأثيرة إلى نفسي ، أواجه البحر وأناجيه : كم هو مستقبلي غامض مثلك ؟ درت مرات حول ملعبها البيضاوي الأخضر. دخلت إلى غرف الصفوف في كلية الصيدلة ، والمباني التي شهدت الاحتلال والطرد ، ومشيت بين أشجارها . توقفت طويلا أمام الشجرة التي حفرت عليها وعائدة الأحرف الأولى من اسمينا في سنوات تفتح القلب الأولى .

طفت في شوارع رأس بيروت والحمراء ، ورأس النبع و البرجاوي، الفاكهاني وأزقتها ، والمكاتب التي كنت أجتمع فيها مع إخوتي وأخواتي في التنظيم ." [1] .

من الأماكن التي سكنت قلب البس ، وبقي متعلقا بها شقته في بيروت ووصفه لها تحول إلى قصيدة شعرية جميلة ، وشقة بيروت يبدو أنها تمثل للبس الملاذ ، بل هي وطن مصغر ؛ لذلك رفض التخلي عنها لصديقه لأنها تشكل ذاكرته " وجدت أن الأصدقاء أسكنوا أحد الشباب في الشقة ، واستمروا في دفع أجرتها في غيابي حفاظا عليها. اتفقت معه أن يظل فيها على أن نتشارك الأجرة ، وتبقى قانونيا باسمي لأني أحتاج إليها . طلب تحويل عقد الإيجار باسمه ليتزوج . رفضت رغم تعاطفي معه. شكلت هذه الشقة ذاكرتي. أحبها وأتحدث أحيانا مع جدرانها ، نتذكر معا أياما خوالي فيها ذكريات حية . ما أجمل أن تكون الجدران شريكة في استرجاع الأحداث . تشهد دون صوت أو ضغينة . تخفي عن الناس الكثير ، لكن الجدران تفضح جنبك ، وتصرخ محتجة أنك تجاوزت هنا أو هناك ، فتغوص وإياها في استرجاع مفرح أو مضنن لبعض ما صمت عنه مضطرا . ترد وتشرح لها وتستذكر معها دون رقيب . تضحك بصوت عال أو تبكي بحرقة . تشهد

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 287.

عليك دون أسئلة جارحة ." [1] .

قلت سابقا أن سيرة البس هي سيرة البحث عن المكان المفقود ، وعن الجذور ، ولهذا يختم سيرته بالبكاء على مشارف الفالوجة بلدته الأم ، يبكي ويتذكر حديث أهله عن الفالوجة .

1) البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، ص 312-313.

النتائج والتوصيات

سعت الدراسة نحو دراسة فن السيرة الذاتية، وتتبع تطوره قديما وحديثا من خلال دراسة لهذا الفن في الأدب العربي القديم، وتتبع نشأته، وبيان المساحة التي شغلها هذا الفن في الأدب العربي قديمه وحديثه، ثم دراسة البناء الفني لهذا الفن .

وقد حاولت الدراسة – منذ البداية – الإجابة عن أسئلة رئيسية أربعة هي :-

أولا:ما الحيز الذي شغلته السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، وما هي مراحل نموها وتطورها ؟

ثانيا : ما مدى التطور والنمو والمراحل التي مر بها فن السيرة الذاتية في الأدب العربي في العصر الحديث ؟

ثالثا : ما الأشكال الفنية التي أخذها فن السيرة الذاتية في العصر القديم والحديث ؟

رابعا : كيف تشكل البناء الفني لأشكال السيرة الذاتية قديما وحديثا ؟

وعند الإجابة عن هذه الأسئلة بينت وأثبتت الدراسة ما يلي : -

أولا: استطاعت الدراسة أن تبين -في التمهيد- عجز نقاد السيرة الذاتية،الغربيين والعرب، عن إيجاد تعريف مانع جامع للسيرة الذاتية، وظلت الإشكالية قائمة، وقد رأى الباحث أن استعصاء السيرة الذاتية على التعريف قد يكون دليلا على عمق هذا الفن وشموليته، وتعدد أشكاله وألوانه .

ثانيا: أثبتت الدراسة وجود بذور وجذور للسيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، وذلك من خلال تتبع نشأة وتطور هذا الفن في أدبنا وتراثنا القديم، وقد أثبتت الدراسة خلو الأدب الجاهلي من هذا الفن ، بعد مناقشة لآراء أهم النقاد،وربطت نشأة هذا الفن بالعصر الإسلامي .

ثالثا : بينت الدراسة أنواع السير وخصائصها، وذلك من خلال تتبعها في العصور الإسلامية المتلاحقة .

رابعا : قامت الدراسة باستخراج أهم نصوص السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم وتصنيفها ، ثم عرضت أهم نماذجها مبينة أهم خصائصها وملامحها .

خامسا: أثبتت الدراسة وجود نماذج من السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم تمتعت بسمات وشكل فني ناضج يكاد يقترب من السمات الفنية للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث .

سادسا : كشفت الدراسة النقاب عن سيرة ذاتية تعد من أنضج السير الذاتية في الأدب العربي القديم ، وهي مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري في غرناطة المسماه " بالتبيان " . ولم تحظ هذه الدراسة باهتمام النقاد ، وقد استطاعت الدراسة أن تثبت نضج هذه السيرة الذاتية من خلال دراستها دراسة نقدية بينت جمالياتها .

سابعا : تتبعت الدراسة نشأة وتطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، فبينت الظروف الحضارية التي أثرت على نشأتها وتطورها ، ووقفت عند مرجعياتها المتمثلة بالمرجعية التراثية ، والغربية ، والإيديولوجية الفكرية .

ثامنا : تتبعت الدراسة إرهاصات السيرة الذاتية وبداياتها في الأدب العربي الحديث ، وتناولت بالدراسة نماذج منها " الساق على الساق " للشدياق، و" الأيام " لطه حسين.

تاسعا: بينت الدراسة التداخل والتعالق بين السيرة الذاتية والأجناس الأدبية الأخرى القريبة منها ، ففرقت بين السيرة الذاتية والتاريخ ، والمذكرات ، واليوميات ، والسيرة الغيرية ، والرواية .

عاشرا : راعت الدراسة عند اختيارها النموذج الفني للدراسة في الأدب العربي الحديث ، أن يكون أحدها نصا بكرا لم يدرس من قبل ، فاختارت " انثيال الذاكرة هذا ما حصل " أنموذجا للدراسة، حيث نشرت هذه السيرة والدراسة ما زالت قيد البحث ، واستطاعت الدراسة ، من خلال نقدها وتحليلها، كشف جمالياتها وأهم سماتها الفنية .

وكل ما يطمح إليه هذا البحث أن يكون قد أجاب عن بعض الأسئلة وأن يفتح الباب أمام أسئلة أخرى كثيرة .

المصادر والمراجع :

1. إبراهيم ، عبد الله ، السردية العربية الحديثة ، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة ، المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2003 م .
2. إدل ، ليون ، فن السيرة الأدبية ، ت ، صدقي حطاب ، بيروت ، دار العودة ، 1988 م .
3. الاستانبولي، محمود مهدي ، طه حسين في ميزان العلماء والأدباء ، بيروت ، المكتبة الإسلامية ، ط1 ،1983م .
4. الأشتر،عبد الكريم،من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ الكيناني ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ،1980 م .
5. الأصفهاني، أبو فرج ، كتاب الأغاني ، بيروت ، دار صعب ، (د.ت).
6. ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، بيروت ، دار الثقافة ، ط3، 1981م .

7. الأندلسي، ابن حزم ، طوق الحمامة، في الألفة والآلاف، بيروت ،دار الجيل ، ط1 ،1997 م .

8. باختين ، مخائيل ، أشكال الزمان والمكان في الرواية ، ت يوسف حلاف ، تونس ، وزارة الثقافة ، 1990م .

9. بحراوي ، حسن ، بنية الشكل الروائي ، المغرب ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1990م .

10. بدر ، عبد المحسن ، حركات التجديد في الأدب العربي، القاهرة، دار الثقافة ، 1979م .

11. بدر ، عبد المحسن طه ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، القاهرة ، دار المعارف ، 1963م.

12. بدوي ، عبد الرحمن، الموت والعبقرية ، الكويت ، بيروت ، وكالة المطبوعات ، دار القلم ، (د.ت) .

13. بروكلمان، كارل ، ما صنف العرب من أقوال انفسهم ، ج1.

14. البس ، فتحي ، انثيال الذاكرة هذا ما حصل ، عمان ،دار الشروق ، ط1 ، 2008م .

15. البس ، فتحي ، مع الحياة – أحزان مشتركة – ، مجلة الحياة الجديدة ، العدد 5217 ، الاثنين 10 أيار (26 جمادى الأولى) 2010 م .

16. بطشون،نهى، راهبة بلا دير،عمان، دار ورد، ط1، 2010م .

17. البغدادي ، تاريخ بغداد ،بيروت،دار الكتب العلمية ج1 .

18. ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان ، القاهرة ، نشر و تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، 1955 م .

19. بني عمر ، زياد ، أراء تيسير سبول النقدية ومدى اتساقها مع أدبه ، رسالة ماجستير ، الأردن ، جامعة آل البيت ، 2006م .

20. بهنسي، عفيف ، الحداثة والمعاصرة ، مجلة الوحدة المغربية ، ع \ 82\83 ، 1991م .

21. بوتور ، ميشال، بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيس، بيروت ، منشورات عويدات ، ط2 ، 1982م .

22. بوزيه، لويس، مظاهر السيرة الذاتية، بيروت، حولية الجامعة اليسوعية ، م1، 1918 م .

23. التوحيدي ،أبي حيان ،الصداقة والصديق ،ت ،د. إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، دار الفكر ، ط2 ، 1996 م .

24. ابن الجوزي ،عبد الرحمن، لفتة الكبد إلى نصيحة الولد،تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري ، دار الكتب العلمية 1987م.

25. جينيت ، جرار ، خطاب الحكاية ، ترجمة محمد المعتصم وزملاه ،الجزائر ، منشورات الاختلاف ،ط3 ، 2003م .

26. الحافظ، منير ، التراث في العقل الحداثي، دمشق دار المعرفة، ط2001،1م .

27. حسن فهمي ، ماهر ، السيرة تاريخ وفن ، الكويت ، دار القلم ، ط2 ، 1983 م .

28. حسين ، طه ، الأيام ج1 ، مصر ، دار المعارف ، ط41، (د.ت) .

- الأيام ج2 ، مصر ، دار المعارف ، ط 80 ، 1995 م .
- الأيام ج3 ، مصر ، دار المعارف ، ط 6 ،1982 م .

29. الحموي، ياقوت، معجم الأدباء ، لبنان بيروت ، دار إحياء التراث العربي، وزارة المعارف العمومية ، طبعة الأخيرة .

30. الخطيب ، حسام، أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية، مجلة المعرفة،ع ،153، ديسمبر، 1974م.

31. الخطيب،لسان الدين،الإحاطة في أخبار غرناطة،ت،محمد عبد الله عنان، القاهرة ، ط1، مكتبة الخانجي ، 1977م.

32. ابن خلدون،عبد الرحمن،التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ،بيروت ، منشورات ، 1979 م .

33. داغر ، يوسف أسعد ، مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ، جمعية أهل القلم ، 1955م

34. الدايم ، يحيى ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ، (د.ت)
35. ديورانت ، ويل وايرل ، قصة الحضارة ، ت زكي نجيب محمود ، بيروت ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، 1988 م .
36. ابن الزبير، عروة ،مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، جمع وتحقيق ، محمد مصطفى الأعظى،الرياض،منشورات مكتب الردايه العربي لدول الخليج،ط ،1981م
37. السخاوي،محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع في القرن التاسع ، بيروت ، منشورات دار الحياة ، (د.ت)
38. السعافين ، إبراهيم ، تطور الرواية العربية في بلاد الشام ، بيروت لبنان ، دار المناهل ، ط2 ، 1987م .
39. السمان، غادة ، إسرائيليات بأقلام عربية، ط1، دار الهادي ، بيروت ، 2001
40. شاكر ،تهاني ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، 2002م .
41. الشدياق، أحمد فارس، الساق على الساق في ما هو الفارياق ، عمان الأردن ، وزارة الثقافة ، 2009م.
42. شرف،عبد العزيز ، أدب السيرة الذاتية ،مصر ،الشركة المصرية العالمية للنشر العربي ، ط1 ، 1992 م .
43. الشعراني ،عبد الوهاب، لطائف المنن والأخلاق، تحقيق : أحمد عزّو عنايه ، دمشق ، دار التقوى ، 2004 م .
44. الشيخ، خليل،السيرة والمتخيل، قراءات في نماذج عربية معاصرة،ط1، دار أزمنة، عمان 2005م .
45. صالح، فخري، فدوى طوقان في الرحلة الأصعب، جريدة الدستور، الأردن 7/16 / 1993.
46. الصكر ، حاتم ، الرحلة الأصعب ، مجلة الجديد ، ع6، عمان 1995.
47. الضاوي ، أحمد عرفات، أحمد فارس الشدياق وصورة الغرب فيه ، عمان ، منشورات وزارة الثقافية، ط 1 ، 1994م .
48. ضيف ، شوقي، الترجمة الشخصية، القاهرة، دار المعارف ، ط4 ، 1987 .

49. الطريطر، جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، تونس ، مؤسسة عيدان للنشر ، ط1 ، ج1 ، 2004 م .

50. طوقان ، فدوى – الرحلة الأصعب ، ط2 ،دار الشروق ، الأردن 2007

– رحلة جبلية. رحلة صعبة، ط2، دار الشروق، عمان1985

– على قمة الدنيا وحيدا ، دار الآداب ، بيروت 1973

51. عباس،إحسان،فن السيرة،عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط6 ،1992م .

52. –عبد الغني حسن ، محمد، أحمد فارس الشدياق ، القاهرة ، الدار المصرية للطباعة ، (د.ت) .

– التراجم والسير، القاهرة دار المعارف، ط3، (د.ت) .

53. عبد النور ،جبرائيل جبور،المعجم الأدبي، بيروت،ط1،دار العلم للملايين، 1979م .

54. العجلوني، نايف، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد العاشر، العدد الرابع 1995.

55. عوض ، لويس ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، القاهرة ، دار الهلال ، (د.ت) .

56. غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفيه ، بيروت،منشورات دار مكتبة الهلال ، 1979م .

57. الغامدي ، صالح ، سيرة ذاتية الرواية السعودية ، مجلة عالم الكتب ، دار تثقيف للنشر والتأليف ، المجلد الثامن والعشرون ، عدد مزدوج (الأول والثاني) ، 2006م .

58. الغامدي، صالح، " الممكن والمستحيل في السيرة الذاتية: قراءة في كتاب :" التبيان " للأمير عبد الله بن بلقين" مجلة الدرعية، العددان: الثاني والثالث والأربعون، رمضان 1429ه .

59. غانم عبد الله ، أنعام " السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث " (رسالة ماجستير) ، الجامعة المستنصرية ، بغداد، 1990م.

60. الغزالي محمد ،المنقذ من الضلال،تقديم وتحقيق وتعليق محمد مصطفى ومحمد محمد جابر ، مصر ،مكتبة الجندي ، (د.ت) .

61. فاخوري، حنا ، تاريخ الأدب العربي، بيروت،المطبعة البوليسية، (د . ت) .

62. ابن كثير ،إسماعيل ،البداية والنهاية ، بيروت ،دار المعرفة ، ط5 ،1999م .
63. لوجون ، فيليب ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ،ترجمة عمر حلي ، بيروت ، المركزالثقافي العربي ، 1994م .
64. المؤيد ،هبة الله الشيرازي ، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ، ت حسن كامل حسين ، القاهرة ، دار الكتاب المصري ، 1949 م .
65. ماي ،جورج،السيرة الذاتية ،ت محمد القاضي و عبد الله الصولة، تونس ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، ط1 ، 1992 م .
66. مبارك ،زكي ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، دار الجيل ، (د.ت).
67. المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، السيرة الذاتية لكتاب الأيام لطه حسين ، تونس ، المطابع الموحدة ، 1992م .
68. مرتاض ، عبد الملك ، في نظرية الرواية ،الكويت، عالم المعرفة،1998 م .
69. المقدسي،أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ،بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1936م .
70. منقذ ، أسامه ، الاعتبار ، ت فيليب حتي ، الولايات المتحدة ، م جامعة برنستون ،1930 م .
71. مهران ، رشيدة ، طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية ، الإسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1 ، 1979 م .
72. موسى ، سلامة ، تربية سلامة موسى ، مؤسسة الخانجي ، 1962م .
73. ناجي حسن أبو شريحة الموسومة بـــ " السيرة الذاتية في بلاد الشام في الأدب العربي الحديث " (رسالة ماجستير)، جامعة اليرموك،اربد، الأردن،1997م0
74. ناصف،مصطفى،محاورات مع النثر العربي،سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1997 .
75. نبيل ، مصطفى ، سيرة ذاتية عربية من أبن سينا حتى علي باشا مبارك ، مصر ، دار الهلال ، 1992م .
76. نجم ، محمد يوسف،القصة في الأدب العربي الحديث ، بيروت ، دار الثقافة 1966م

77. اليمني ،عمارة ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ت هيرتويغ درن برغ ، شالون ، مطبعة مرسو ، 1897م .

The abstract in English:

Zyad Mohammed Jamel Bni Omar, this dissertation discusses the autobiography in the old and modern Arabic literature and studies the autobiography in an artistic and objective way.

This dissertation shows the elementary appearance and the development of the autobiography in the old and modern Arab literature. Furthermore, it aims to show to which extent critics take care of the autobiography; it concentrates on the artistic structure of the autobiography as well.

The dissertation itself and the division of the questions about it lead the researcher to introduce his dissertation in an introduction, body, and conclusion.

Firstly, the introduction of the dissertation, it deals with the study problem, the study reasons, the former studies about the autobiography, the research curriculum, and the study division.

Secondly, the first section of the dissertation, it is titled 'the autobiography in the old Arabic literature' and is introduced in an introduction and two chapters.

The introduction of this section indicates the autobiography and its concepts according to the Arabic and European critics. On the other hand, the first chapter of this section is titled ' the autobiography in the old Arabic literature' and focuses on the origin of the autobiography in our old literature and our cultural heritage. It is essential to mention that the first chapter of this section is divided into three points as follows: the first one discusses the appearance and the development of the autobiography in the old Arabic literature and also include the critics' significantly important points of views while the second point emphasizes the autobiography in the consequent Islamic ages and talks about different kinds of the autobiographies and their features. As regards the third point, it shows the

autobiographies in the old Arabic literature also classifies them and shows their integral samples and features.

In terms of the second chapter, it artistically and objectively discusses the autobiographies in the old Arabic literature and includes the prince Abd Allah Bin Pelgein's memories, Zeiri tribe's kings' the latest prince, which have collected in a book 'At Tepian'. Again, It is crucial to mention that the second chapter of this section, viz. the first section is divided into three points as follows: the first one discusses the prince Abd Allah Bin Pelgein's memories while the second point discusses and analyzes these memories where as the third point artistically shows these memories in terms of the language, the narrative, the conversation, and the place and time element.

Concerning the second section of this dissertation, it shows the modern Arabic literature and includes three chapters.

Relating to the first chapter, it is titled ' emergence and development'. What is more that it shows the urban situations that have affected the emergence and the development of the autobiography in the modern Arab literature as it is shown in the first point of this chapter. As regards the second point of this chapter, viz. the first chapter of the second section, it focuses on the references of the autobiography in the modern Arabic literature, so that it concentrates on the heritage reference, the European reference, and the intellectual and ideological

reference. Regarding the third point, it shows the defects and the beginnings of the autobiography in the modern Arabic literature. In this point, the researcher studies Ashadiag's memories, namely 'Assag Ala Assag' and Taha Husain's memories, that is 'Al Ayam'.

About the second chapter of the second section of this dissertation, it shows the autobiographies and the other literary types. In addition, it tries to shows the literary works to differentiates them from the autobiography. Consequently, the first point of this chapter discusses the autobiography and the history. However, the second point of this chapter discusses the autobiography and memories where as the third point discusses the autobiography and journals. On the other hand, the forth point discusses the autobiography and the novel and also the autobiography and the European autobiography.

As to the third chapter, it is titled ' the autobiography in the modern Arab literature artistically'; it discusses Fetihi Al Pes's autobiography, 'Inthial Al Thakira', as an example for the autobiography. Additionally, Fetihi Al Pes's autobiography is analyzed and is highlighted its significant features in terms of the subject and the artistic factor.

As far as the conclusion is concerned, it contains the integral results that the research has achieved.

This dissertation aims to answer some questions and emerge many other questions as well.